

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الألسن - جامعة عين شمس



النص والخطاب والاتصال

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الألسن ــ جامعة عين شمس



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

الكتاب : النص والخطاب والاتصال
المؤلف : الأستاذ الدكتور محمد العبد

تاريخ الإصدار : ٢٠١٤ م
حقوق الطبع : محفوظة للناشر

الناشر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي
العنوان : ٨٢ شارع وادى النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر
تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ١٧٣٤٥٩٣ ٠١٢٢
البريد الإليكتروني:
m.academyfub@yahoo.com
m.academyfub@gmail.com

رقم الإيداع : ٤٩٩٥ / ٢٠١٣
الترقيم الدولى : ٥ - ٦٢ - ٦١٤٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

تصدير

تريد الدراسات التي يضمها هذا الكتاب أن تشق طريقاً جديداً في حقل اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، موصولة بطائفة من الأدبيات الأصيلة في ذلك الحقل إفادة وتعميقاً وتطبيقاً على نصوص عربية أسهمت في صناعة الثقافة العربية والأدب العربي القديم والمعاصر، انطلاقاً مما رأيناه مفاهيم جوهرية لابد للبحث اللساني العربي المعاصر من أن يدلي فيها جاهداً بدلوه.

في الدراسة الأولى تناولت مفهوم الكفاية وتطوره من الكفاية اللغوية عند التحويليين إلى الكفاية الاتصالية عند اللسانيين الاجتماعيين والتداوليين.

وفي الدراسة الثانية استهدفت بالتحليل مفهوماً محورياً ومعياراً نصياً أولياً هو "الحبك" في قراءة متأنية لتبصرات البلاغيين العرب لذلك المعيار سواء أكان حبكاً نصياً أدبياً أم حبكاً نصياً قرآنياً. وقد خلصت هنا إلى جملة من الملحوظات والاستخلاصات التي تؤكد وعياً نظرياً قوياً بأهمية ذلك المعيار في صناعة النص وتحليله في آن معاً.

أما الدراسة الثالثة، فقد حاولت فيها الوقوف على أهم الوسائل اللغوية والمنطقية التي مالت النصوص الحجاجية العربية قديماً وحديثاً إلى توظيفها للإقناع بوجهة النظر.

وفي الدراسة الرابعة عالجت مفهوماً مركزياً في تداولية أفعال الكلام: وهو مفهوم " تعديل القوة الإنجازية " الذي أتوقع له استثماراً موسعاً حثيثاً في ميدان اللسانيات العربية المعاصرة والنقد الأدبي العربي المعاصر: وذلك لوقوعه في مركز العملية الاتصالية في صورتها العامة والأدبية جميعاً.

أما الدراسة الخامسة والأخيرة في ذلك الكتاب، فهي محاولة لاستجلاء العلاقة بين الصورة الأدبية والثقافة، وقد بدا لي هنا أن الثقافة العربية قد عنيت بالصورة الأدبية من حيث هي نص على حساب العناية بها من حيث هي خطاب، ومن ثم كانت العناية بتحليل عناصر الصورة وجمالياتها على حساب ربط الصورة بسياقاتها الاتصالية والثقافية، حيثما تصبح الصورة الجميلة في سياق اتصالي ثقافي غير جميلة في سياق اتصالي ثقافي آخر.

صراحة كل من هاينمان W.Heinemann وفيفيجر D.Viehweger. وعلى رغم أن كلا منهما يرى أن كثيراً مما يسمى بعلم اللغة النصي لا يكفي – فيما يبدو – لوضع المعايير التي يجب أن يقوم عليها علم للنص، من حيث إن العنصر الأساسي - وهو " النص " وحده – قد أظهر أنه غير كاف لبناء فرع معرفي مستقل، فإنهما قد ذهبا إلى أنه لا يمكن أن يفهم علم اللغة النصي على أنه علم شامل، بل يجب على علم اللغة النصي أن يبقى بحثه محصوراً في أبنية النصوص وصياغاتها، مع إحاطته بالعلاقات الاتصالية والاجتماعية والنفسية العامة [1].

إن تعريف النص بالخطاب شيء مألوف عند كثير من الدارسين. يقول روجر فاولر Roger Fowler : " إن كل نص خطاب، فعل لغة من لدن مؤلف ضمني، له تصميم محدد لقارئ ضمني محدد الهوية " [2]. وتقول جوليا كريستيفا Julia Kristeva: " النص الأدبي خطاب يخترق حالياً وجه العلم والأيديولوجيا والسياسة " [3].

لقد اعترف ميخائيل استوبس Michael Stubbs بما يعتري النص والخطاب من غموض وخلط، ولكنه يرى – في الوقت نفسه – أن الاختلاف بينهما اختلاف ضئيل لا يجعله يأمل في تأسيس فارق نظري مهم بينهما. ولكنه يعود – في محاولته التمييز بينهما – إلى تقديم بعض الملحوظات المفيدة :

١- فنحن نتكلم غالباً عن " النص المكتوب " في مقابل " الخطاب المنطوق ".

٢- وغالباً ما يعني " الخطاب " الخطاب التفاعلي interactive discourse، على حين يكون النص مونولوجا غير تفاعلي، سواء في ذلك أن يكون مونولوجا منطوقاً جهرة أم غير ذلك [1].

---

(١) راجع : فولفجانج هاينمان وديتر فيفيجر : مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي . جامعة الملك سعود. السعودية (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م). ص ص ٩-١٢.

(٢) فاولر، روجر: اللسانيات والرواية. ترجمة. لحسن إحامة. دار الثقافة. الدار البيضاء. ط ١ (١٩٩٧م) ص٦٦.

(٣) كريستيفا، جوليا: علم النص. ترجمة. فريد الزاهي. مراجعة عبدالجليل ناظم. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. ط٢ (١٩٩٧م) ص١٣.

(1) Stubbs. Mechael: Discourse Analysis. Basil Blackurll. p.9.

التمييزات السابقة نرى لها نظيراً في الثقافة العربية. بينما ارتبط النص بالمتن أو ناتج العملية الاتصالية، إذا بالخطاب يرتبط بالاتصال الشفاهي المباشر من ناحية، كما يرتبط بحضور الطرف الآخر في العملية الاتصالية وتفاعله على نحو ما وأداء وظائف أيديولوجية من ناحية أخرى.

الحوارية والتفاعل في الخطاب مما يلح على التنويه به غير واحد من المعاصرين. خذ مثلاً على ذلك ديان ماكدونيل Dian McDonell التي تجعل الحوار الشرط الأول للخطاب [1].

الحيرة بين المصطلحين أو المراوحة بينهما في دراسات نظرية وتطبيقية لاتحصى تؤول إلى حصر بعض المنظرين النص في البناء المجرد في الوقت الذي يربط فيه آخرون ذلك البناء بمقاصده ووظائفه. يرى وليم جراب W.Grabe أن النص هو المعادل البنائي للغة في استعمال حقيقي [2].

ويقوم هـ.ج. ودوسون H.G.Widdowson على دراسة الأدب بوصفه نصاً والأدب بوصفه خطاباً.

يعالج ودوسون في الحال الأولى موضوعات مثل: الإحالة، والعدول، ومحددات الاختيار، وقواعد المصاحبة، وغيرها من خصائص الأساليب والتراكيب [3]. فإذا عالج الأدب بوصفه خطاباً صارت بؤرة اهتمامه هي أن قطعة من الاستعمال اللغوي – أدبية كانت أم غير أدبية – ليست تمثيلاً محضاً لمقولات لغوية؛ أي ليست نصاً فحسب، ولكنها أيضاً قطعة من الاتصال، قطعة من خطاب من نوع أو آخر. يقول ودوسون: "السؤال المهم في هذه الحال هو عن أهمية السمات أو الملامح النصية textual features التي تلزم لفهم الأدب بوصفه خطاباً. إن مركز هذه المسألة هو إشكالية العلاقة بين مراعاة القواعد وإمكانية التأويل" [4].

من ناحية أخرى، يرى كل من دو بوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler أن النص هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية التي تنهض على

(١) ماكدونيل، ديان: مقدمة في نظريات الخطاب. ترجمة وتقديم د. عز الدين إسماعيل. المكتبة الأكاديمية. ط١ (٢٠٠١م) ص٦٧.

(٢) Grabe, W. : Written Discourse Analysis. A R A L. Vol.5. U S A (1985) p. 106

(٣) Widdowson, H. G. : Stylistics and The Teaching of Literature. Longman. Group Ltd. London (1975) pp.7-26.

(٤) المرجع السابق ص ص ٢٧-٤٦ .

الوحدات والأنماط البنائية حال الاستعمال. بيد أن النص عندهما – في الوقت نفسه – ليس محض هيئة أو تركيب من الوحدات الصرفية والجمل. الأحرى عندهما أن الوحدات الصرفية والجمل توظف من حيث هي وحدات وأنماط إجرائية تشير إلى المعاني والأغراض أثناء الاتصال . يرى دو بوجراند ودرسلر أنه من الصعب أن نحصر دراسة النصوص في صناعة الكلام أو الكتابة؛ وذلك أن هذه الصناعات ناقصة بطبيعتها إذا عزلت عن العمليات الإجرائية التي تؤديها[1].

إذا كان النص عند هذين المنظرين الرائدين هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية، فإن الخطاب عندهما موقف أو سلسلة من الواقعات Events التي يعرض فيها المشاركون نصوصاً بوصفها أفعالاً خطابية discourse actions. ويجعل كل منهما الاتصال من خلال الخطاب حالة من حالات التخطيط التفاعلي interactive planning [2].

يظل التمييز بين النص والخطاب من زاوية كون النص في الأساس بنية في مقابل كون الخطاب في الأساس موقفا هو التمييز السائد في أدبيات نظرية النص وتحليل الخطاب ، بيد أن الإلحاح على ربط النص بمقاصده ووظائفه مما يعيد هذين المصطلحين في الاستعمال إلى دوائر متشابكة ، يبدو فض الاشتباك بينهما أمراً عسيراً جداً .

ومهما يكن من أمر، فإن هناك فروقا أولية ينعقد عليها الإجماع نظرياً، من أهمها ما يلي :

١- ينظر إلى النص في الأساس من حيث هو بنية مترابطة تكون وحدة دلالية. وينظر إلى الخطاب من حيث هو موقف ينبغي للغة فيه أن تعمل على مطابقته .

٢- يحصل من ذلك القول بأن الخطاب أوسع من النص؛ فالخطاب بنية بالضرورة ولكنه يتسع لعرض ملابسات إنتاجها وتلقيها وتأويلها. ويدخل في تلك الملابسات ما ليس بلغة كالسلوكيات الحركية المصاحبة إيجابياً للاتصال.

---

(١) De Beaugrand, R- Dressler, W. : An Introduction To Textlinguistics . Longman London-New York (1983) p. 35.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .

٣- النص في الأصل هو النص المكتوب، والخطاب في الأصل هو الكلام المنطوق، ولكنه يتلبّس بصورة الآخر على التوسع؛ إذ يطلق النص على المنطوق، كما يطلق الخطاب على المكتوب؛ كالخطاب الروائي.

٤- يتميز الخطاب عادةً بالطول؛ وذلك أنه في جوهره حوار أو مبادلة كلامية. أما النص فيقصر حتى يكون كلمة مفردة (مثل : " سكوت") ويطول حتى يصبح مدونة كاملة (مثل : " رسالة الغفران ") .

٥- يرتبط ميل الخطاب عادةً إلى الطول والامتداد والحوارية بتمكينه من التعبير عن وجهات النظر والمواقف المختلفة. إذا اتخذنا من خطاب الرواية مثالاً رأينا أن دراسة الخطاب تجري ضمن كل مظاهر الرواية التي تتصل بها مفاهيم مثل " الحوار " و " وجهة النظر " و " الموقف " و " رؤية العالم " و " نبرة الخطاب " و " اعتقادات المؤلف " ، وأنواع الأحكام التي يصدرها ، وشبكة العلاقات التواصلية بين المؤلف والشخوص والقارئ الضمني ...الخ .

●●● ●●● ●●●

الفصل الأول
الكفاية اللغوية
والكفاية الاتصالية

١- توطئة :

عرفت النظرية اللغوية طائفة من الثنائيات المفهومية التي ارتبطت بنظريات ومناهج في الفكر اللغوي والتي تطول بها القائمة[1]. كان فردينان دوسوسير F.de Saussure قد ميز . كما هو معلوم . بين اللغة Langue والكلام Parole . اللغة عنده مخزن مملوء بأعضاء من مجتمع معين عبر استعمالهم النشيط للكلام. ليست اللغة وظيفة أو عملا للمتكلم ، بل هي إنتاج تمثله بطريقة مجهولة[2]. أما الكلام فهو الجانب الأدائي التنفيذي. والأداء فردي دائما، والفرد سيده الدائم[3]. وقد بنى دوسوسير على ذلك مقولته بأن اللغة اجتماعية والكلام فردي ، وأن اللغة أساسية والكلام ثانوي[4].

وفي عام ١٩٧٥ عاد نوام تشومسكي N. Chomsky إلى التمييز بين النظام الذي يصنع الإطار اللغوي للمجتمع والنشاط الذي يتحرك مع الأفراد في تفاعلاتهم داخل هذا الإطار. عرفت اللغة عنده بالكفاية Competence وقويل الكلام بالأداء Performance . الكفاية عنده تعنى معرفة المتكلم بلغته ، والأداء ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة. نعنى هنا ببحث مشكل الكفاية في النظرية اللغوية. كان شأن مفهوم الكفاية التشومسكية شأن النظرية التحويلية ذاتها. بينما الرأي عند سامبسون Sampson فى النظرية التحويلية أنها كانت تطورا مشئوما في علم اللسانيات[5]، ترى ميلكا إفيتش أنها دخلت بالنحو الحديث أهم مراحل

---

(١) من بين هذه القائمة نذكر مثلا :

النظام العام Usage / الاستعمال الفردي Use، والجملة Sentence/ المنطوق Utterance، الحدث القولي / Locutionary الحدث الإنجازي Illocutionary act، علم الدلالة Semantics / التداولية Pragmatics .

ويرى بركله Brekle أن ثنائية اللغة/ الكلام التي ارتبطت بدوسوسير ، كانت قد عرفت ـ على نحو ضمني على الأقل ـ في أعمال أقدم من دوسوسير ، مثل: علم اللغة Sprachwissenschaft الذي ميز فيه صاحبه جابيلنتز (Gabelentz 1901) بين اللغة والكلام ، أو بين النظام اللغوي والكلام الفعلي .

انظر في تفصيل ذلك :

Brekle, Herbert : Semantik, Uni / Taschenbuecher, 2 Verb. Auflage Wilhelm Fink Verlag- Muenchen (1972) s.50.

(٢) دوسوسير ، فردينان: فصول في علم اللغة العام ، ترجمة دكتور أحمد نعيم الكراعين ، دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية (١٩٨٥)ص٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص٣٦ ..

(٤) المرجع نفسه ص٣٧

(٥) سامبسون ، جفري : مدارس اللسانيات : التسابق والتطور ، ترجمة دكتور محمد زياد كبة ، النشر العلمي والمطابع ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض (١٤١٧هـ) ص١٧١ .

تطوره، وأن صدور كتاب تشومسكي «البنى النحوية Syntactic Structures» في عام ١٩٥٧م كان أهم الأحداث اللسانية في السنوات الأخيرة[1].

والحق أن مفهوم الكفاية قد شغل اللغويين المعاصرين منذ أن أدخله تشومسكي إلى الآن. يبدو هذا فيما أدى إليه من جدل ونقاش ومحاولات تعديل وإعادة صياغة، كما يبدو فيما خلفه من كفايات أخرى وفيما أثراه من أفكار ومفاهيم جديدة بين مناهج لغوية مختلفة.

فضلا عن الكفاية الاتصالية التي تقف – على نحو ما سنرى – موقف الند الصريح لكفاية تشومسكي اللغوية، صار مفهوم الكفاية مفهوما مثمرا في كثير من التراكيب؛ فهناك ما يسمى الكفاية التفاعلية interaktionale Kompetenz، وهي – في تعريف أوكزار Oksaar – قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية اللغوية وغير اللغوية متكلما ومستمعا، وفاق مواقفها وتبعا لقواعد الجماعة الثقافية الاجتماعية والنفسية الاجتماعية. ويبني البحث في الكفاية التفاعلية على أساس القانون التالي :

«من يقول ماذا في أي قناة لمن بأي تأثير؟»

وينبغي في عملية التفاعل تحقيق التطابق التداولي والسيميائي والمحافظة عليه، كما ينبغي مراعاة السياقات الثقافية[2].

وقد كان لرواد الإثنوميثودولوجيا (المنهجية الشعبية) عناية خاصة باختبار الكفاية التفاعلية في التفاعلات اللغوية؛ مثل شيكوريل Cicourel. يرى شيكوريل أن الصغار يدركون الوضع Status الذي يكون عليه البالغون في إنجازهم التفاعلات الاجتماعية، على رغم ما يكون لها من خواص موقفية . إنهم يستخدمون – في هذه الحالة– التنويمات اللغوية، ويعرفون الضوابط المعيارية، ويراعونها، ويؤدون أدوارهم الكلامية أداء مناسبا، وينصتون، ويقاطعون، ويستهلون مخاطبات وينهونها على نحو مناسب، ويتهيأ لهم تعبير الوجه الصحيح، والسلوك الجسدي المناسب، ونبرة الصوت المناسبة[3].

---

(١) إلينش، مبلكا: الجماعات البحث اللساني، ترجمة دكتور سعد مصلوح، ودكتورة وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة (١٩٩٦م) ص ٣٨٠

(٢) Lewandowski, Theodor: Linguistisches Woerterbuch 2, Quelle U. Meyer Heidelberg, 6. Auflage. Wiesbaden (1994) S. 476 .

(٣) Lewandowski, op. Cit., S 476 .

كذلك يشير كل من هاينمن Heinemann وفيفيجر Viehweger، في إطار عرضهما استراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، إلى ما يسمى بالكفاية الموضوعية Sachkompetenz. وهي قدرة المؤلف – في تصميمه نصا كبيرا – على تحديد ما لديه ليقوله، وما يبغي أن يصل إليه عند طوائف بعينها من القراء. ويحتاج ذلك – كما يذكران– إلى نفس طويل واستراتيجية ممتدة الأمد. ومن ثم، جعلا الكفاية الموضوعية والكفاية الاتصالية فروضا ضرورية لكتابة النصوص الكبرى[1].

وفي نظرية إنتاج النص وتلقيه يذكر سوونسكي Sowinski نوعين آخرين من الكفاية، هما الكفاية النصية Textkompetenz، والكفاية الدلالية Semantische Kompetenz.

يعني الأول ببحث اكتساب اللغة اكتسابا لغويا نفسيا، وملاحظة المقدرة على تشكيل النص عند الطفل، وملاحظة تطور الجمل المكونة من أكثر من كلمة واحدة عند الطفل الصغير في عامه الثالث[2].

ولا تعني الكفاية النصية عند دويوجراند التمييز فقط بين النص واللانص، بل يتضمن مفهوم الكفاية النصية طائفة من المعارف والإجراءات، مثل: معرفة رصيد البدائل Options في النظم الافتراضية، ومعرفة قيود النظام الخاصة بانتقاء البدائل أو تلافيها، ومعرفة المعتقدات والمعلومات الشائعة في المجموعة الاتصالية أو المجتمع عن العالم الحقيقي، ومعرفة أنواع النصوص، وإجراءات استخدام النظم الافتراضية عند تفعيلها actualization، وإجراءات إنتاج النصوص، وإجراءات استقبال النصوص، وإجراءات المحافظة على النصية ... إلخ[3].

أما الكفاية الدلالية، فهي تمكن مستمع النص وقارئه من عمليات التجريد أو استنباط المعنى Abstrationen والتي تتيح له تقديم معلومات مناسبة أخرى من معرفته على أساس موضوع معروف من قبل. ومما يؤدي إلى تنمية القدرات اللغوية، لا سيما تنمية الكفاية النصية، استقاء الموضوع من قدر من

---

(1) Heinemann, Wolfgang – Viehweger, Dieter: Textlinguistik, Eine Einfuehrung. Max Niemeyer Verlag Tuebingen (1991) S. 251.

(2) Sowinski, Bernhard: Textlinguistik, Eine Einfuehrung. Max Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart- Berlin- Koln- Mainz (1983) S.58

(3) دو بوجراند، روبرت: النص والخطاب والإجراء، ترجمة دكتور تمام حسان، عالم الكتب – القاهرة (1418هـ - 1998م) ص 110-111

المعلومات المنظمة تنظيما نصيا في إطار تلقي النص ومن استنباط الموضوع استنباطا ضمنيا في إطار إنتاجه"[1].

من ناحية أخرى، تنطلق النظرية اللغوية النفسية المعاصرة من ضرورة الزعم بأن مستخدم اللغة لديه معرفة بنائية ضمنية implicit structural knowledge، وهدفها تشخيص مثل هذه المعرفة المسماة بالكفاية اللغوية. ينبغي للنظرية اللغوية النفسية الكاملة أيضا، أن تبين كيفية دخول هذه المعرفة في طور الاستعمال، فيما سمي بالأداء اللغوي[2]. ويمكن القول بأن نشوء علم النفس اللغوي مدين لنظرية تشومسكي اللغوية؛ إذ عني فيه بابتكار نماذج للسلوك اللغوي مبنية على نظريته في الكفاية والأداء. ويرى مارك ريشل Marc Richelle أن تشومسكي قد أضفى أهمية أساسية على موضوع اكتساب اللغة في إطار النظرية العامة للغة، وأنه قد جدد الكيفية التي يطرح بها مشكل اكتساب اللغة[3]. وعلى رغم ما أثاره نموذج الكفاية الذي اقترحه تشومسكي نموذجا للأداء من مشكلات ، فإن مزيته التي لا يجادل فيها ، هي أنه نبه علماء النفس إلى ما يتصف به الإنتاج اللغوي من تعقد بالغ.

والحق أن النظرية اللغوية النفسية ذاتها قد أبدت شيئا ظاهرا من الفطنة إلى تفاعل أنماط مختلفة من المعرفة في المواقف الاتصالية الفعلية متجاوزة بذلك حدود المعرفة عند تشومسكي. يقول سلوبين Slobin مثلا: في الاتصال الفعلي تتفاعل أنماط عدة من المعرفة: المعرفة بالصوتيات، والنحو، وعلم الدلالة، والتداولية، والأعراف الاجتماعية، والعالم الفيزيقي، والشخصية - إلخ"[4].

---

(1) Sowinski, op. Cit., S. 95

يميز إيكو Eco بين نوعين من الكفاية الدلالية :

- يسمى الأول قاموسا: إنه التعريف المجرد والقاموس الأوَّلي للمفردة .
- ويسمى الأخرى موسوعة ، وهي التعريف التفاعلي الملموس والبراغماتي الذي يمثله مجتمع معرفيا ، لوحدة مضمونية معينة . وهذه النظرية الأخيرة هي التي يتبناها إيكو ، لأنها هي القادرة في نظره على تفسير كفاءة مجتمعية في كل تناقضاتها الحية . راجع في تفصيل ذلك المقدمة التي وضعها محمد مفتاح في صدر ترجمة كتاب مايكل ريفاتير: دلائليات الشعر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط (١٩٩٧) ص LXV .

(2) Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, 2. edition USA (1979) p. 12.

(3) ريشل ، مارك: اكتساب اللغة ، ترجمة دكتور كمال بكداش ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ص١١ ، ١٢ .

(4) Slobin, op. Cit., p. 12 .

وفي ربع القرن الأخير نشطت حركة تحليل الأبنية اللغوية للنصوص والأساليب الأدبية في إطار المنهج التحويلي التوليدي متخذة من نموذج الكفاية اللغوية قاعدة لمعرفة ما يملكه المتكلم الأصلي من بنية لغته.

وقد عنى هنا بظواهر عدة، من أهمها :

(أ) تعيين درجات الصحة النحوية المختلفة.

(ب) الاهتمام بتأمل ظاهرة التعقيد التركيبي.

(ج) الاهتمام بمسألة العلاقة بين المقبولية والصحة.

(د) الاهتمام بمسألة العلاقة بين البنى غير النحوية وأنواع محددة من التعابير المجازية.

وفي المسألة الأخيرة مثلا يلاحظ ثورن Thorn ما يلي :

(أ) أن الجمل غير النحوية ungrammatical ترد في الشعر أكثر مما ترد في النثر كثيرا.

(ب) أن هذه الجمل المنحرفة تشكل عنصرا أساسيا في استجابتنا للشعر.

(ج) على رغم معرفتنا بانحراف هذه الجمل المنحرفة ، فقد يحدث ألا نشعر بأنها منحرفة عن سياق القصيدة.

(د) أن الصيغ غير المعيارية معيارية في سياق القصيدة[1].

كذلك كان لمفهوم الكفاية اللغوية الذي أدخله تشومسكي أثره الواضح في حرص نظرية الحدث اللغوي على توكيد أفكار بعينها. يرى فاندرفيكن Vanderweken مثلا أن المناطقة وفلاسفة اللغة من ذوي الاتجاه المنطقي– مثل كارناب ومونتاج وكابلان – قد مالوا إلى اختزال كفاية المتكلم اللغوية في قدرته على فهم شروط صدق القضايا التي تعبر عنها منطوقات الجمل في السياقات المتنوعة الممكنة التي يستعمل فيها لغته، وأنهم تجاهلوا المظاهر الإنجازية الأخرى لمعنى الجملة. نتج عن هذا عجزهم عن إعطاء اهتمام كاف للاختلافات في المعنى التي تقع بين جمل من أنماط تركيبية مختلفة، نحو :

(١) راجع في تفصيل ذلك: ثورن ، ج. ب. القواعد التوليدية والتحليل الأسلوبي ، في: اللغة والخطاب الأدبي ، مجموعة مقالات جمعها وترجمها دكتور سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي – بيروت ط٣ (١٩٩٣م) ص ٧٥-٩١ .

◆ جون سوف يفعل هذا.

◆ من فضلك، يا جون، افعل هذا !

◆ لو يفعل جون هذا !

هذه الأنماط التركيبية التي تعبر عن القضايا ذاتها بالنظر إلى سياقات المنطوق الممكنة ذاتها، ولكنها تستخدم لأداء أحداث إنجازية ذات قوى مختلفة. في منهج فاندرفيكن لا تنفصل الكفاية اللغوية عن الأداء، كما هي الحال في مدرسة تشومسكي. على العكس من ذلك، تزول كفاية المتكلم اللغوية بأنها قدرته على أداء أحداث لغوية وفهمها في السياقات الممكنة المتنوعة التي يستعمل فيها لغته[1].

هكذا كانت الكفاية التشومسكية المادة الأولية لألوان شتى من الكفايات، ناسبت تفاوت الاتجاهات والاهتمامات، وارتبط بعضها بالمتكلم، وبعضها بالمستمع (أو القارئ)، وبعضها الآخر بعملية التفاعل اللغوي ذاتها بين هذين الطرفين.

٢ ـ الكفاية اللغوية :

(أ) مفهوم الكفاية اللغوية :

يميز تشومسكي بين ما يعرفه متكلم لغة ما معرفة ضمنية، وهو ما يسميه بكفايته his Competence وما يفعله بهذه المعرفة وهو ما يسميه أداءه his Performance[2]. المعرفة التي تكمن في مقدرة الشخص على استعمال لغته، هي إذن معرفة ضمنية فقط.

أما النحاة، فيحتاجون – كما يقول هدلستون Huddelston – إلى معرفة واعية بمعرفة المتكلم/ المستمع الضمنية[3]. كان تشومسكي يشخص النحو التوليدي للغة بأنه وصف صريح للكفاية الذاتية لدى المتكلم أو المستمع المثالي، وبديهي أن قدرة المتكلم على استعمال لغته تتضمن قدرته على إنتاج

(١) Vanderweken, Danial: Meaning and Speech Acts, Vol. 1 : Principles of Language Use, Cambridge Uni. Press New York (1990) pp. 10-11 .

(٢) Chomsky, Noam: Topics in the theory of Generative Grammar, in: Current Trends in linguistics (ed. Thomas A. Sebeok) 3- The Hague – Paris (1966) p.3.

(٣) Huddleston, Rodney: An Introduction to English Transformational Syntax. Longman. London (1979) p.1.

منطوقات جديدة وفهمها؛ أي منطوقات لم يتكلم بها من قبل ولم يسمعها"[1].
ويشرح ليفاندوفسكي الكفاية قائلا : «الكفاية نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلا عقليا، والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية، وتمكن الجمل من التعبير عن أفكاره؛ إذ ترتبط الأصوات بالدلالات. وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية، التي تقضي بتطابق التعبيرات مع ما تعبر عنه في لغة بعينها، كما تضم الأحكام عن حسن السبك الشكلي والدلالي، ومرجعية التعبيرات، والتماثل الدلالي، والتعدد الدلالي، ودرجة الانحراف»[2].

يكتمل وضوح مفهوم الكفاية اللغوية بالوقوف على النقاط المهمة التالية في نظرية تشومسكي النحوية :

١- أن اللغة مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل، كل جملة منها متناهية الطول ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر. واللغات الطبيعية جميعها في صورها المنطوقة أو المكتوبة هي لغات بهذا المعنى؛ وذلك أن كل لغة طبيعية تمتلك عددًا متناهيا من الوحدات الصوتية (أو الحروف) على رغم وجود جمل عدة غير متناهية.

٢- الهدف الرئيس في التحليل اللغوي للغة هو التمييز بين السلاسل النحوية التي تمثل جمل اللغة والسلاسل غير النحوية التي ليست بجمل اللغة، ثم دراسة أبنية السلاسل النحوية.

٣- نحو اللغة إذن هو الجهاز الذي يولد جميع السلاسل النحوية للغة ولا يولد السلاسل غير النحوية. وتختبر صلاحية النحو المقترح للغة بالوقوف على حقيقة كون السلاسل التي يولدها سلاسل نحوية حقا أم لا؛ أي إن كانت سلاسل مقبولة عند المتكلم الأصليnative speaker.

٤- تفترض في المتكلم الأصلي معرفة حدسية intuitive knowledge بالجمل النحوية للغته، وينبغي للنحو القيام بمهمة إنتاج تلك الجمل على نحو فعال ومضمن. وتفترض هنا أيضا معرفة جزئية بما يعد جملا وبما لا يعد (أي الجمل Sentences واللاجمل Non- Sentences).

---

(١) المرجع السابق ص١ .

(٢) Lewandowski, op. Cit., S.570.

٥- النحو مرآة سلوك المتكلم الذي يستطيع – على أساس تجربته المحددة باللغة – أن ينتج أو أن يفهم عددا غير محدد من الجمل الجديدة. وكل تفسير لفكرة النحوية في اللغة grammaticalness : أي كل تشخيص للنحوية في اللغة في حدود المنطوقات اللغوية الملاحظة، يعد تفسيرا لوجه رئيس من وجوه السلوك اللغوي.

٦- لا تحدد فكرة النحوية من خلال المعنى أو الدلالة. تتساوى الجملتان في خلوهما من المعنى، ولكن متكلم اللغة يعرف أن إحداهما فقط هي الصحيحة نحويا. ويمثل تشومسكي على ذلك بالجملتين التاليتين :

- Colorless green ideas sleep furiously.
- Furiously sleep ideas green Colorless.

فهما مشتركتان في خلوهما من المعنى، ولكن الأولى منهما نحوية. يخلص تشومسكي من مناقشة مثل هذه الجمل إلى أن البحث عن تحديد دلالي للصحة النحوية سيكون عديم النفع[1].

٧- نحو اللغة هو بالضرورة نظرية اللغة. وتعتمد كل نظرية علمية على عدد متناه من الملحوظات، وتبحث عن ارتباطها بالظواهر الملاحظة، وتتنبأ بظواهر جديدة عن طريق إنشاء قوانين عامة في حدود أبنية افتراضية. ويعتمد نحو اللغة على مدونة أصلية Corpus من المنطوقات (الملحوظات). وهو يحتوي على قوانين نحوية محددة بحدود الوحدات الصوتية الخاصة والعبارات وغيرها بهذه اللغة (أبنية افتراضية hypothetical constructs). تعبر هذه القوانين عن العلاقات البنائية بين الجمل المكونة للمدونة والعدد غير المتناهي من الجمل التي يولدها النحو من هذه المدونة (التوقعات). النظرية الصحيحة للغة هي تطوير المعايير التي تحكم انتقاء نحوها الصحيح[2].

اللغة عند تشومسكي إذن طائفة من الجمل، ولكنها الجمل الصحيحة نحويا فحسب. والنظرية اللغوية نظرية للجمل الصحيحة نحويا. ويعتمد متكلم اللغة الأصلي في تمييزه بين الجمل الصحيحة نحويا والجمل غير الصحيحة على معرفته الحدسية. هذه المعرفة تمكنه أيضا من إنتاج عدد غير متناه من

(1) Chomsky, Noam: Syntactic Structures, Mouton – The Hague – Paris, 8. th. Printing (1969) pp. 13-15.

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

الجمل الجديدة وفهمها. هي مصدر المعلومات في تحديد فكرة النحوية، وليس المعنى أو الدلالة. يضيف هدلستون، أحد ممثلي المنهج التحويلي، فكرة مهمة، هي أن تحديد اللغة لا يكون من خلال المنطوقات المحتملة.

ويمثل على ذلك فيما يلي :

(1) I was hoping that you – would you tell hom the news for me?
(2) I was hoping that you would tell hom the news for me .

فالبنية النحوية للمنطوق الأول غير مكتملة مقارنة بالمنطوق الثاني وعدم الاكتمال ظاهرة شائعة تماما في الكلام التلقائي ومن هنا، يجعل المنطوق الأول منطوقا محتملا potential utterance ، يمكن أن يقع. ومتكلم الإنجليزية يعي أن (١) مختلف في حالته عن (٢).

وينبغي للوصف الذي يناسب معرفة المتكلم/المستمع بالإنجليزية، ينبغي له أن يعبر عن هذا الاختلاف في الحالة. ولما كانت المنطوقات من كلا النمطين يمكن أن تقع، فلا يمكن أن تشخص الاختلافات في الحالة في حدود فكرة احتمالية الوقوع Potentiality of Occurrence وإن (٢) وليس (١) ينتمي إلى مجموعة الجمل حسنة السبك Wellformed Sentences في الإنجليزية[1].

يعنينا مما سبق الانتهاء إلى أن « الجملة Sentence « مفهوم ينتمي إلى نظرية الأداء. يمثل المنطوق في (٢) علاقة مباشرة وبسيطة (نسبيا) بين المنطوق والجملة، بيد أنه لا توجد جملة أو سلسلة من الجمل تناظر المنطوق في (١). ليست كل المنطوقات منطوقات جمل وهذه علة مهمة للاحتفاظ بالتمايز النظري بين المفاهيم. حينما ينطق متكلم بالمنطوق في (٢)، فلا يؤخذ هذا على أنه دليل على أن معرفته بالإنجليزية معرفة غير تامة . الأحرى أن نسلم كما يقول هدلستون . بأن استعمال المتكلم لغته قد لا يعكس على نحو مباشر معرفته بهذه اللغة(٢) .

وغني عن البيان أن نحو اللغة ذاته يفسح مجالا لتراكيب جديدة غير متناهية. ولعل قدرة المتكلم على توليد الجمل الجديدة وفهمها، وحدسه عن بنية العبارات والجمل، وحدسه عن التفاوت بين درجات حسن السبك للجملة الواحدة، مما يتيح لنا القول بأن مفهوم الكفاية عند تشومسكي لايحاذي محاذاة تامة مفهوم اللغة عند دوسوسير، وذلك أن اللغة عند دوسوسير ليست. كما ألمحنا سابقا . إلا مخزنا ونظاما نحويا يوجد بالقوة في كل عقل.

---

(١) Huddleston, Op . Cit, P. 2

(ب) الكفاية والأداء :

الكفاية معرفة ضمنية باللغة. والأداء استعمال اللغة في مواقف ملموسة. الكفاية معرفة مكتسبة، والأداء فعل كلامي متحقق. يعني هذا أن الأداء هو طريق الوصول إلى الكفاية: فالكفاية لا تدرك إلا من أفعال الأداء اللغوي. من ثم عدت الكفاية بناء افتراضيا مثاليا، في الوقت الذي يكون فيه الأداء ناتجا لغويا واقعيا. أثار هذا التمييز مشكلا عويصا بين علماء اللغة وعلماء علم اللغة النفسي، هو مشكل تحديد ماهية الوقائع التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد الكفاية والواقعات التي يجب استبعادها، من حيث إنها واقعات غير مناسبة. يقول مارك ريشل: « لقد حل علماء اللغة بوجه عام هذه المشكلة بالرجوع إلى حدس الأشخاص الناطقين، وبالاعتماد على أنفسهم عند الاقتضاء بوصفهم عينات ممثلة للجماعة اللغوية »[1].

تثير الكفاية في علاقتها بالأداء إشكالات عدة، نوجزها ـ من خلال ما لاحظه العلماء بعد تشومسكي ـ فيما يلي :

١- يؤدي الفصل بين الكفاية والأداء إلى النظر إلى الكفاية على أنها اللغة الطبيعية في صيغتها المثالية، والنظر إلى الأداء على أنه الحقيبة البالية التي تحوي الآثار الجانبية الفسيولوجية وغيرها من الأشياء التي لا يتصل بعضها ببعض[2].

٢- ليس كل ما يبيحه معيار الصحة النحوية مقبولا عند الأداء. تكون العبارة صحيحة نحويا، ولكن أحدا لاينطق بها ولا يفهمها في الاستعمال العادي. إن جملة نحو: « أكل الفأر الذي قتله الهر الذي طارده الكلب الجبن » تعد جزءا من اللغة عند كل من ينحو منحى تشومسكي، لأن قواعد اللغة تجيزها. ولكن متن اللغة لا يعرف مثل هذه الجملة. يرجع مارك ريشل ذلك إلى أن بعض القيود التي ترتبط بالأداء تحظر استعمال مثل هذه العبارات، مثل قيود الذاكرة، والتعقد المنطقي الذي يستحيل حله .. إلخ [3].

(١) اكتساب اللغة ص٣٦

(٢) Halliday, M. A. K: Language as Social Semiotic: The Social Interpretation Of Language and Meaning. Open Uni .London (1993) p . 38

(٣) اكتساب اللغة ص٣٨

٣- استبعد تشومسكي عند إنشاء نظريته النحوية عوامل مثل محدودية الذاكرة، والعدول عن خطة الكلام أثناء التكلم، كما تجاهل الأخطاء[1]. يثير هذا تساؤلا عن مدى جعل الأداء الفعلي (على رغم ما يعرض من عوارض، وعلى رغم تفاوته عند المتكلم الواحد من مناسبة إلى أخرى) عيارا للحكم على الكفاية التي عدت دائما طريقة مثالية للعمل وفقا للقوانين. أينظر إلى تلك العوامل والعوارض مستقلة عن الكفاية اللغوية، أم يعتد بما تحمله من مضامين عن « معرفة المتكلم أو المستمع بلغته »؟ يقول ريشل: « المعلوم أن الطفل يتلفظ ببعض العبارات غير الأصولية (أي غير المطابقة لقوانين النحو). وحين يتلفظ الراشد بمثل هذه العبارات، فإن عالم اللغة يستبعدها بسهولة بوصفها أحداثا طارئة من الأداء ولا تندرج بالتالي في قواعد النحو »[2].

إن معيار الصحة النحوية ليس معيارا مطلقا. وكثيرا ما يجرى تحديد بنية المنطوق الأساسية من خلال وحدات الخطاب الكبرى، سواء أكانت مقالية أم مقامية. ولم يكن غريبا مع مثل تلك الإشكاليات أن تصدف نظرية تحليل الخطاب عن مفهوم الكفاية وأن تراه مفهوما غير مساعد في حقلها[3].

(جـ) نقد الكفاية اللغوية :

تعاور علماء علم اللغة الاجتماعي وعلماء النص ومحللو الخطاب مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكي ومن نحا منحاه بالنقد من جهات مختلفة. يمكن أن نوجز أهم ما أُخِذَ على الكفاية فيما يلي :

١- تقابل ثنائية الكفاية/الأداء بين ما يعرفه المتكلم وما يؤديه، في الوقت الذي لا حاجة فيه إلى استظهار ما يعرفه المتكلم: وذلك أن خلفية ما يؤديه دليل على ما يمكنه أن يؤدى: أي دليل على الممكن الذي هو موضوعي Objective، لا الكفاية التي هي ذاتية Subjective[4].

(١) النص والخطاب والإجراء ص١٠٨ .

(٢) اكتساب اللغة ص ٣٨ .

(٣) Coulthard, Malcolm-Montgomery, Martin : Studies in Discourse Analysis, Routge-London and New York (1989) PP . 28-83.

(٤) Halliday, op. Cit., pp. 34-38.

نظرية بمبادئ نظرية أو نظريات أخرى. فهم الكفاية في إطار النظرية التحويلية التوليدية لا يجعل الاعتبارات السياقية التداولية أمرا واردًا؛ وذلك أن تحليل الأبنية النحوية للجمل في ذاتها (وليس من خلال المعنى أو الدلالة) المبدأ الذي يُسيِّر الفكر التحويلي التوليدي عند تشومسكي ومدرسته. وكان تشومسكي نفسه يدرك أن «معرفة الإنسان اللغوية: أي نظام القواعد المستدمج داخل ذهن الإنسان، هي فقط عامل واحد من عوامل كثيرة تقرر كيف تستخدم أو تفهم عبارة ما في موقف معين»[1].

كان تشومسكي قد درس الرياضيات والفلسفة في جامعة بنسلفانيا. وقد صبغت هذه الدراسة فكره اللغوي، وساعدته على تطوير فرضية «الكليات النحوية Syntactic Universals» التي ناظرت « الكليات الصوتية الوظيفية » عند رومان ياكوبسون Roman Jakobson أحد مؤسسي اللسانيات الوظيفية في مدرسة براغ. كان جوهر فرضية تشومسكي أن التراكيب اللغوية متشابهة بين شتى اللغات، وأن كل لغة تعرف عددا غير متناه من الجمل، على رغم تناهي العلامات اللغوية فيها. من أجل ذلك، استقرت عناية تشومسكي على نشاط العقل البشري في إنشاء أعداد غير متناهية من الجمل في أنماط مختلفة، صارفا النظر عن ارتباط هذا النشاط وتلك الأنماط بسياقاتها الاتصالية الفعلية. وهذا مكمن النقص في نظرية تشومسكي في الكفاية اللغوية. هي نظرية جزئية أو ناقصة؛ وذلك أنها انصرفت إلى البنى التركيبية والجوانب الشكلية من اللغة ، حتى شغلت عن المحيطات التبليغية الاجتماعية التي تقع فيها تلك البنى وعن الجوانب الإنسانية التي تشكل صيغ التفاعلات اللغوية اليومية. ويلحظ المرء أن بعض الجمل التي وصفت في التحليل النحوي عند تشومسكي بأنها خاطئة نحويا، إنما هي بالأحرى جمل لم يملك قائلوها أن يهيئوا لها مقاماتها المناسبة والتي تجعل لها معنى. ومن أدلة الحكم على نظريته في الكفاية بالنقصان، أنها لم تجعل محلا في حسبانها للجمل المحتملة المقبولة في الأداء: فالمتكلمون لا يقصرون أداءهم اللغوي على جمل مكتملة تحددها حدود النحو وقوانينه النموذجية، بل قد يصدرون أيضا

---

[1] خلاص : التفكير واللغة ص ١٧٢

منطوقات جمل ناقصة من حيث البني النحوية، كاملة في وظائفها الاتصالية التداولية.

في نظرية تشومسكي في الكفاية، يبدو لنا الفصل واضحا بين النحو وميادين العلوم الإنسانية، فضلا عن وضوح الفصل بين النحو وعلم الدلالة من ميادين العلوم اللغوية ذاتها. ونحن مع ستوبس Stubbs في أن الفصل بين الميادين وفروع الميادين يفيد في غالب الأحوال؛ وذلك أنه يتيح درس طائفة مهمة من الظواهر التي يضرب عنها الصفح[1]. ولكن النظرة المترابطة إلى اللغة، ينبغي لها أن تأخذ في الحسبان استعمال اللغة استعمالا يوميا في خطاب متصل.

(د) إعادة صياغة الكفاية :

يمكن القول بأن بعضا من المآخذ السابقة تعد توجيهات إلى إعادة صياغة كفاية تشومسكي اللغوية. ولعل أهم محاولات إعادة الصياغة الموسعة محاولة هربرت بركله Herbert Brekle وهانز بولر Hans Buehler .

سعت محاولة بركله إلى بيان العلاقة بين الكفاية والأداء وبين ثلاثية دو سوسير: الكلام Parole/ اللغة Langage/ ملكة اللغة faculte de langue في إطار الأبعاد السيميائية الثلاثة: النحو، والدلالة، والتداولية. إنها محاولة لإعادة الصيغة في ضوء ما يقدمه علم الدلالة من مكونات دلالية للكفاية اللغوية العامة، وما تقدمه التداولية لها من مبادئ: مثل اشتراك المتكلم والمستمع في الأدوار الاجتماعية وفي سياقات التعامل Handlungskontexte[2].

أما هانز بولر وزملاؤه، فينطلقون من تحديد موضوعات علم اللغة الكبرى في :

١- اللغة في نظامها .
٢- اللغة في وظيفتها الاجتماعية .

ومن هنا كانت العناية بأمرين اثنين:

١- فحص المفهومين: الكفاية/الأداء فحصا نقديا، وتعريفهما تعريفا جديدًا في المسائل اللغوية الاجتماعية.

---

(١) Stubbs. Michael: Discourse Analysis. Basil Blackwell-Oxford (1989) p 11.
(٢) Brekle, op. Cit., SS. 124-130

٢- تعيين الوضع النموذجي لكل من المتكلم والمستمع: لعمل نموذج للبنائية اللغوية والنحو التحويلي التوليدي وعلم الدلالة والتداولية[١].

المتكلم أو المستمع النموذجي في منهج النحو التحويلي التوليدي، لا يملك أي علامات فيزيائية، ولا أي علامات اجتماعية: كالتربية والتعليم والوظيفة، والعلاقات الاجتماعية، والجماعة التي ينتمي إليها.

دعا هذا بولر وزملاءه إلى العودة إلى «نمذجة» المتكلم والمستمع، ومحاولة تقديم تعريف جديد للعلاقة بين الكفاية والأداء. ينبغي للمتكلم أو المستمع «المنمذج» أن يتمتع بالقدرة على حيازة النصوص محكمة الجمل، والقدرة على تأليف التعبيرات وإنتاجها ووضعها في مواقفها الاجتماعية.

يعني هذا أن المناهج وطرق الإجراء في بحث اللغة في نظامها، لا تستطيع أن تصف قدرات المتكلم أو المستمع، أو أن توضحها على نحو تام، هذه القدرات التي تعد في علم اللغة الاجتماعي ذات أهمية معرفية. يبين بولر وزملاؤه ذلك بالتمثيل بمحاولتين لاعتذار متكلم بعينه في مواقف اتصالية اجتماعية متفاوتة :

(١) السيد س يعتذر إلى زوجته عن سوء مزاجه :

« قطتي ... لا تنزعجي ... معذرة ... من فضلك ... يؤسفني هذا ... لم أكن أقصد هذا ...» .

(٢) السيد س يعتذر في مناقشة علنية إلى شريك في المحادثة غريب نسبيا:

«أرجوكم يا سيد س أن تهدءوا بالا ، أؤكد لكم أنني آسف أسفا بالغا على تصرفي ...» .

يريد هانز بولر بهذا أن يبين أن النوعيات المتفاوتة للتعامل اللغوي، لا تكاد تتضح عن طريق الوصف اللغوي الشكلي: فالفرق في تشفير السيد س اعتذاره بين (١) و (٢)، يأتي من الموقفية الاجتماعية المتفاوتة للنص، ومن درجة الألفة بين المشاركين،ومن علانية الموقف، ومن التوافق الخطابي المتفاوت Redekonstellation[٢]

(١) Buehler, Hans, et. al., : Sprache 2, Eine Einfuehrung in die moderne Linguistik. Fischer Taschenbuch Verlag-Frankfurt (1973) S 180 >

(٢) المرجع السابق ص ١٨١-١٨٢

المتحقق	الافتراضي
الاستعمال اللغوي (الأداء): الفردي / الجماعي	التوليد الممكن للأبنية اللغوية (الكفاية): الفردية / الجماعية
	الملكة اللغوية (الشفرة): الفردية / الجماعية

تناقش الثنائية المفهومية: الكفاية/الأداء، في هذا الجدول بالتعبير عنها بالمفهومين: الافتراضي/ المتحقق. وتفهم الكفاية هنا بأنها قدرة المتكلم أو المستمع على التشفير وعلى فك التشفير، وبأنها تحقيق الشفرة Kode أو الملكة اللغويةSprachbesitz هي إذن القدرة على الاختيار أو الانتقاء من مخزون العلامات اللغوية وما يربط بينها من قواعد لإنتاج أبنية لغوية. هذه القدرة هي ما نعنيه تماما عن الكفاية النحوية الخالصة[1]. أما استدعاء المتكلم أو المستمع كفايته النحوية، فهو ما يعرف بالأداء، الأداء الذي يرتبط بسياقات عرفية وموقفية، كما يرتبط بمكونات اجتماعية ونفسية؛ أي بما أسماه بولر باسم التوافق الخطابي Redekonstellation.

لماذا لم تقبل البحوث اللغوية الاجتماعية التفريع إلى الكفاية والأداء؟ يرجع ذلك إلى أن ارتباط مناسبة العملية الاتصالية وفهمها وتفسيرها بالسبك النحوي ارتباط جزئي فحسب؛ وذلك أن هنالك أشياء أخرى ينبغي أن ترتبط بها؛ هي المكونات الموقفية والاجتماعية والنفسية.

في محاولتي اعتذار السيد س السابقتين، لم يكن الحكم بمناسبة سلوكه اللغوي أو عدم مناسبته مرتبطا بجودة السبك أو برداءته. كانت جمل الاعتذار صحيحة بحكم فهمنا العلاقات الاجتماعية بين السيد س

(١) المرجع السابق ص ١٨٣ .

ومخاطبيه، ومن سمات الموقف"[1].

في هذه الحال، يدخل بولر وزملاؤه المفهوم: كفاية السلوك الاتصالي اللغوي Verbale Kommunikative Verhaltenskompetenz. ويغير الجدول السابق حينئذ إلى الشكل التالي:

الافتراضي		المتحقق	
الكفاية السلوكية الاتصالية اللغوية		الأفعال الاتصالية اللغوية	
الفردية	الجماعية	الفردية	الجماعية
الملكة اللغوية (الشفرة)			
الفردية	الجماعية		

نفهم الكفاية السلوكية الاتصالية اللغوية من مقدرة المتكلم أو المستمع التي تمارس عملها في التوافق الخطابي على نحوي لغوي؛ أي فهمها لغويا"[2].

(هـ) الكفاية اللغوية والملكة اللسانية :

كان ابن خلدون – وإن لم يكن من اللغويين المحترفين – قد سبق إلى مفهوم «الملكة اللسانية» الذي نراه صالحا لأن يكون المقابل العربي لمفهوم الكفاية عند تشومسكي. التفت ابن خلدون إلى جل الأفكار المهمة في نظرية تشومسكي في الكفاية، بل زاد بعضا من الأفكار التي اتصلت بالواقع اللغوي في المجتمع العربي. ويمكن أن نميط اللثام عن ذلك من خلال النقاط الجوهرية التالية :

١- الملكة اللسانية عند ابن خلدون تعني أيضا المعرفة التي يكتسبها متكلم اللغة السليقي عن لغته كلاما وفهما؛ فالحروف والحركات والهيئات – أي الأوضاع – لم يتكلفها العرب؛ « إنما هي ملكة في

(١) المرجع السابق ص ١٨٤

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥

ألسنتهم ، يأخذها الآخر عن الأول »[1]. وتكتسب اللغة عنده بالطرق التالية :

(أ) السمع: وهو أبو الملكات اللسانية[2].

(ب) والتعليم: ووجهه حفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم[3].

(جـ) وكثرة الحفظ: وذلك أن حصول ملكة اللسان العربي، إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ منهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم[4]. وكثرة الحفظ تزيد صاحب الملكة رسوخا وقوة[5]. ولا تحصل الملكة من حفظ كلام العرب إلا بعد فهمه[6].

(د) والممارسة: فالملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه[7].

وللتكرار أثره في ترسيخ الملكة: « والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولا، وتعود فيه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار، فتكون ملكة : أي صفة راسخة »[8]. ويشرح ابن خلدون هذه المراحل بقوله: « فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام آل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها ، فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، مراجعة لجنة من العلماء ، المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة د. ت ١/٥١٦ .

(٢) المرجع السابق ١/٥١٦ .

(٣) المرجع نفسه ١/٥٥٩ وقارن ١/٥٥٨.

(٤) المرجع نفسه ١/٥٦١ .

(٥) المرجع نفسه ١/٥٥٩ .

(٦) المرجع نفسه ١/٥٥٣ .

(٧) المرجع نفسه ١/٥٦٢ .

(٨) المرجع نفسه ١/٥٥٤ .

لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم»[1].

لوقوع الفعل اللساني) ← صفة للذات (لتكرار الصفة) ← حال أو صفة غير راسخة (لزيادة تكرارا ← ملكة أو صفة راسخة .

الملكة إذن مكتسبة. والصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة لم يكن أمرا طبيعيا. لم تكن العرب تنطق بالطبع، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام، تمكنت ورسخت، فظهرت كأنها جبلة وطبع[2].

٢- كان هدف الدراسة اللغوية عند تشومسكي هو دراسة كفاية المتكلم أو المستمع السليقي، وكذلك يرى ابن خلدون أن اللغات كلها ملكات، وأن اللغات وملكاتها ليست مجانا[3].

٣- كان تشومسكي يرى اللغة طائفة من الجمل الصحيحة نحويا، كما كان يرى أن نحو اللغة هو نظرية اللغة. وهذه الأهمية للنحو تعظم أيضا في جعل ابن خلدون الأهم المقدم من علوم اللسان العربي (اللغة والنحو والبيان والأدب) هو النحو: «إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر .. علم النحو أهم من اللغة: إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة»[4]. والحق أن اصطلاح «اللغة» عند ابن خلدون في مثل الكلام السابق ليس هو اصطلاح «اللغة» الذي نعرفه في العصر الحديث غير موقوف على المفردات، إنما كان العرب يطلقونه على «المفردات». وقد استقر عند علمائنا القدماء أن جهل بعض مفردات اللغة لا يقدح في العالم، إذ لا يحيط باللغة إلا «نبيّ» كما قالوا، أما جهل جانب واحد من جوانب النحو فنقيصة من النقائص الكبرى.

٤- لم يكن منطلق تشومسكي تأمل الرموز اللغوية المفردة، ولا تجمع الرموز اللغوية، ولكنه كان إنتاج الجمل والجهاز القاعدي الذي يرتبط

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٥٤-٥٥٥ .
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢
(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٥٧
(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٤٥ .

به. لقد قصد تشومسكي بالكفاية اللغوية الجهاز القاعدي النحوي في دماغ متكلم سليقي وامتلاكه قواعد توليد التراكيب التي يحصلها من اكتسابه الأول للغة. وكذلك كانت نظرة ابن خلدون إلى الملكة: فتمام الملكة أو نقصانها ليس بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب"[1].

ويميز ابن خلدون هنا بين التراكيب الراجعة إلى الملكة اللسانية والقوانين المطردة المستنبطة من كلام العرب. فالقوانين إنما تفيد علما باللسان، ولا تفيد حصول الملكة"[2]. فقوانين الملكة علم بكيفية لا نفس كيفية. فالبصير بالخياطة علما غير المحكم لملكتها عملاً. وكذلك العلم بقوانين الإعراب، فهو علم بكيفية العمل، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه، أو ذي مودته، أو شكوى ظلامة، أو قصد من قصوده، أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن"[3].

٥- الملكة متغيرة، ومن عوامل تغيرها العوامل الخارجية: اجتماعية وتاريخية وغيرها. يضرب ابن خلدون مثالا على ذلك بالذي حصل للعرب بما ألقي إليها السمعُ من مخالفات المستعربين: « ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع »[4]. حينما خالط العرب العجم، حصلت لهم ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت لهم ومن الملكة الثانية للعجم، « فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم، ويربون عليه، يبعدون عن الملكة الأولى »[5].

٦- جعل تشومسكي الحدس مصدرا للمعلومات واستقاء القواعد والأداة الأهم في التمييز بين الجملة الصحيحة نحويا والجملة غير الصحيحة. وفي كلام ابن خلدون ما يثبت فطنته إلى دور الحدس في ذلك أيضًا، مثل قوله :

---

(١) المقدمة ١/ ٥٥٤
(٢) المرجع السابق ١/ ٥٦٢
(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٠
(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٤٦
(٥) المرجع نفسه ١/ ٥٥٨

(أ) « فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرّى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ... وإن سمع تركيبا غير جارٍ على ذلك المنحى مجّه، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير فكر، إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة»[1].

(ب) أو قوله: « ولو رام صاحب هذه الملكة حيدًا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائدًا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المُفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم »[2].

٧- إذا كان بعض اللغويين قد أخذوا على تشومسكي إهماله الاعتبارات السياقية في تفسير التراكيب وإهماله التفاعل الذي يجب مراعاته بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية، فإن فطنة ابن خلدون إلى حقيقة الواقعة اللغوية الاتصالية، قد هدته إلى وجوب توفر عوامل أخرى مع قدرته على إنتاج التراكيب وفهمها؛ مثل سلامة الطبع ومراعاة التطبيق ومقتضيات الأحوال- أو أحوال المتخاطبين أو الفاعلين[3] من تمام الإفادة عند ابن خلدون ، بل يراها مما يجعل الكلام من جنس كلام العرب: « فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة »[4]. وينبغي عند ابن خلدون « التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام »[5]. ومن ذلك مثلا توكيد الإسناد :

(١) المرجع السابق ١/ ٥٦٢

(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ – ٥٦٣

(٣) المرجع السابق ١/ ٥٥٠

(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٥٠

(٥) المرجع نفسه ١/ ٥٥١

المقال	حال الفعل اللساني	المقام (حال المتخاطبين)
زيد قائم	عار عن التوكيد	إفادة خالي الذهن
إنّ زيدا قائم	مؤكد بإن	إفادة المتردد
إنّ زيدا لقائم	مؤكد بإن واللام	إفادة المنكر

فهذه متغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الإعراب"[1].

الملكة اللسانية إذن معرفة المتكلم المكتسبة بلغته. هي صفة راسخة للمتكلم تحصُل بتكرار الأفعال الكلامية وتحصُل بالتعلم والممارسة. وليس تمام الملكة أو نقصانها بالنظر إلى المفردات : فالملكة التامة في التركيب ومراعاة التأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال. ولنا — والأمر على ما رأينا — أن نستنتج حقيقة مهمة: هي أن الملكة اللسانية عند ابن خلدون أوسع من أن تقتصر على الملكة النحوية؛ لأنها تتسع للإفادة والإبلاغ ، حتى تقارب الكفاية الاتصالية التى يراعى فيها مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وربما لا نجاوز الصواب إذا جعلنا مفهوم « الذوق » عند ابن خلدون مضاهيا لمفهوم الكفاية الاتصالية عند المحدثين من رواد المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي، على نحو ما سنرى.

الذوق هو الملكة عندما ترسخ وتستقر"[2]. والذوق حصول ملكة البلاغة للسان"[3]. ولا يبلغ المتكلم الغاية من إفادة مقصوده إلا بتلك المطابقة التي تقتضيها ملكة البلاغة للسان . والمطابقة إنما تكون بين أفعال اللسان وسياقات الاتصال .

٣ـ الكفاية الاتصالية :

الكفاية اللغوية — في موقعها من ساحة الخطاب — نموذج لمعرفة المتكلم بلغته، وليست نموذجا لمعرفة كيف يقيم اتصالا لغويا حقيقيا مع الآخرين، يلائم فيه بين اللغة التي يعرفها وبين الوظيفة والمقصد وسياق الاتصال. يعني هذا التسليم المبدئي بكون الكفاية اللغوية قاعدة الاتصال اللغوي بين الناس. المستمع الذي لا يعرف العربية مثلا ستظل المنطوقات عنده معطلة الوظيفة؛

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٥١ .
(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٣ .
(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ .

لأنها محض رطانة أو ضوضاء لا تعني شيئا. مهما وفر لها المتكلم من قرائن تداولية. والمتكلم بالعربية الذي تعوزه أوليات نظم الجملة بالكيفيات المقررة في نحوها سيظل عاجزا عن أن ينشئ مع مستمعه اتصالا نافعا، مهما أظهر من قدرة على فقه السياق غير اللغوي، ومهما احتال على ذلك بوسائل غير لغوية. تبدو المشكلة هنا في كون مركز الكفاية عند تشومسكي البنية الشكلية للغة الطبيعية، على حين أن التفكير في أثر القرائن الاتصالية التداولية مما ينبغي له أن يحتل مع تلك البنية ذلك المركز.

كان لابد من خفض درجة المثالية في كفاية تشومسكي لمصلحة متطلبات الموقف الاتصالي الاجتماعي المتغيّرة. ينبغي في هذه الحال أن ينظر إلى الصحة النحوية في مواءمتها تلك المتطلبات. صارت العقيدة الفكرية المهيمنة عند محللي الخطاب هي أن مفهوم الصحة النحوية ليس له مقابل مباشر، وهذا ما نجده مثلا عند كالثارد Coulthard ومونتجمري Montgomery[1] كان لابد من عجز نموذج الكفاية اللغوية في النظرية التحويلية التوليدية عن الوفاء بتشخيص العملية الاتصالية الطبيعية، من حيث إنه جعل همه الفعل اللغوي المعزول عن سياقه. كان لابد من تغيّر التوجهات والمنظورات إلى سياق الاتصال. نرى شيئا من ذلك في مثل قول فولمرت Volmert: « عندما تدخل العلامات اللغوية في استخدام لغوي طبيعي، تكون قد دخلت في سياق اتصالي. وفي السياق تظهر الدلالات الممكنة، كما أن الوجود المحتمل لما يشار إليه من أشياء يجسم المراد. في الموقف الاتصالي، لا تستخدم العلامات اللغوية منعزلة، ولكنها تتعلق بعلامات أخرى. يستطيع المرء أن يكشف في المعجم عن معاني الكلمات المفردة، ولا يمكنه ذلك في معرفة معاني العبارات والجمل والنصوص .

إن معنى الخطاب الحقيقي يتميز تميزا جوهريا عن المعنى المعجمي والمعنى النظامي للكلمة : ففي الخطاب تعيّن معاني الكلمات من خلال السياق الموقفي تعينا مؤكدا : أي بتحدد تنوعها الدلالي . إن مقصد المتكلم الاتصالي ، وقدرته اللغوية ، ومعرفته ونظرته إلى العالم ، تؤثر في اختياره

(1) Coulthard-Montgomery. Op. Cit., p. 82

اللفظي الذي هو دائما انتقاء من الإمكانيات التي يتيحها النظام اللغوي»[1].

إن وضع العلامات اللغوية في تفاعل اجتماعي، يعني استخدامها استخداما لغويا طبيعيا. في هذا التفاعل تعين المعاني الوظيفية للتعبيرات اللغوية تعينا تاما، بما تراعى فيه وتتوفر له من قواعد تداولية: أي تلك القواعد الجماعية لاستخدام تلك التعبيرات استخداما عمليا. في الإنجليزية، تعني الإجابة « Thank you » عن السؤال:

Would you like a cup of tea ?

تعني الإيجاب، ولكن العكس هو الصحيح في كل من الألمانية والعربية. Danke في الألمانية و« شكرا » في العربية، تعنيان – في الإجابة عن عرض مماثل – النفي. هذا هو المعنى الوظيفي التداولي الذي تكتسبه مثل تلك المفردات والعبارات في محيط التفاعلات اللغوية الاجتماعية اليومية العملية.

لقد ارتاب علماء علم اللغة الاجتماعي في أفكار مثل كفاية المتكلمين الأصليين Competence of native speakers وانتقاد أي قبول ضمني لجماعة لغوية متجانسة[2].

وكان لما استجدّ – منذ الستينيات – في فروع علم الاجتماع، مثل علم الاجتماع النفسي، والأنثروبولوجيا، والإثنوجرافيا، ونحوها أثر مباشر في تطبيق المنهج الاجتماعي ومعطياته المستمدة من تلك الفروع، في النظر إلى الاستعمال اللغوي على ضوء المواقف الاتصالية الاجتماعية الفعلية يقول فان دايك Van Dijk: « وجد علماء علم اللغة الاجتماعي تأييدا وحثا – في هذا المنهج الاجتماعي – على الاشتغال بالصورة الطبيعية لاستخدام اللغة. لقد وجدوا أن الحديث اليومي هو الاستعمال الأوّلي والجوهري في السياق الاجتماعي »[3].

---

(١) Volmert, Johannes (Hrsg.) : Grundkurs Sprachwissenschaft. Wilhelm Fink Verlag. Muenchen (1995) S. 169.

(٢) Van Dijk. Teum A.: Dialogue as Discourse and Interaction, in Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis. Vol. 3 (Discourse and Dialogue) - Academic Press- London (1989) pp. 1-11.p. 7.

(٣) المرجع السابق ص٦.

صارت دارسة اللغة في الموقف الاتصالي أفقا يجاوز بنية النظام إلى فهمه ووظائفه التداولية. صارت القوانين التي تحكم كلام الأفراد الاجتماعيين من ذوي الكفاية أعظم مما قيد به مذهب تشومسكي عن كفاية المتكلمين المثالية في معرفة قوانين النحو وتطبيقها.

(أ) مفهوم الكفاية الاتصالية :

الكفاية الاتصالية Communicative Competence هي البديل المفهومي المنهجي للكفاية اللغوية في النظرية النحوية عند تشومسكي ومن نسج على منواله. بنى ديل هايمز Dell Hymes نظريته في الكفاية الاتصالية على أساس ما لحظه من ضيق شديد في مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكي. لا ينبغي – من وجهة نظر هايمز – أن يقف هدف النظرية اللغوية عند وصف كفاية المتكلم المثالية ووصف معرفته بالصحة النحوية. وجد هايمز أن علم اللغة ينبغي له أن يمنّي نفسه بالكفاية الاتصالية. والكفاية الاتصالية عنده تعني مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة، لا جمل نحوية[1].

صار هذا المفهوم شعارا على برنامج، بل على المنظور الاجتماعي الوظيفي إلى اللغة، وقاد إلى تحديدات مفهومية مختلفة ، وإن ظل جوهر النظرية.

يعد فوندرليش Wunderlich من مؤسسي نظرية الفعل الاتصالي. المعنى المركزي في الكفاية الاتصالية هو الكفاية اللغوية الفردية. وتبدو الكفاية الاتصالية عنده قدرة فاعلة من الناحية اللغوية في نظام من التوقعات الاجتماعية والضبط الاجتماعي. ويعني هذا أداء المواقف الخطابية، والنطق بالاهتمامات، وإعادة تحديد العلاقات الاجتماعية[2].

ويعرّف بينتنج Buenting الكفاية الاتصالية بالقدرة الإنسانية الشاملة على فهم الموقف الاتصالي بين أطراف الاتصال في إطار عوامل أخرى؛ كالزمان، والمكان، والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات الخاصة بين أطراف

---

(1) Hymes, Dell: Sociolinguistics and the Ethnography of Speaking. In: Ardener, E. (ed.) : Social Anthropology and linguistics. Association of Social Anthropologists Monography 10, Tawistock-London (1971) pp 47-93, p. 48.

(2) Lewandowski, op. cit., S. 564.

الاتصال (أي الأدوار والأدوار المتوقعة)، ومقاصد هذه الأطراف، والقدرة على الفعل، وأداة الاتصال الموظفة لبلوغ الأهداف (الاستراتيجيات البلاغية die rhetorischen Strategien). يضرب بينتتج على ذلك المثال التوضيحي التالي:

السيدة س ضيف في مطعم (الدور « سيدة » ينتج عن الإطار الاجتماعي. أما الدور « ضيف »، فينتمي إلى إطار مؤسسي). هي تتوقع أن يأتي رجل إزاءها، يقوم على خدمتها في أدب (الدور المتوقع). وفقاً للأعراف العامة، ينبغي للنادل أن يبادر بالاعتذار. هذا يعني أنه يريد أن ينجز فعلا اتصاليا. وهدفه هو أن يطابق الدور المنتظر منه؛ أي أن يكون في الخدمة، مستعدا. أما وسائله، فهي:

- الانحناءة (علامة على الطاعة، وافتتاحا للفعل الاتصالي).
- إفصاحه اللغوي عما يطلب أكله. وهو إفصاح يناسب الإطار المؤسسي (المطعم) وتوزيع الأدوار (نادل – ضيف).

في تأمل الكفاية الاتصالية هنا، ينبغي أن نعرف أن الاتصال طريق يقود إلى تغييرات وإلى علاقات بين أطراف الاتصال في جميع المراحل والمجالات المذكورة، كما يقود إلى تغييرات في الأوضاع التي يتحدث عنها الإنسان – من حيث المضمون – بمساعدة الوسائل الاتصالية، لاسيما الرموز اللغوية. من أجل ذلك، بحثت الكفاية الاتصالية على أنها القدرة على الفعل الرمزي بين الناس (القدرة على التفاعل الرمزي في إطار نظريات التفاعل)[1].

والكفاية الاتصالية عند باكيه Baacke هي القدرة على إنتاج أشكال متباينة من السلوك (اللغوي). ولا تستهدف هذه القدرة النقد والتغيير على نحو منطقي نزاعي فحسب، بل تستهدف أيضا تأمين ما هو قائم موجود[2].

ويبرز هابرماس Habermas فكرة صدور الأبنية اللغوية عن مواقف الخطاب الممكنة، وأن هذه الأبنية في خدمة الموقفية التداولية للتعبيرات اللغوية، وأن هذه الأبنية تردّ إلى ما يسميه بالعموميات أو الكليات التداولية Pragmatische Universalien في كل موقف خطابي[3].

---

(1) Buessting, op. cit., cit., SS. 236-238.
(2) Lewandowski, op. cit., S. 564.
(3) المرجع السابق ص ٥٦٣.

ويعرّف ديتمار Dittmar الكفاية الاتصالية بأنها قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفيا ومعياريا: لغوية ونفسية واجتماعية وتداولية[1].

وتعني الكفاية الاتصالية عند سالزمان Salzmann المعرفة بما يكون مناسبا أو غير مناسب لما يقال في سياق تقافي اجتماعي بعينه[2].

وتبدو المناسبة محور تعريف ليفاندوفسكي أيضا: فالكفاية الاتصالية عنده هي كفاية الاستخدام اللغوي، وهي القدرة على استخدام اللغة. ولا تتضمن الكفاية الاتصالية المعرفة النحوية فحسب، بل تضم إليها أيضا معرفة المناسبة الاجتماعية والموقفية للأحداث اللغوية[3].

ومهما يكن من أمر، فإن علاقة المواءمة بين الرموز اللغوية ومركباتها وبين سياق الاتصال هي جوهر التعريفات المختلفة للكفاية الاتصالية. وينبغي وضع هذا المفهوم في إطار مفهوم أوسع سكه هايمز هو « إثنوجرافيا الكلام Ethnography of Speaking » (١٩٦٢) من أجل وضع برنامج نظري لتحليل الواقعات الاتصالية في محيطها الثقافي تحليلا وظيفيا (أي مرتبطا بالسياق) وديناميا (أي مرتبطا بالعملية الاتصالية)[4]. كان هايمز قد جعلَ للوصف الإثنوجرافي مكونات اتصالية عدة، من أهمها: المشاركون في الاتصال، والموقف الاتصالي، وصيغة الاتصال، والحدث اللغوي، والموضوع، ووظيفة التفاعل. وتصلح هذه المكونات لأن تكون إطارًا وصفيا للبحوث في الكفاية الاتصالية للمتكلمين في إطار علم اللغة الاجتماعي[5].

هذا، ويكتسب أفراد الجماعة الأصليون الكفاية الاتصالية اللغوية الاجتماعية في بطء وفي غير وعي. إنهم يكتسبون معرفة بالنظام اللغوي

---

(١) Dittmar, op. cit., p. 162.

(٢) Salzmann, Zdenek: Language, Culture and Society: An Introduction to linguis-tic Anthropology, Westview Press-Oxford (1993) p. 271.

(٣) Lewandowski, op. cit., S. 563.

(٤) انظر في تفصيل ذلك : محمد العبد (دكتور) : العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال ، دار الفكر العربي (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ص ٥٥-٦٩ .

(٥) رجع في ذلك:

Arens, Hans et. al., : Handbuch der linguistik: Allgemeine und angewandte Sprachwissenschaft, Nymphenburger Verlagshandlung (1987) S. 116 .

المناسب، وإن لم يعوا بالضرورة بالمعايير التي تقود سلوكهم اللغوي الاجتماعي. أما الوافدون إلى الجماعة: كالباحثين اللغويين الاجتماعيين، فإنهم أسرع في اكتشاف تلك المعايير وهم أقوى وعيًا بها[1]. ولا يجوز النظر إلى الكفاية الاتصالية على أنها تلقيح متأخر أو زرع في معارف الطفل؛ فعلى العكس من ذلك، أظهرت معطيات متعلقة بالسنوات الأولى لاكتساب القواعد الإنجليزية أن الأولاد يطورون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع. وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكانى (Araucan) من تشيلى قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها، اكتشف واقعة أن تكرار ملفوظ استفهامي هو، من جانب المستمع ، إهانة للمتكلم[2].

(ب) الأسس النظرية للكفاية الاتصالية :

لم يأت تشومسكى بالكافية اللغوية على وجهها من منظور المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي. بالكفاية اللغوية من منظور هذا المنهج أوسع من أن تقتصر على اختيار الألفاظ وحسن سبك الجمل. الكفاية اللغوية من وجهة نظر أصحاب نظرية الكفاية الاتصالية في أن يناسب الاختيار الموقف الاتصالي والمقصد الاتصالي. هذا هو المقياس: ليست الأحكام عن حسن الصياغة الشكلية والدلالية أحكاما ثابتة ومطلقة، ولكنها أحكام وليدة المواقف الاتصالية الاجتماعية المتغيّرة.

وينطلق تحليل الأحداث اللغوية تحليلا موقفيا من أسس نظرية عدة، توجز فيما يلي :

1- لا يمكن أن تحلّ بعض إشكاليات النحو الوصفية إلا بعلم الدلالة، ولا يمكن أن تحل بعض إشكاليات علم الدلالة إلا بالتداولية.
2- يحول اختزال مجال اللغة في الوصف الشكلي الثابت دون عمل التصورات الإجرائية للاتصال برمته.

---

(1) Fishman, J. A: The sociology of languag, in: pier Paolo Gigioli (ed.): Language and Social Context: Selected Readings, Penguinn Books- England (1990) pp. 45-58, p. 49.

(2) فلرمادى ، حرليت : اللسانة الاجتماعية ، عرّبه دكتور خليل احمد خليل ، دار الطليعة – بيروت ط (١٩٩٠م) ص ١٠١ .

٣- لا تفهم اللغة إلا في سياق السلوك الاجتماعي"[١].

وكان فوندرليش (١٩٧٠) قد قيّد إشكاليات سبعًا تثيرها في النظرية اللغوية كفاية المتكلم النحوية التي أغفلت الاعتبارات التداولية :

١- تثبت النتائج الراهنة للبحث اللغوي النفسي، أن ما يحدث في ذهن المتكلم عند صوغه منطوقاته، يفوق الصورة البسيطة التي رسمها الطراز النحوي التوليدي.

٢- يتعلم الناس القوانين اللغوية مرتبطة بالمواقف والسياقات.

٣- يكتسب المتكلمون القدرة على خلق مواقف لغوية تفاعلية جديدة كاملة.

٤- لا يمكن أن تفسّر مقولات الشخص والزمان والمكان التي هي من أطر الاتصال القائم على المحادثة في ظروف بعينها: لا يمكن أن تفسّر تفسيرا ذا معنى إلا بالرجوع إلى ملابسات الموقف الكلامي.

٥- عندما لا يطابق الكلام القواعد، فإن هذا لا ينال من حقيقة استقاء فهم المعاني من المواقف.

٦- كثيرا ما لا يستنبط تفسير معنى المنطوق تفسيرا صحيحا من بنيته النحوية (كأن تفسّر الأحداث اللغوية بأنها التماسات أو تحضيضات .. أو غيرها عن طريق السياق).

٧- من كفاءة المتكلم التداولية امتثال منطوقاته لمقاصده الكامنة، وإدراك ما فيها من مخالفات، وطرحها إذا اقتضت الضرورة[٢].

يكشف تتبع النظرية اللغوية الاجتماعية عن قيامها في جانب منها على النظرية اللغوية: الفونولوجية والنحوية، وقيامها في جانب آخر على نظرية اللغة في المواقف التي ترتبط فيها العناصر اللغوية بعوامل خارجة عن نطاق اللغة، وهي عوامل يفرضها السياق الموقفي.

---

(١) Dittmar, Norbert: Sociolinguistics: A Critical Survey of Theories and Application. Athenaeum Verlag GMB. Frankfurt. (1976) p. 161.

(٢) Wunderlich, D. :Die Rolle der Pragmatik in der Linguistik. in : Der Deutschunterricht 22 (4) (1970) SS. 5-41, SS . 12-18.

وينظر: Dittmar, Op . cit, P 161.

في نظرية الكفاية الاتصالية عولجت المكونات اللغوية التي تعينها المواقف والأدوار. الحقيقة المقررة هنا أن كل كلام في تفاعل لغوي يحتل محيطه الفيزيائي، كما يحتل موقعه في سياق لغوي خاص، ويقيد بمحور بعينه، ويعتمد على الملابسات النفسية المهيمنة (المقاصد و التوجهات) وعلى السمات الاجتماعية التي يتسم بها أولئك الذين يشغلون جانبا من المخاطبة (وضعهم في عملية الإنتاج، وأدوارهم). ويعني هذا وجود عوامل خارجة عن نطاق اللغة، تسهم في تنظيم عمليات التفاعل تنظيما لغويا[1].

إن الوجه في الكفاية الاتصالية أن الجانبين: النحوي والنفسي ليسا إلا بعض الجوانب التي ينبغي لهذا المفهوم أن يغطيها. يبين هذا المنظور أن حكم تشومسكي على المنطوقات بحسب الصحة النحوية أو المقبولية (وهما موازيان لكل من الكفاية والأداء) كان حكما مبسطا للغاية، وذلك أن المنطوقات ليست صحيحة نحويا أو مقبولة فحسب، بل ينبغي لها أيضا أن تقوم بمدى نجاحها ومناسبتها للسياق، وبالطريقة التي تكون بها مؤثرة بما هي أفعال، وبما تؤدي إليه من نتائج[2].

من بين المكونات الضرورية في كل اتصال: الحديث اللغوي عند إرفين- تروب Ervin- Tripp والشفرة عند ديل هايمز. كل منهما مكون واحد فقط، يرتبط وجوده وتعين هيئته بمكونات العملية الاتصالية الأخرى، كالمشاركين، وقناة الاتصال، والواقعة الاتصالية ذاتها بأنواعها وملامحها المميزة على الجملة . إلخ[3].

اختزلت هذه المكونات الضرورية في المعرفة اللغوية الشكلية في قوانين التركيب الجملي. من أجل ذلك، كان منظور هايمز وزملائه إلى الكفاية أوسع، لأنه ضم كفاية الشفرة وكفاية مستخدميها. وهي ليست راكدة على منسوب بعينه، بل تتغير وتتنوع مع الأوضاع والمواقف التي يخوضها

---

(1) أنظر في تفصيل ذلك : المرجع السابق ص ١٦١
(2) المرجع نفسه ص١٦٣ .
(3) راجع في ذلك :

Hymes,Dell: Toward Ethnographics of Communication, The Analysis Of Communicative Events, in: Pier Paolo Giglioli (ed): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990) PP. 22- 23 .

المشاركون. الكفاية اللغوية عند الأشخاص مباشرة سلسلة من أنظمة المواجهات Encounters على مستويات نظر مختلفة. كذلك يراها هايمز[1]. وكذلك تجعل إرفين- تريب تلك المكونات متغيرات تحدد تنويعات الأسلوب واختلافه عند المتكلم[2].

وتستند الكفاية الاتصالية عند هايمز على ثلاثة مفاهيم جزئية

١- مفهوم المخزون اللغوي عند المتكلم (أي القدر من الكلام والأساليب المحددة تحديدا سياقيا).

٢- مفهوم العادات اللغوية أوالروتين اللغوي (أي تنظيم الحكي تنظيما يوميا متصلا، وتنظيم التفاعلات اللغوية - إلخ).

٣- المحيط الاجتماعي للسلوك اللغوي (أي استعمال التنويعات اللغوية استعمالا محددا تحديدا سياقيا) (كالتنوع أ في محيط الأسرة، والتنوع ب في بعض المؤسسات ... إلخ).

تقاس الكفاية الاتصالية (أوالكفاية اللغوية الاجتماعية)- في ضوء هذه المفاهيم الثلاثة – بمقياس ذي بعدين اثنين، حيث تدرج الأبعاد الأفقية (المفاهيم من ١- ٣) على نحو رأسي وفقا لدرجات التحكم اللغوي الثلاث (التقيد، المرونة، التنوع). ويمكن - من هذا البعد - الإشارة إلى ثلاث درجات مختلفة للكفاية الاتصالية:

١- الكفاية الصغرى Minimal Competence: يعرف المتكلمون بعادة كلامية ما في محيط اجتماعي ما، من غير تغيير في المخزون أو الشفرة (مقيد restricted).

٢- الكفاية المتوسطة Average Competence: يتحكم المتكلمون في مجموعة من العادات الكلامية ليست واسعة ولا قليلة. وهم يعتادون هذه العادات في مجال محدد من مجالات المحيطات الاجتماعية المختلفة،

(1) Hymes,Dell: Models of the Interaction of Language and Social Life, in: John J.Gumperz and Dell: Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell,Oxford (1989)PP. 35 – 71, P. 53.

(٢) انظر في تفصيل ذلك:

Ervin-Tripp, S.: Sociolinguistics, in: L. Berkowitz (ed.) : Advances in Experimental Social Psychology 4, New York (1969)pp . 91- 165, pp .121-139.

ويغيرون . تبع ذلك مخزونهم اللغوي (مرن Flexible).

٣- الكفاية الكبرى Maximal Competence: يغير المتكلمون عاداتهم اللغوية في محيطات اجتماعية عدة، ويغيرون مخزونهم اللغوي في سمة ويسر (متنوع Versatile)[1].

في ضوء مفهوم « المخزون اللغوي » حاول فوندرليش الربط بين السلوك الكلامي وسلوك الدور، في نموذجه الذي أطلق عليه اسم «الشفرة الكلامية بما هي نظام لاستراتيجيات البلاغة والتأويل The speech code as a system » of strategies of rhetoric and hermeneutic ». عرض في هذا النموذج لأبنية الدور التي تقيد بشروط اجتماعية مادية وبالأبنية العليا (كالمعايير الأيديولوجية، ونظم القيمة، وطرق تناول الأشياء...إلخ). ويجعل فوندرليش البلاغة والتأويل من وظائف سلوك الدور. والتأويل عنده يعني الافتراضات التي يضعها المتكلمون في مجرى الاتصال[2].

(جـ) الكفاية الاتصالية وتعلم اللغة :

عند اكتساب اللغة لا يتعلم الطفل الجمل فحسب، ولكنه يتعلم أيضا قواعد استعمالها في سياقات اجتماعية ثقافية. وقد نظر في حقل تعليم اللغات إلى الكفاية الاتصالية من حيث هي قدرة مركبة من القدرات الفرعية التي حددها ليفانوفسكي فيما يلي :

١- استيعاب المعلومات وإعادة إنتاجها.
٢- فهم مواقف الكلام بحسب ما تتميز به من درجة الملائمة والشكلية والبنية الحركية.
٣- الإسهام في الكلام ومعرفة إمكانيات الأدوار الاجتماعية.
٤- تقويم تأثيرات الوسائل اللغوية والأحداث الكلامية.
٥- فهم متطلبات المشاركين في الاتصال ومشكلاتهم.
٦- التعبير الناجح سواء أكان تعبيرا لغويا أم غير لغوي، وفقا لمتطلبات المتكلم واهتماماته[3].

(١) Dittmar, Op. cit., pp. 163-164.

(٢) انظر في تفصيل ذلك : Wunderlich, op. cit., p. 319.

(٣) Lewandowski, op. cit., S. 564.

٦- يتفاعل متعلمو اللغة مع متكلم اللغة المنشودة في الكشف عن نماذج اللغة في الأعراف الاجتماعية والثقافية والخطابية، التي تجعل الخطاب موائما مواءمة تداولية Pragmatically appropriate. وإذا لم يستخدم المتعلم اللغة على نحو مناسب تداوليا ، فإنه سيقع في خطر ظهوره في مظهر غير المتعاون، على الأقل[1].

يعد المنهج الاتصالي أحدث مناهج تعليم اللغات. وقد استخدم هذا المنهج استخداما واسعا. ويعد في جانب واسع منه رد فعل على الاعتقاد بأن تعلم قواعد اللغة (نحو اللغة) يتيح القدرة على استعمالها. تبنى التجارب الاتصالية هنالك على أساس النظر إلى وظائف اللغة بوصفها واجبة التوكيد أكثر مما ينبغي أن تؤكد صيغ اللغة (أي البنية النحوية الصحيحة والبنية الفونولوجية الصحيحة). يتميز هذا المنهج بالدروس الموجهة إلى مفاهيم مثل« السؤال عن الأشياء » في سياقات اجتماعية مختلفة على نحو أقوى من تميزه بدروس عن « صيغ الزمن الماضي » في جمل مختلفة. يرتبط هذا المنهج أيضا بمحاولات عرض مواد أقوى مناسبة لتعليم اللغة غير الأم تعلما ذا غاية بعينها (مثل تعليم الإنجليزية للأغراض الطبية أو تعليم اليابانية لرجال الأعمال)[2].

ولا تكون كفاية متعلم اللغة الثانية بحال كفاية تامة. يذكر هذا بفطنة ابن خلدون إلى ما أسماه بـ «الملكة الناقصة المخدوشة». وهي كذلك عنده إذا سبقتها ملكة أخرى في المحلّ؛ كالملكة التي تحصل للأعجمي بمدارسة اللسان العربي[3].

(د) المعايير النحوية والكفاية الاتصالية :

رأينا أن كفاية المتكلم/المستمع النحوية ليست إلا مكونا واحدا فقط من المكونات التي تمكنه من الاتصال، وأن الكفاية الاتصالية أوسع من أن تقتصر على الكفاية اللغوية أو النحوية. إن الكفاية الاتصالية للمتكلم/ المستمع في فعل وسيلته اللغوية وتوافق خطابه مع السلوك اللغوي المتنوع

(١) Harlig, K.B. et al., : Developing Pragmatic Awareness, in : ELT Journal, Vol. 45/1 January (1991) Oxford Uni. Press, p 4.

(٢) Yule, George: The Study of Language, An Introduction, Cambridge Uni. Press (19966) p. 154.

(٣) المقدمة ١/ ٥٦٤

والمطابق في ارتباطه بالمكونات الاجتماعية والموقفية والنفسية لسياق اتصالي اجتماعي بعينه. من أجل ذلك ، يتوقع نشوب صراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية. يمكن أن نجد ذلك مثلا في متوالية السؤال/ الإجابة. تكون الإجابة عن السؤال صحيحة نحويا ولكنها غير مألوفة، أو هي منحرفة عن حدود قواعد الخطاب المعتادة :

أ : ما هذا ؟

ب : هذا } كرسي
إنه

– أ : أين الآلة الكاتبة ؟

ب : الآلة الكاتبة في الدولاب.

من الأمور الملحوظة في وصف بنية التفاعل اللغوي أن حدوس المتكلمين بمتواليات الوحدات التفاعلية السائغة أضعف من حدوسهم بمتواليات الوحدات النحوية التي تسمح بها القواعد. يرجع كالثارد Coulthard ومونتجمري Montgomery ذلك إلى أن ما بذل من جهد في دراسة بنية التفاعل ضئيل نسبيا[1]. وعلى رغم صحة هذه المقولة في ذاتها، فهي ليست محددة سبب ذلك. يرجع السبب الجوهري – فيما نرى – إلى تشابك مكونات الكفاية الاتصالية وتعقد العلاقات فيما بينها. العوامل والاعتبارات التداولية ليست مما يتاح لجميع المتكلمين باللغة مجانا. يعمم النحو قواعد اللغة مما ييسر الحدس بالصحة أو المقبولية، ولكن قواعد الاتصال مما تحوج إلى ما أسماه ابن خلدون بالذوق، أو ما أسماه بولر بالتوافق الخطابي. ولا يتاح للمتكلم السليقي شيء من ذلك إلا بطول التجربة والخبرة بمتطلبات العمليات الاتصالية المتنوعة.

كان من أخطر ما وجه إلى الكفاية اللغوية من انتقادات، أن يكون المنطوق متمتعا بصحته النحوية، ولكنه يعجز في موقفه الاتصالي الاجتماعي عن أن يبلغ وظيفته. من ثمّ، أخذت الكفاية الاتصالية على عاتقها النظرة الوظيفية؛ أي كيفية تحقق الوظائف والمقاصد من خلال وضع العلامات

(1) Coulthard L. Montgomery, op. cit, p. 82.

اللغوية في سياقاتها الاتصالية الاجتماعية المناسبة. وقد مرت العرب بشيء من هذا وشمت روائحه. من ذلك مثلا ما وقع في كلام بشر بن المعتمر: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[1].

في حالات كثيرة يقع الصراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية، سواء في خطاب المواجهة أم غيره، وسواء في متواليات السؤال/الإجابة أم في غيرها. من ذلك مثلا ما رواه سيبويه (ت ١٨٠هـ) قال: «حدثنا من نثق به أن بعض العرب قيل له: أما بمكان كذا وكذا وَجذٌ؟ (والوجذ موضع يمسك الماء) فقال: بلى وجاذا، أي أعرف بها وجاذا»[2]. عدّ النصب مقبولا لعلم المخاطب وقدرته على التقدير، وهو معيار اتصالي تداولي.

ويضاف علم السامع إلى الأثر الإنجازي ليكونا سببين للخروج عن الأصل التركيبي. ومن ذلك ما نراه في باب «الإضمار على شريطة التفسير». ومن أمثلة عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) على هذا قول البحتري:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم　　　كرما، ولم تهدم مآثر خالد

قال: «الأصل لا محالة: لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ... فلا يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله، فقلت: «لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجه السمع، وتعافه النفس. وذلك أن في البيان، إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له، أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرّك.

وأنت إذا قلت «لو شئت» علم السامع أنك قد علّقت هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئا تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون. فإذا قلت: «لم تفسد سماحة حاتم»، عرف ذلك المرجع – فيما يبدو –

---

(1) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر (١٩٧٥م) ١/ ١٣٦.

(2) ابن جني (أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب - الطبعة الثالثة بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ١/ ٢٤٩.

إلى الكفاية الاتصالية في ذكر مفعول المشيئة أو حذفه. إذا كان الأمر عظيما الأحسن أن يذكر مفعول «المشيئة» ولا يضمر. يقول الرجل يخبر عن عزة: «لو شئت أن أرد على الأمير رددت» و«لو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيت». فإذا لم يكن الأمر مما يكبره السامع، فالحذف كقولك: «لو شئت خرجت» و «لو شئت قمت» ... إلخ[1].

ومن آليات التأويل النحوي عند سيبويه مفهوم «سعة الكلام». وقد لجأ إليه سيبويه في كثير من الحالات. من هذه الحالات «القلب» في مثل أُدخل فوه الحجر: قال سيبويه: «وأما قوله: أدخل فوه الحجر، فهذا جرى على سعة الكلام لوالجيد أدخل فاه الحجرُ، كما قال: أدخلت في رأسي القلنسوة، لوالجيد أدخلت في القلنسوة رأسي»[2]. وليست سعة الكلام إلا معيارٌ اتصاليا تعوّل عليه كفاية المتكلم الاتصالية على علم منها بأن كفاية المستمع سوف تكشف بالاستدلال العقلي ما في العبارة من قلب.

يظهر عبد القاهر وعيا بالمعايير الاتصالية في كلامه عن متواليات السؤال/ الإجابة. يستقيم عنده أن يقال: «صالح» و«في الدار» في الإجابة عن السؤالين: «كيف زيد؟» و«أين هو؟». وينفي عبد القاهر أن يظن بأن لا صحة للإجابة حتى نقول: «إنه صالح»، و«إنه في الدار». ويرى أن «ذلك مالا يقوله أحد»[3].

ويقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «هذا هو القياس: ألا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها. ومع ذلك فقد حذفت تارة، وزيدت أخرى»[4]. يمكن أن ينظر إلى هذه المقولة لابن جني في ضوء الصراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية الواقعية. كان رؤبة معتادا – فيما نقل ابن جني – أن يقول إذا سئل: كيف أصبحت؟: «خير عافاك (أي بخير)». ونقل ابن جني أيضا عن سيبويه حكايته: الله لا أفعل، يريد والله[5]. فسر أبو الفتح الحذف في مثل ذلك تفسيرا لغويا

(١) المرجع السابق ص١٦٥ .

(٢) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- دار الكتب العلمية، بيروت ومكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ١/ ١٨١ .

(٣) المرجع نفسه ص٣٢٦

(٤) الخصائص ٢/ ٢٨٠

(٥) المرجع السابق ٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

تداولي. فقال: «فإن عدم حذف هذه الحروف فلقوة المعرفة بالموضع»(١).

الخروج عن الأصل فيه سبق مقاس بمعايير اتصالية تداولية. ويظهر ذلك أن نظرية الكفاية الاتصالية تبدو للبحث النحوي العربي حبيبا جاء على فاقة، وأنها مما ينبغي له أن يعضّ عليه بالنواجذ حتى لا يذهب في السهمي!

(هـ) الكفاية الاتصالية والفشل اللغوي التداولي:

تقاس قوة الكفاية الاتصالية بالوعي التداولي الذي يتميز به المتكلم والذي يجعل منطوقة ناجحا في سياقه الاتصالي. من مظاهر هذه القوة أن يعي المتكلم أن إعلامه الشيء بغتة ليس مثل إعلامه له بعد التنبيه عليه والتقدمة له. قال عبد القاهر الذي اعتمدنا كلامه هنا مثالا على ما نريد: «..........لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام، في التأكيد والإحكام»(٢). في الوعد والضمان يحسن أن يقال: «أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر»؛ وذلك - كما يقول عبد القاهر - أن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التوكيد(٣).

ومن مظاهر هذه القوة أيضا نوع الربط الذي يختاره المتكلم لمنطوقاته في سياقاتها الاتصالية الخاصة. يعي المتكلم هنا بكيفية استقبال المخاطب للمنطوقات، حتى يختار للربط فيما بينها الربط المنطقي مثلا. من ذلك أن يدّعي المتكلم على المخاطب ظنا لم يظنه، ولكن يراد التهكم به. يمكن أن نضرب مثلا على ذلك قول حجل بن نضلة :

جاء شقيق عارضا رمحه إنّ بني عمك فيهم رماحُ

قال عبد القاهر في تأويل البيت: «يقول : إن مجيئه هكذا مُدلا بنفسه وبشجاعته قد وضع رمحه عَرْضا، دليل على إعجاب شديد ، وعلى اعتقاد منه أنه لا يقوم له أحد، حتى كأن ليس مع أحد منا رمح يدفعه به، وكأنا كلنا عزل. وإذ كان كذلك، وجب إذا قيل إنها جواب سائل، أن يشترط فيه أن يكون للسائل ظن في المسئول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به. فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلا»(٤).

---

(١) المرجع نفسه ٢/ ٢٨٤

(٢) دلائل الإعجاز ص١٠٣

(٣) المرجع السابق ص١٠٣

(٤) المرجع السابق ص٢٣٦

في ضوء مبادئ نظرية الكفاية الاتصالية (التداولية) نهضت محاولات عدة لاستشراف آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. لعل من أهمها أفق اختبار المناسبة الوظيفية والموقفية للمنطوقات الصحيحة نحويا. لوحظ أن المنطوق يتمتع بحسن السبك، ومع هذا يبدو ملتبسا وظيفيا أو نافرا سياقيا. وقف باحثون على هذا المشكل، من أبرزهم رون وايت Ron White أجرى وايت دراسة تطبيقية للكشف عن هذا المشكل في علاقته باستخدام «من فضلك» عند الناطقين بالإنجليزية من اليابانيين. كان من أهدافه الكبرى تحديد قوانين الأحداث الكلامية التي تطبق في الاتصال بين الثقافات. يمكن لنا أن نعرض الأفكار الجوهرية والنتائج المهمة لدراسته فيما يلي :

١- تعم ظاهرة التأدب جميع الثقافات واللغات؛ ولكن التعبير عنها يتخذ طرقا شتى؛ مما أوحى إلى بعضهم أن تعلم التأدب وثيق العرى باكتساب اللغة الأم.

٢- من مشكلات الاتصال بين الثقافات، أن تحوّل أعراف التأدب في لغة إلى لغة أخرى. ولا يتعلق هذا المشكل بأسباب لغوية، إنما يتعلق بالأحرى بأسباب لغوية تداولية؛ كأن يستعمل المتكلم صيغة لغوية لا توافق مقصده، فيختلط الأمر على المستمع. فإن كان الاختلاط وقتيا خف الضرر، وإن تكرر وطال أمده كانت نتائجه أخطر. ويبدو الأمر مختلفا مع الاتصال بين الثقافات: فما القوانين التي تطبق في التفسير عندما يقترف مستخدم الإنجليزية غير الأصلي - عن غير عمد - خطأ لغويا تداوليا ؟[1].

٣- يبدو استعمال «من فضلك» علامة على التأدب أكثر خداعا مما يتصور المرء. لوحظ أن محاولة الظهور بمظهر أكثر تأدبا، تقود المتكلم (غير الأصلي) إلى إقحام «من فضلك» في خطابه أملا أرفع منه اجتماعيا. ترتبط علة المشكل - في نظر وايت - بإقحام «من فضلك» على ما قصد به أن يكون عرضا Offer. بعبارة أخرى يحول المتكلمون غير الأصليين - دون قصد - العرض (وهو حاصل ما يكون عادة لمصلحة المستمع) إلى التماس (وهو حاصل ما يكون عادة لمصلحة المتكلم).

(1) White, Ron Saying Please Pragmalinguistic Failure in English Interaction, ELT Journal, Vol 47/3-July (1993), Oxford Uni Press (1993) pp. 193-202,p.193.

وهذا من انتهاك قوانين الحدث اللغوي[1]

٤- العلامة المميزة بين ما يمكن أن يفسّر بأنه حدث توجيهي وما يفهم على أنه التماس، هي استعمال «من فضلك». المعلم الذي يحاول أن يمارس عمله في غرفة المعلمين، سوف يوجّه زملاءه إلى أن يهدءوا إذا قال :

◆ اخفضوا أصواتكم !

أما إذا استخدم أسلوب الاستفهام، كان منطوقه أدنى إلى أن يفسر بأنه التماس من أن يفسّر بأنه توجيه (وإن كان طلبه إلى زملائه أن يخفضوا أصواتهم يناسب الحالين كلتيهما) :

◆ هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم ؟

فإذا أضيفت «من فضلك» زال اللبس عن وظيفة الالتماس في منطوق المتكلم:

◆ هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم من فضلكم ؟

ومثل ذلك أن تضاف «من فضلك» إلى حدث أمري، فتجعل المنطوق التماسا لا توجيها :

◆اخفضوا أصواتكم من فضلكم !

تستخدم «من فضلك» ـ كما تبين هذه الأمثلة ـ لتلطيف قوة المنطوق.

ويتفق وايت مع ستوبس Stubbs في أن الوظيفة الوحيدة لـ «من فضلك» هي أنها علامة على التأدب أو التلطف، وأنها تفاعلية بالضرورة[2].

يضع وايت قيدا على الحدث اللغوي الذي يمكن أن تقع معه «من

(١) حدد جون سيرل (١٩٧٥) شروطا خمسة لجعل الحدث اللغوي التماسا :

(أ) قدرة المستمع على أداء الفعل .

(ب) رغبة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل .

(ج) تأدية المستمع الفعل .

(د) رغبته في الفعل .

(هـ) أسباب تأدية الفعل

راجع وايت ص١٩٤

(٢) يقول ستوبس: «إنها صورة وضعية، وذلك أن وظيفتها الوحيدة هي أنها علامة على التأدب أو التلطف وليست ذات أي خاصية موضوعية. فهي ليست عن أي شيء ما، ولذا كانت مقيدة باللغة المنطوقة إلى حد بعيد»

Stubbs, Michael: Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis Of Natural Lan-guage, Basil Blackwell, Oxford (1989) p. 72

فضلك». هي تقع مع جملة تقبل أن تفسّر بأنها التماس، و لا تقع مع منطوقات تقبل أن تفسّر بأنها تبليغات أو وعود أو عروض أو دعوات أو تهديدات[1].

٥- يظهر الفشل اللغوي التداولي فيما انتهى إليه وايت، في دراسته التطبيقية في أشكال عدة، هي :

(أ) أن يستخدم المتكلم «من فضلك» التي للالتماس في منطوقات يعطي فيها توجيهات إلى المستمع، نحو :

من فضلك، خذ المنفذ الغربي ثم در يمينا. من فضلك انزل أسفل كوبري السكة الحديدية (في وصف كيفية الوصول إلى مطعم بعينه). هنا لا يلتمس المتكلم من المستمع أن يتخذ المنفذ الغربي ولا أن ينزل أسفل الكوبري، بل يعطي توجيهاته إلى المستمع، حتى يفعل هذا. الإبلاغ هنا لمنفعة المستمع لا المتكلم. وهنا تحدد قدرة المستمع على أداء الفعل باستقبال المستمع توجيهات المتكلم.

المتكلم	
صيغة المنطوق	الوظيفة المقصودة
التماس: «من فضلك خذ المخرج الغربي	إعطاء توجيهات
المستمع	
الصيغة المتوقعة	الوظيفة المفترضة
أمر: «خذ المخرج الغربي»	إعطاء توجيهات

الوظائف المقصودة والوظائف المفترضة

يلحظ وايت - ونشاركه ملحوظته – أن المتكلم باستعماله «من فضلك» يوقع المستمع في حيص بيص؛ وذلك أن صيغة المنطوق السطحية هي صيغة الالتماس، ولكن الوظيفة المفترضة هي إعطاء توجيهات. من هنا يستقبل المستمع رسالة محرّفة Garbled Message.

(1) White, op. cit., p. 195.

يعي المستمع بالطبع أن المتكلم مؤدب. ولكن هذا الوعي ذاته لن يمنع المستمع من الشعور - نوعا ما - بعدم الراحة؛ لأن ورود «من فضلك» مع الأمر. يستحضر أحد الشروط التي تحكم الالتماس، وهو رغبة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل، ولأن المتكلم - في هذه الحالة - يقود المستمع. من أجل ذلك، يبدو التوتر الناتج عن استعمال «من فضلك» أبلغ أهمية. وبناء على ذلك، يعد المتكلم فاشلا فشلا لغويا تداوليا؛ لأنه خلق توترا فيما كان مقصودا به أن يكون حدثا وديا friendly act؛ وهو تقديم توجيهات إلى كيفية الوصول إلى مطعم قريب من منزل المستمع. وقد نتج التوتر عن الفشل في تحقيق المطابقة بين الصيغة والوظيفة، مما أدى إلى مشكلة اتصالية.

أما متكلم اللغة الأصلي native، فسوف يستعمل الأمر مستغنيا عن «من فضلك».

(ب) وقد ينشأ الفشل اللغوي التداولي من وضع «من فضلك» في منطوق لا يقبل أن يفسَّر بأنه توصية أو التماس، كقول المتكلم :

◆ تفقد عملية التخزين في العقار الجديد ، من فضلك !

ونرى هذا في موقف اتصالي يتساوى فيه المتكلم والمستمع في المكانة من ناحية ويظهر فيه المستمع من ناحية أخرى رغبته في أن يؤدي هذا الفعل آنفًا. يجد المستمع آنذاك في التماس المتكلم هجومًا زائدًا؛ لأن أداء الفعل كان من برنامجه، ولم يكن جزءا من رغبة متضمَّنة في التماس المتكلم. في هذه الحال، ينشأ توتر عن سوء استعمال «من فضلك»، ويؤدي إلى مشكلة اتصالية وإلى فشل لغوي تداولي.

في مثل هذا الموقف يقول ابن اللغة شيئًا نحو :

◆ إذن ، لا تنس أن تتفقد عملية التخزين.

(جـ) وفي موقف اتصالي آخر، كان المتكلم أقل منزلة من المستمع، وكانا غادرا المكتب إلى السوق يشتريان بعض الأغراض المنزلية. وفي العودة إلى المكتب، فكر المتكلم في أن يشتري بعض الأشياء لمكتبه ، فقال للمستمع :

◆ سأشتري بعض الأشياء من هنا. من فضلك عد أنت إلى المكتب !

يجعل رون وايت منطوق المتكلم ملحوظة خاطئة: وذلك أن المتكلم افترض أن المستمع يرغب (أو يختار) أن يؤدي الفعل المطلوب. أسيء هنا مراعاة الوضع Status الذي يفصل بين المستمع والمتكلم: فالمتكلم ليس من مكانة تؤهله لأن يعبّر عن رغبته، أو أن يفرض هذه الرغبة على المستمع في أداء فعل بعينه. إنه في مكانة عرض اقتراح بأن يكون الإذن للمستمع أن يعود إلى مكتبه، وأن يشتري هو بعض الأشياء. يتوقع هنا أن يكون نهج المتكلم السليقي بالإنجليزية هو استعمال الأمر مستغنيا عن «من فضلك» :

◆ لا تقيّد نفسك بي !

◆ لا تزعج نفسك بانتظاري !

يضع هذا الأمر المستمع – لا المتكلم – في وضع المستفيد. أما الالتماس، فهو – كما علمنا – لمصلحة المتكلم من حيث إنه حقا المستفيد.

وإذا كان قصد المتكلم بأداء الفعل إلى مصلحة المستمع أعظم من قصده إلى مصلحته، وأن يكون متعاونا معه، فإن إبانته عن مقصده لم تبلغ الوضوح. من ثمّ كانت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي.

(د) في هذه الحالة يُعرض المتكلم الموقف الاتصالي للّبس: وذلك بأن يلتمس من المستمع أداء فعل أعرب المستمع عن رغبته في أن يؤديه من قبل :

المستمع إلى المتكلم : يمكنني أن آخذ هذه الآلة إلى الدور الأرضي

المتكلم إلى المستمع : بلى. من فضلك خذها إلى الدور الأرضي

يعطي التماس المتكلم انطباعًا بأنه أساء الحكم على معرفة المستمع بالعالم وعلى ذكائه. يرى وايت أن ما رغب المتكلم في أدائه، كان من أجل إثبات قدرة المستمع على أن يأخذ الآلة إلى الدور الأرضي. ويتوقع هنا أن يقول المتكلم الأصلي :

◆ بلى، يمكنك ان تاخذها إلى الدور الأرضي.

◆ بلى، هذه الآلة تنزل إلى الدور الأرضي.

◆ بلى، يمكنك.

إن استعمال المتكلم الأمر في صحبة «من فضلك» قد عرض الموقف للبس لا الإيضاح. من ثم عُدّت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي[1].

(هـ) لم يكن الموقف الاتصالي السابق موقفا علنيا؛ لأنه ضم شخصين اثنين فقط ولم تكن هناك أطراف أخرى. في هذا الموقف يبدو الفشل اللغوي التداولي في هيئة ارتباك. يقدم المتكلم – وهو رئيس الجلسة – ضيفه في مؤتمر أو في حلقة بحث قائلا :

◆ الأستاذ س، من فضلك ابدأ كلامك !

يبدو الفشل اللغوي التداولي هنا في التماس المقدّم من ضيفه أن يبدأ كلامه في الوقت الذي لا يصلح فيه مع مثل هذا الحدث اللغوي أن يكون التماسا أو إصدار تعليمات. إنه حدث دعوة: لأن المتكلم يدعو ضيفه – على نحو رسمي – إلى أن يأخذ دوره ليس الالتماس ولا إصدار تعليم الحدث اللغوي المناسب لأداء هذه الوظيفة. هذا نوع من فقدان المناسبة Inappropriateness. يرجع هذا إلى استعمال «من فضلك» في حدث دعوة: أي استعمالها في حدث لا يمكن أن تستعمل فيه. يتوقع في مثل هذا الموقف، أن يقول المتكلم المقدّم شيئا نحو :

◆ الآن أود أن ادعو الأستاذ س ليحدثنا عن ...

◆ والآن بعظيم السرور أدعو الأستاذ س إلى أن يبدأ كلامه عن ...

◆ الأستاذ س، يسعدني سعادة بالغة أن نستهلّ حلقة البحث ببحثكم عن

أساء المتكلم المقدّم استعمال «من فضلك»: لأنه لم يحقق المواءمة بين مقصده وتأثير كلماته. وإذا كان يرى في استعماله «من فضلك» نوع تأدب، فإن المستمعين يرون في ذلك نوع تكلف أو مصانعة[2].

لم يكن استعمال «من فضلك» فيما سبق موائما أنواع الأحداث اللغوية في تلك المواقف الاتصالية.

---

(١) المرجع السابق ص١٩٨

(٢) المرجع السابق ص١٩٩

لم يحقق المتكلم المواءمة بين مقصده وصوغ منطوقه. كان أداء الفعل المشار إليه في منطوق المتكلم لمصلحة المستمع لا المتكلم، على رغم أن المنطوق الذي يأخذ صيغة الالتماس، تعود المصلحة فيه إلى المتكلم وإذا كان المستمع قادرا – في تلك المواقف – على تفسير مقصد المتكلم وأنه قصد أداء فعل بعينه، فإنه لا يمكن تجاهل أثر فقدان المواءمة في خلق شعور التوتر والاضطراب في نفس المستمع، وربما أدى إلى سخطه وتكدير صفو علاقته الخطابية بالمتكلم.

ينبه ما تقدم إلى حقيقة جوهرية: هي وجوب العناية بالاستعمال الاتصالي للصيغة اللغوية، لا الوقوف عند الصيغة في ذاتها. لا يكفي هنا مثلا أن نعلم المتعلمين أن «من فضلك» علامة تأدب، أو أن أفعالا مثل «يمكن» و«يقدر» ونحوها مما يستخدم لتخفيف المعنى، أو أن هناك عبارات موروثة لبسط العلاقات الاجتماعية في مناسبات خاصة. ليست لهذه المعرفة اللغوية في ذاتها أهمية، وإنما ينبغي أن تختبر من خلال المقام. ويتضمن الأخذ بالمقام Contextualization إدراك الشروط التي تستخدم فيها مثل تلك التعبيرات لبناء التفاعل وتنظيمه وتوجيهه.

(و) الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية في موقف الإنشاد :

رأينا أن الكفاية الاتصالية هي القدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يوائم فيه بين المنطوقات والمقاصد وسياق الاتصال. ولا تبنى الكفاية الاتصالية على أساس مكونات المعرفة النحوية فحسب، ولكنها تبنى أيضا على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث اللغوية. ويكتسب الناس آليات تمكن من تحقيق قوانين الخطاب، ويجرون على منحى أعراف تصنع خلفيات سلوكهم اللغوي. من ثمّ، عد الخروج على ذلك كله فشلا لغويا تداوليا.

من أعراف الخطاب في المجتمع العربي مثلا، ألا تخاطب الملوك بأسمائها إعظامًا لها: يقول ابن جني: «وذلك أن أصغر الناس قدرا قد يخاطب أكبر الملوك محلاً بالكاف من غير احتشام منه، ولا إنكار عليه. وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الخطير: قد خاطبت ذلك الرجل، واشتريت تينك

الفرسين، ونظرت إلى ذينك الغلامين. فيخاطب الصاحب الأكبر بالكاف، وليس الكلام شعرا فتحتمل له جرأة الخطاب فيه، كقوله: لقينا بك الأسد، وسألنا منك البحر، وأنت السيد القادر، ونحو ذلك. وعلة جواز ذلك عندي أنه إنما لم تخاطب الملوك بأسمائها إعظاما لها؛ إذ كان الاسم دليل المعنى، وجاريا في أكثر الاستعمال مجراه، حتى دعا ذاك قوما إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى. فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التي هي شواهدهم، وأدلة عليهم، إلى الكناية بلفظ الغيبة، فقالوا: إن رأى الملك أدام الله علوّه، ونسأله حرس الله ملكه، ونحو ذلك، وتحاموا: إن رأيت، ونحن نسألك، لما ذكرناه»[1].

تشهد مصادر نقد الشعر العربية على أن نقاد الشعر العربي، قد فطنوا إلى اعتبارات ومعايير اتصالية تداولية مهمة، ينبغي للخطاب الشعري - لاسيما في مواقف الإنشاد العلنية - أن يراعيها، وإلا سقط الشاعر ضحية فشله اللغوي الاتصالي الاجتماعي مهما كانت كفايته اللغوية الخالصة. من علل حسن الشعر وقبول الفهم إياه عند ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ): «موافقته للحال التي يعد معناه لها: كالمدح في حال المفاخرة، وحضور من يكبت بإنشاده من الأعداء، ومن يسرّ به من الأولياء»[2]. ويبدو مبحث (مفتتح الشعر) عنده مثالا دالا على سبق النقاد العرب المقدمين إلى الوعي بدور المعايير الاتصالية التداولية في تقويم الوظائف الاجتماعية والجمالية للخطاب الشعري. وما قاله ابن طباطبا ترك صداه بين النقاد ومؤرخي الأدب بعده، فنقلوا عنه، وجعلوا ملحوظاته من محددات التمايز في صناعة الشعر. من هؤلاء مثلا أبو عبد الله المرزباني (ت ٣٨٤هـ)[3] وأبو هلال العسكري (ت بعد عام ٤٠٠هـ)[4].

يذكر هؤلاء الثلاثة: ابن طباطبا والمرزباني وأبو هلال العسكري طائفة

---

(١) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار ١٨٨/٢.

(٢) ابن طباطبا (أبو الحسن محمد أحمد): عيار الشعر، شرح وتعليق عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت ط١ (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٢٢.

(٣) انظر: المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى): الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي - القاهرة، د. ت ٣٠١/٢ وما بعدها.

(٤) انظر: العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله): كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦) ص ٤٣١ وما بعدها.

من مطالع قصائد المدح ونحوها. هذه المطالع التي لم يحترز فيها أصحابها مما يستجفى من الكلام والمخاطبات. ويمكن أن نعيد تصنيف تلك المطالع في إطار ما ترتبط به من عوامل الموقف الاتصالي، على النحو التالي:

١- مراعاة مكان الاتصال:

والمكان هنا بمعناه الاجتماعي لا الإقليمي. نعني هنا الأماكن الاجتماعية: كالمكتب؛ والشارع، والبلاط الملكي، ونحوها. ينبغي لنا هنا أن نعرف إن كان المكان اختير اختيارا عشوائيا أو اختيارا عن قصد، وإن كان محايدا أم خاصا، وما قد يرتبط بذلك من أهميته الاجتماعية عند أطراف الموقف الاتصالي وعلاقته بموضوع الكلام.

من ذلك مثلا ما يروى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه، وجمع الناس من أهله وأصحابه. وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج. وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصّع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة. وفي الإيوان أسرّة أبنوس عن يمينه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رتّبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم»[1].

في مثل هذا المكان وملابساته يقبل أن تطرح موضوعات بعينها في كيفيات خاصة، كما ينبغي تجنب الكلام في موضوعات أخرى مهما أوتي المتكلم من علم بالعلل في هذه الحال لا يليق أن يجعل إسحاق بن إبراهيم مطلع قصيدته هكذا:

يا دار غيّرك البلى فمحاك   يا ليت شعري ما الذي أبلاك؟

عندما ينشد مثل هذا المطلع في مكان هذه صفته، لن يكون تفاعل الحضور معه إلا أن تطير المعتصم، وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك[2]. قال أبو محمد أحد من شهد

(١) المرجع السابق ١٣٢؛

(٢) المرجع نفسه ص١٣٢.

اليوم: «فأقمنا يومنا هذا، وانصرفنا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سرّ من رأى، وخرب القصر»[1]

وكذلك كانت وجوه التفاعل مع مبادئ قصائد أخرى: كابتداء قول الأعشى :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالي وهل تردّ سؤالي

دمنة قفرة تعاورها الصيف ... بريحين من صبا وشمال

وقول أبي نواس:

أربعَ البلى إن الخشوع لبادي ... عليك وإني لم أخنْك ودادي

فقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي قوله، وتطيّر منه، فلما انتهى أبو نواس إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمُ ... بني برمك من رائحين وغادي

استحكم تطيره. يقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة[2].

٢- مراعاة حال المخاطب :

وذلك في كل ما له بالخطاب علاقة: كاسمه أو اسم أحد من أهله، وعمره وخلقه وخلقته وعمله، والوضع الذي يكون عليه المخاطب: جسمانيا كان أم نفسيا أم عقليا. من الأمثلة على ذلك ما روى أن أرطاة بن سُهيّة المرّي دخل على عبد الملك بن مروان، وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة وقال بعضهم ثلاثون ومائة سنة، فقال له عبد الملك: ما بقي من شعرك يا ابن سهيّة ؟ فقال: والله ما أشرب، ولا أطرب، ولا أغضب، ولا يجئ الشعر إلا على مثل هذه الحال. وقال بعضهم: إلا مع إحدى هذه الخلال – وإني على ذلك للذي أقول:

رأيت المرء تأكله الليالي ... كأكل الأرض ساقطة

وما تبغي المنية حين تأتي ... على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنها ستكرّ حتى ... توفي نذرها بأبي الوليد

وكان أرطاة يكنى أبا الوليد، فارتاع عبد الملك، وكان أيضا يكنى بأبي الوليد، واشتد عليه، وتغير وجهه، وظن أنه يعنيه. فقال: لا ترع يا أمير المؤمنين! إني لم أعنك وإنما عنيت نفسي: أنا أبو الوليد. فقال عبد الملك:

---

(١) المرجع السابق ص١٣٢

(٢) عيار الشعر ص ١٢٦- ١٢٧ وفنون التصاحب ص ١٣١

وإياي والله لتوفينّ بي نذرها"[1]. وفي عيار الشعر: «فقال له عبد الملك: ما تقول ثكلتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين. وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد أيضا، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات»[2]. ودخل المصور العنزي على زياد، فقال له زياد: أنشدنا. فقال: من شعر من؟ قال: من شعر الأعشى. فارتج عليه إلا قوله:

رحلت سميةُ غدوةً أجمالها ... غضبي عليك فما تقول بدالها ؟

قال المصور العنزي: فقطب زياد، وعرفت ما وقعت فيه[3]. وما وقع فيه العنزي أنه أنشد زيادا بيتا كان فيه اسم أمه «سمية»، على رغم أنه من شعر غيره ! وعن أبي نصر أحمد بن حاتم، قال: بلغني أن الفرزدق دخل على عبد الملك ابن مروان، فقال له: من أشعر أهل زماننا؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: ثم من؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة. قال: ثم دخل عليه جرير بعد ذلك، فقال له: من أشعر أهل زماننا ؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: ثم من؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة . فاحب عبد الملك أن يراه لقولهما، فوجه إليه، فجئ به. فقال: أنشدني أجود شعرك، فأنشده :

ما بال عينك منها الماء ... كأنه من كلى مفرية سربُ

قال: وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماء. قال: فغضب عليه ونفاه. فقيل له: ويحك ! إنما دهاك عنده قولك :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

فاقلب كلامك. قال: فصبر حتى دخل الثانية. فقيل له: أنشده، فأنشد:

ما بال عيني منها الماء ينسكبُ

حتى أتى على آخرها ، فأجازه وأكرمه[4].

وأحسب أن الكلام – على رغم قلبه – مازال يلمح في موقف اتصالي إنشادي علني إلى علّة الممدوح. وربما كانت الزيادة عن قلب الكلام من وضع الرواة. وعن محمد بن يزيد النحوي قال: حدثت في إسناد متصل أن أبا النجم العجلي أنشد هشاما :

(١) الموشح ص٣٠٥
(٢) عيار الشعر ص١٢٨ .
(٣) الموشح ص ٣٠٢
(٤) المرجع السابق ص ٣٠١-٣٠٣

والشمس قد صارت كعين الأحول

وذهب عنه الرويّ في الفكر في عين هشام . فأغضبه فأمر به فطرد[1].

٣- العلاقة بين اطراف الاتصال :

وهي تضم عناصر عدة مثل درجة التعارف وتوزيع الأدوار أو الأدوار المتوقعة. المهنة والمكانة من أهم المحددات الاجتماعية للمشتركين في عملية الإنتاج اللغوي. تمين هذه المحددات حقوقهم وواجباتهم وامتيازاتهم. ويرى ديتمار Dittmar أن محددات اجتماعية مثل الاحترام، أو الألفة، أو الكراهية، أو غيرها مما يشخص العلاقة بين المتكلمين، تعد عوامل حاسمة في تحديد السلوك اللغوي (صيغ التأدب، واستعمال اللغة المعيارية في مقابل اللهجة)[2]. ومن طريف ما يذكره سالزمان Salzmann أن الذوق اللغوي عند الجاويين يجعل الجملة الواحدة تسمع في ستة مستويات كلامية مختلفة وفقا للعلاقة الاجتماعية بين المتكلمين ووفقا لعوامل أخرى ترتبط بمن يأخذ جانبا في الحوار [3]. لم تراع جوانب هذه العلاقة في بعض حالات إنشاد الشعراء ممدوحيهم: من ذلك ما يرويه أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي، قال: لما أنشد جرير عبد الملك :

أتصحو بل فؤادك غير صاح

قال: بل فؤادك يا ابن اللخناء [4]. معلوم أن مواقف الإنشاد ليست مواقف اتصالية حقيقية على النحو الذي تتبادل فيه الأطراف الرأي والحوار. وعلى رغم ذلك وقع الشاعر في خطر غفلته عن تحري ما يلزم الخطاب به في موقف إنشادي علني: لأن خطابه سينصرف إلى ممدوحه وإن كان في أصله من خطاب الشاعر نفسه. هذا ما نجده في الحالات السابقات، كما نجده في مثل إنشاد الأخطل عبد الملك :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٠١

(٢) Dittmar, op. cit., p 165.

(٣) Salzmann, op. cit., p 181

(٤) المرجع ص ٣٠١

قال عبد الملك: بل منك، لا أمّ لك. وتطيّر عبد الملك من قوله، فعاد فقال:

..فراحـوا اليـوم أو بكـروا"[1].

ومن ذلك أيضا إنشاد البحتري أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري قصيدته التي أولها :

لك الويل من ليل تطاول آخره		ووشك نوى حيّ تزمّ أباعرهُ

فقال له أبو سعيد: الويل لك والحرب[2].

ينبغي للوضع فيما سبق أن يبدو هكذا: شاعر (مادح)/ملك (ممدوح). ويبدو الدور هكذا: (شاعر) ضيف/ (ملك) مضيف. الشاعر هو الذي يؤمر به أن يأتي إلى بلاط الملك، ينشده ويمدحه. ووفقا للأعراف المتبعة، ينبغي للشاعر أن يتحلى بالكياسة والأدب. وينبغي أن يحقق لهدفه مزيّة أن يطابق سلوكه اللغوي الدور المنتظر منه. أما الوسائل، فربما كانت الانحناءة، أو الاستئذان في الإنشاد، أو هما معا علامات على افتتاح مثل هذا الموقف الاتصالي الإنشادي. ويعقب هذا التعبير اللغوي الذي يناسب الإطار المؤسسي (بلاط الملك) ويناسب توزيع الأدوار (شاعر – ملك).

ومن القوانين اللغوية الاجتماعية التي صارت نمطية في المناهج الأنثروبولوجية، ما يسمى بقوانين التناوب Alternation rules التي تضم – مع أشياء أخرى – مشخصات العلاقة بين المتكلم والمخاطب: كعلاقات الدور والعمر والقرابة. ومن خواص الموقف أن يكون وديا أو رسميا أو غير رسمي. ولا تسمح نظم الخطاب اللغوية الاجتماعية مثلا، بأن يوجه المتكلم الشاعر إلى المستمع الملك سؤالا، على نحو ما رأينا في مطلعي ذي الرمة وجرير: وذلك أن السؤال – كما يلحظ لابوف Labov – يفسّر على أنه التماس للإخبار، الذي يمكن هو الآخر أن يفسّر على أنه مطالبة أو مناهضة Challenge[3].

تتخذ المواقف الاتصالية الإنشادية السابقة صورة شاعر يمدح وملك يستجيد فيجيز، أو لا يستجيد فلا يجيز. بيد أنها لا تخلو من دلالة على أن

(١) المرجع السابق ص ٣٠٢

(٢) عيار الشعر ص١٢٧

(٣) Labov, W.: The Study of Language in its Social Context, Studium Generale 23 (1) (19970) pp. 30-58, p.83

الشعراء أصحاب المطالع المعيبة اتصاليا ، لم يراعوا عند إنشادها – على رغم تقديمهم في الطبقة – الفرق الجوهري بين جماليات فعل النظم التي تحكمها الكفاية اللغوية وجماليات فعل تحول المنظوم إلى خطاب، تلك التي ينبغي للكفاية الاتصالية أن تكون المسئولة الحقيقية عنها. تعامل هؤلاء الشعراء فيما أنشدوه من مطالع بين أيدي الملوك ومن في الحضرة، مع اللغة المحكومة بنظامها، ولم يتعاملوا مع اللغة في وظيفتها الاجتماعية المحكومة باستراتيجيات التفاعل. من ثم، ظهروا جميعا وقد ذهبت عنهم كفايتهم الاتصالية على رغم ما عرضوا جميعا من كفاية لغوية.

لقد فات الشعراء المذكورين المعرفة بأعراف الاتصال. والعرف أملك، كما يقول عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)[1]. والأعراف متغيرة موقفيا وتاريخيا. وهذه فرصة لعمل الذوق. وأحسب أن بيتا في المدح كقول الشاعر :

أنت كالكلب في حفاظك للعهـ ـد وكالتيس في قراع الخطوب

مما لا يرضاه لنفسه في عصرنا ملك يذوق الكلام، مهما كانت الغاية فيه والمقصد! هكذا يظهر المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي تحولا من النظر إلى اللغة بالمنهج العقلاني الذي انحاز إلى وضع نظريات في الكليات اللغوية المجردة التي تحكمها البنية العقلية الموروثة عند الإنسان، مهملا تفسير اللغة في ضوء حقائق أخرى غير لغوية، إلى النظر إليها في وضعها الواقعي الاستعمالي الذي تتكيف فيه المنطوقات مع وظائفها السياقية الاجتماعية الثقافية الطبيعية. إنه – بالأحرى- تحول منهجي يعكس – فيما نحسب – تحولا أعمق في النظر إلى وظيفة اللسانيات ذاتها على النحو الذي نراه في مثل إشارة دو بوجراند إلى أنه «ينبغي للسانيات إذا لم تتلاش بسبب عزلتها من حيث هي حقل للبحث ... أن تصبح علما محوريا للخطاب والاتصال»[2].

إذا كانت الكفاية اللغوية باللغة، فإن الكفاية الاتصالية طرف منها باللغة وطرفها الآخر – في الوقت نفسه – بسياق الاتصال الذي تستعمل فيه.

●●● ●●● ●●●

---

(١) البغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الكاتب العربي، القاهرة (١٣٨٩هـ -١٩٦٩م) ٣/ ١٦٤

(٢) النص والخطاب والإجراء ، ص٧١

الفصل الثاني

حبك النص

منظورات من التراث العربي

١ – توطئة :

يميز هارتمان Hartmann - في نشأة علم لغة النص - بين سبع مراحل من التطور وضعت معالمه، هي: علم البلاغة وعلم الأسلوب والتأويل والسيميائية، وتحليل المضمون، ونظرية أفعال الكلام، والبلاغة الجديدة. أما علم البلاغة - من بينها - فقد تجلت أهميته في تعامله مع اللغة من حيث هي خطاب فعلي، وفي تشكيله أنماط الاتصال المؤثر ومعاييره(١).

في علم البلاغة العربي، تقع مناطق شاسعة للعناية بطرق الإبلاغ المؤثر، فضلا عن العناية بمعايير البنية المثلى للنص وصناعته. ولكن تظل بين العلمين وجوه للمفارقة. بينما علم البلاغة الغربي كان أول العلوم التي أسهمت في تأسيس هذا العلم اللغوي النصي، لم يطور علم البلاغة العربي علما جديدا.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم إلى خاصية الحبك Coherence. وتسعى من وراء ذلك إلى استصفاء المبادىء والتصورات التي يمكن لها أن تتخذ مرتكزات لتحليل النص العربي تحليلاً مناسبا، لاينفل عن خواصه ومعاييره البنائية والاتصالية، من حيث إن النص - في المقام الأول - إنتاج بيئته الاجتماعية والحضارية، وهو - في الوقت نفسه - يدل عليها ويمارس فيها وظائفه.

وأحسب أن علم لغة النص وتحليل الخطاب هما أفضل نقطة يلتقي عندها علم البلاغة وعلم اللغة أحدهما بالآخر. من ثم، تأمل هذه الدراسة أن تكون خطوة على طريق توثيق الصلات بين علم البلاغة وعلم اللغة توثيقاً يفيد منه كلا العلمين؛ وذلك بأن يدفع علم البلاغة علم اللغة إلى تجاوز حدوده التقليدية التي تقنع بوصف الأنماط البنائية المفردة الصغرى للغة وتحليلها، إلى علم الاتصال والتداولية ونحوها، وبأن يدفع علم اللغة علم البلاغة إلى تجاوز إطاره التقليدي نظاما من القواعد والمعايير عما يجب في الكلام وما لا يجب، إلى معالجة إشكاليات نصية مهمة من منظور لغوي، مثل: تخطيط النص، واستراتيجيات الإنتاج، واستراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، واختلاف

---

(١) Hartmann, R. R. K.: Contrastive Textology: Comparative Discourse. Julius Groos Varlag Heidelberg (1980), pp. 10 - 13

بني النصوص باختلاف فئاتها، ومعرفة كيفيات تدرج المضمون النصي، ومعرفة بنى النص الكلية وغيرها. لهذه المحاولة في البلاغة العربية الآن نظائر في البلاغة الأوربية، أضرب مثالا على ذلك محاولة رولان بارت ROLAND BARTHE في كتابه " قراءة جديدة للبلاغة القديمة " الذي بناه على أساس مصطلحات بنيوية وسيميائية[1].

وتتخذ هذه الدراسة من فحص مفهوم الحبك ومرادفاته في تبصرات التراث العربي وسيلة لبلورة المفاهيم والمنظورات اللغوية والبلاغية وتوثيق الصلات بينها في تحليل الخطاب، بعد أن ثبت أن قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها، وأنها - كما يقول دكتور تمام حسان - لا تقترب من الطابع النقدي إلا في مواضع محددة[2].

في هذه التوطئة، ينبغي لنا - قبل الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم في الحبك وتحليلها - أن نعرف: ما الحبك؟ وما موقعه بين معايير النصية؟ وما أهم المفاهيم الأخرى التي ترتبط به عند تحليل بنيته؟

كان من أهم ما تمخضت عنه النظرية اللغوية المعاصرة علم لغة النص. وكان من إسهامات علم لغة النص المهمة تحليل ما عرف بمعايير النصية NORMS of Textuality. ومعايير النصية هي المكونات التي تجعل النص كلا موحداً متماسكاً دالا، لا محض سلسلة من الكلمات والجمل غير المترابطة. هذه المكونات هي: السبك Cohesion والحبك Coherence والقصد Intentionality والقبول Acceptability ورعاية الموقف Situationality، والتناص Intertextuality والإعلامية Informativity.

تتكامل المكونات السبعة السابقة في تحقيق الطبيعة النصية للنص. كانت هذه المكونات الفكرة المركزية في عمل رائد في مجال علم لغة النص: وهو عمل دوبوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler المسمى: (مدخل إلى علم لغة النص An Introduction to text linguistics).

في علم اللغة المعاصر جعل الشرط الجوهري للنص أن يكون كلا

---

(1) [illegible] ١٩٩٤

(2) [illegible] ١٩٨١م [illegible]

موحداً منتظماً في وحدة دلالية، لا تجميعاً محضاً بين جمل يعوزها الترابط الدلالي. سواء في ذلك أن يكون نصاً منطوقاً أم مكتوباً، قصيراً أم طويلاً. من أجل ذلك نظر إلى النص بوصفه تصميماً للمعاني على مستوى أعلى[1]. وفي ضوء ذلك أيضاً عرف النص عند هاليداي ورقية حسن بأنه وحدة من التنظيم الدلالي الموقفي: أي أنه استمرارية معنوية أو انتظام للمعاني في السياق، تشيده علاقة الحبك الدلالية[2].

يكون السبك والحبك - من بين المعايير السبعة بوجه خاص - ثنائية مفهومية في حقل علم لغة النص وتحليل الخطاب. يربط السبك بين عناصر سطح النص، ويكمن الحبك بين عالمه النصي: أي أنهما يشيران إلى كيفية تكيف العناصر التي تكون النص بعضها مع بعض وصنع المعنى. السبك والحبك - كما يقرر دوبوجراند ودرسلر - أوضح معايير النصية، وإن كانا لا يمكن لهما أن يقدما فواصل مطلقة بين النصوص وغير النصوص في الاتصال الفعلي[3]. يجعل علماء لغة النص للحبك أهمية خاصة. الحبك عند كلاوس برنكر Klaus Brinker هو المفهوم النواة في تعريف النص، وهو يقع عنده في مركز علم لغة النص الموجه إلى النظام اللغوي[4].

ويرى كل من هاينمن Heinemann وفيفيجر Viehweger أن وحدة النص Texteinbeitlichkeit لا تقاس بظواهر سطحية؛ ولكنها تقاس بالبحث عنها في البنية الدلالية الأساسية Semantische Basisstruktur التي تكشف عنها المسائل الدلالية الكبرى للأبنية المركبة والحبك النصي[5].

يرجع المفهوم Coherence في الإنجليزية أو Kohaerenz في الألمانية إلى

(١) Halliday، M. A. K.Language as Social Semiotic. Edward Arnold London (1993) p.137

(٢) Halliday . M. A. K. – Hasan Ruqaily : Cohesion in English . Longman . London - New York (1983) p. 25

(٣) De Beaugrande ، R. – A. / Dressler ، W. U. Introduction to Text – Linguistics ، Longman . London – Now York ، (1983) p. 113 .

(٤) Brinker ، Klaus . Textbegriff in der heutigen Linguistik in : Studien zur Texttheorie und zur deutschen Grammatik . Duesseldorf (1973) SS 9-41 .S.13

(٥) Heinemann ، W . - Viehweger ، D : Textlinguistik ، Eine Einfuehrung Max Niemeyer Verlag (1991) S. 49

... اللاتيني Gohaerentia. وهو مستعار من علم الكيمياء. عرف هذا المفهوم في علم اللغة النصي وتحليل الخطاب حدودا عدة. يحده سوفنسكي Sowinski بقوله: "يقضي للجمل والمنطوقات بأنها محبوكة، إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض، في إطار نصي أو موقف اتصالي، اتصالا لا يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات"[1] ويحده ليفاندوفسكي Lewandowski بقوله: "ليس الحبك محض خاصة من خواص النص، ولكنه أيضا حصيلة اعتبارات معرفية (بنائية) عند المستمعين أو القراء".

... الحبك حصيلة تفعيل دلالي Bedeutungsaktualisierung، ينهض على ترابط ... بين التصورات والمعارف، من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، علي معني أنها شبكة دلالية مختزنة، يتناولها النص غالبا على مستوى الشكل: فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم الحبك الضروري أو ينشئه"[2].

ويلخص ليفاندوفسكي زوايا النظر إلى الحبك في علم اللغة النصي فيما يلي:

١- الحبك من حيث هو الشرط اللغوي لفهم السبك فهما أعمق.

الحبك من حيث هو إحدى خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، وهو ما يسمى بالارتباط المرجعي أو الإشاري Referentiell.

٣- الحبك من حيث هو إحدى خصائص الإطار الاتصالي الاجتماعي.

٤- الحبك من حيث هو إجراء ومن حيث هو حصيلة التلقي الابتكاري ... البناء"[3].

تدل الحدود السابقة مع غيرها علي أن الحبك في جوهره تنظيم مضمون النص تنظيماً دلاليا منطقياً. تسلسل المعاني والمفاهيم والقضايا علي نحو منطقي مترابط هو أس حبك النص. والنص الذي يوصف بأنه لا معني له، هو

---

(١) Sowinski, Bernhard: Textlinguistik. Verlag W. Kohlhammer. Stuttgart – Berlin – Koeln – Mainz (1983) S.83.

(٢) Lewandowski. Theodor: Linguistisches Woerterbuch. Quelle u. Meyer. 6 Auflage. Heidelberg Wiesbaden (1994) S. 546.

(٣) Lewandowski, op. cit. SS. 546-7.

النص الذي لا يستطيع مستقبلوه أن يعثروا فيه علي مثل هذا التسلسل.

إذا كانت وسائل السبك هي الإحالة Reference، والاستبدال Substitution والحذف Ellipsis، والوصل Conjunction، والسبك المعجمي Lexical Cohesion فإن وسائل الحبك - فيما ذكره دوبوجراند - تشتمل علي ما يلي :

العناصر المنطقية: كالسببية، والعموم، والخصوص class inclusion.

١- معلومات عن تنظيم الأحداث، والأعمال، والموضوعات، والمواقف.

٢- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية. ويدعم الحبك (عند المترجم الالتحام) بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم[1].

تحيط بالحبك في نظرية النص شبكة من المفاهيم النظرية التي تمكن من تحليل بنيته تحليلا متكاملاً. من أهم هذه المفاهيم :

١- مفهوم " الحبك الطولي أو المتدرج Linear or Sequential Coherence" في مقابل مفهوم " الحبك الشامل أو الكلي Global or Overall Coherence ". ينتج الحبك الطولي بين ما تعبر عنه الجمل ومتواليات الجمل من قضايا. هذا النوع من القضايا Propositions هو الذي ينتج عنه ما يسمي ببني النص الصغرى. أما البني الدلالية الأشمل والتي لا تشخص تشخيصاً مباشراً عن طريق العلاقات بين قضايا مفردة، بل تشخص في حدود ما نجريه علي تلك المجموعات والمتواليات من إجراءات، فهي البني التي تنتج هذا النوع من القضايا والمتواليات الكلية التي تكون ما يسمي ببني النص الكبري[2].

٢- مفهوم " علاقات الحبك Coherence Relations "، ونذكر لها الأنواع التالية:

(أ) وحدة المرجع Referential Identity، وهو يمثل إحدى علاقات الحبك بين الذوات. وخلاصته أن الموضوعات وحدات في قضايا مختلفة، يمكن أن يكون لها الذات نفسها، والقيمة ذاتها. ويمكن أن يشار إلى الذات الواحدة

(١) دوبوجراند، روبرت : النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان. عالم الكتب - القاهرة (١١٩٨) ط ١ ص ١٠٣

(٢) Van Dijk, Teun, A: Text and Context, Longman - London - New york (1980) p.95.

باسم العلم، أو الضمير، أو بمفردات مثل "آخر"، أو تعبيرات مثل "ذلك الولد" أو "الطالب الذي فقد كتابه"(١).

(ب) علاقة الاختلاف والتغير Relation of difference and change ونحواها أننا لا ندوم في الخطاب على ذكر الشيء نفسه عن الذوات أنفسها، بل ندخل إلى عالم الخطاب ذواتا جديدة، أو نعين جديدا من الخصائص والعلاقات للذوات أدخلناها من قبل.

كذلك، فإن التغير في العالم النصي أو في الموقف، تحدده بعض العلاقات المقبولة بهذا العالم أو الموقف الذي أنشأناه من قبل. المهم أنه ينبغي للتغيرات أن تكون متجانسة Homogeneous، وأن يكون وقوعها في حدود مستوى أعلى من مستويات مبدأ يحدد الذوات الممكنة والخصائص الممكنة لعالم نصي بعينه.

يرتبط تغير الذوات والخصائص بما ذكر من قبل من نظائرها. ويوجب تسلسل الخطاب أو استمراريته، أن تعبر كل جملة - من حيث المبدأ - عن هذه العلاقة بين مذكور وجديد من المعلومات، أو بين ما يسمى المحور Topic والتفسير Comment على النحو التالي :

< < أ ، ب > ، < ب ، ج > ، < ج ، د > ، ... > أو < < أ ، ب > ، < أ ، ج > ، < أ ، د > ، ... >(٢).

(ج) علاقة التبعية Subordination: وذلك أن الأقوال تحبك أيضا حبكا منطقيا عن طريق التبعية(العلة Cause، الشرط Condition، المقارنة Comparison، التخصيص Specification .. الخ)، أو عن طريق تدرج الأجزاء وعلاقة الجزء بالكل(٣).

٣- مفهوم "الحلقات المفقودة Missing Links": ويقصد بها عند "فان دايك" القضايا التي نسلم بها على أنها تنشئ الحبك النظري للنص والتي لا يعبر عنها في الخطاب. ويمكن أن يعاد تركيب هذه الحلقات المفقودة

(١) Text and Context . op. cit, p. H 93

(٢) Text and Contxte . ibid . p. 94

(٣) Grabe, William : Written Discourse Analysis . Kaplan R. B. (ed) Annual Review of Applied Linguistics 5 . 101 - 123

بواسطة ما يسمى بقوانين الاستدلال Rules of Inference، أو القوانين والإجراءات التي تحدد على مستوى التداولية . أو أن تحدد بواسطة النظرية المعرفية[1].

ويرتبط مفهوم " الحلقات المفقودة " عند فان دايك بمفهومين آخرين عند "ودوسون Widdowson ": أحدهما " أعراف الحبك Conventions of Coherence" والآخر ما يسميه بالرابطة الإنجازية Illocutionary Link " . خلاصة المفهوم الأول أننا نربط ما يقال بما نعرف، وأن قدرا من المقدرة على الاستدلال يؤول إلى تقاليد وأعراف مرتبطة بنوع الخطاب. نحن نتعلم مثلا أن المكاتبات الإدارية ذات صيغة بعينها، وأن المعلمين يكتبون تقاريرهم على نحو بعينه، وهكذا يكون الخطاب محبوكا على قدر إدراكنا إياه من حيث هو تمثيل لاستعمال لغوي عادي، وهو محبوك على قدر قبولنا الأحداث الإنجازية بوصفها خاضعة للأعراف السائدة في هذا النوع أو ذاك من أنواع الخطاب. يخلص" ودوسون إلى القول " بأن الحبك يقاس بمدى خضوع حالة بعينها من حالات الاستعمال اللغوي للمعرفة المشتركة بالأعراف وبكيفية ارتباط الأحداث الإنجازية لتكوين وحدات أكبر من الخطاب، من أنواع مختلفة. إذا قابلتنا قطعة من اللغة، أمكننا الحكم بكيفية حبكها وصفا، أو تقريرا تقنيا، أو مذكرة قانونية . . . الخ[2].

أما المفهوم الثاني،فهو ما يسميه ودوسون باسم "الرابطة الإنجازية" Illocutionary Link في بيان هذا المفهوم يضرب مثلا بالمبادلة الكلامية التالية:

أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : جئت لتوي !

نجعل لما سبق معني بتركيز انتباهنا على الأفعال الإنجازية التي استخدمت القضايا الإنجازية. نحن نصنع موقفا في عقولنا، يزودنا برابطة إنجازية بين المنطوقين. وينبغي لنا أن نتخيل موقفا يشهد – على سبيل المثال – نوع شغب أحاط برجال الشرطة، وشد انتباه المارة. إنه جمع متزاحم، يسأل

---

(١) Text and Context , op. cit , p. 9

(٢) Widdowson, H. G. Teaching Language as Communicatio. Oxford Uni. Press (1994) p. 44

فيه المشاهد (أ) المشاهد الآخر (ب) عما حدث. يمثل منطوق (ب) الآن على أنه كشف عن عجزه عن الإجابة عن سؤال (أ). إنه لا يقدر على أن يمدنا بالمعلومة المطلوبة؛ لأنه حضر لتوه. يمكننا - إذ ذاك - أن نأتي بالرابطة القضوية المفقودة على النحو التالي :

أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : (لا أعرف ما فعله رجال الشرطة لأنني) جئت لتوي [1].

يريد ودوسون أن يصل من هذا إلى الأمرين التاليين :

١ - يوجد السبك حيثما توجد علاقة قضوية Propositional Relationship بين الجمل. السبك إذن علاقة صريحة بين قضايا تعبر عنها الجمل.

٢ - يوجد الحبك حيثما توجد علاقة بين الأفعال الإنجازية التي تنجزها القضايا (والتي لا يرتبط بعضها ببعض دائماً ارتباطاً صريحاً).

في ضوء ما سبق، نري تلك المبادلة مبادلة محبوكة غير مسبوكة. أما المبادلتان التاليتان – في مقابل ذلك - فهما مسبوكتان محبوكتان :

١ / أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : ألقوا القبض على المتظاهرين.

٢ / أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : ألقى الظالمون القبض على المتظاهرين !

ولكن المبادلة رقم ١ أقوى تماسكا من رقم ٢؛ وذلك لتطابق المرجع بين أ و ب، في الوقت الذي قوبل فيه " رجال الشرطة " في رقم ٢ بـ " الظالمون " في الإجابة. "الظالمون " في الإجابة إحالة إلى متقدم، مما يسمح بتأسيس رابطة دلالية بين " رجال الشرطة " و " الظالمون ".

على أي حال، نرى في المبادلتين الأخيرتين علامات شكلية تساعد على اكتشاف الرابطة القضوية بين أ ، ب في كل منهما. بينما الصلات واقعة عبر الجمل في المبادلتين الأخيرتين. لا نرى صلة بين أ و ب في المبادلة الأولى.

بناء على ما سبق، يمكن القول بأننا نستطيع الاستدلال على الأفعال الإنجازية من الروابط القضوية التي أشير إليها إشارة صريحة. وفي حال الحبك

(1) Teaching Language , op. cit pp. 27 - 28

نستطيع الاستدلال على الروابط العضوية الضمنية من خلال تفسير الأفعال الإنجازية"[1].

تدور المفاهيم الثلاثة الأخيرة " الحلقات المفقودة " و " أعراف الحبك " و " الرابطة الإنجازية " حول أثر الاعتبارات التداولية في وسم الخطاب بالحبك وإن غاب عنه السبك. تبدو الاعتبارات التداولية في " الاستدلال " على نحو ما رأينا تبدوا أيضا في العلاقة بين المنطوق ووظيفته في سياق بعينه، كأن يخرج المنطوق " هناك شخص بالباب " عن وظيفة الإخبار إلى التحذير أو طلب فتح الباب، في مبادلة مثل :

أ : هناك شخص بالباب.

ب : أنا مشغول !

أ : طيب !

تكون المنطوقات الثلاثة خطاباً محبوكاً، إذا نظرنا إليها من حيث هي أفعال إنجازية. يساعد هذا الفهم للعلاقات بين المنطوقات على تزويد المبادلة السابقة بالروابط العضوية المفقودة والتي تعيد إليها خاصية السبك :

أ : هناك شخص بالباب (هل يمكن أن تفتحه ؟).

ب : (لا، لا يمكنني أن افتحة، ف) أنا مشغول !

أ : طيب (سافتحه أنا).

قدم علماء اللغة الاجتماعيون - في عنايتهم بمظهر التفاعل الاجتماعي من استعمال اللغة - وصفا مفيدا في هذا المجال للكيفية التي تترابط بها المنطوقات. برهن لابوف Labov على أن هناك ما يسمى بـ " قوانين التفسير " التي تربط ما يقال بما يفعل. على أساس هذه القوانين الاجتماعية - لا اللغوية - تفسر بعض السلاسل الحوارية بأنها محبوكة. معرفة الحبك أو عدم الحبك في السلاسل الحوارية لا يعتمد - عند لابوف - على العلاقة بين المنطوقات، ولكنه يعتمد على العلاقة بين الأفعال Actions التي تؤديها المنطوقات"[2].

---

(١) Teaching Language . op. cit pp. 28 - 29

(٢) Brown, Gillian - Yule, George. Discourse Analysis, Cambridge Uni. - press (1984) p. 226

تختص من المفاهيم الثلاثة الأخيرة إلى المسائل المهمة التالية

الحلقات المفقودة قضايا لم يصرح بها الخطاب، ونحكم بها لدورها في توفير الحبك للخطاب. ونحن نصل إلى تلك الحلقات عن طريق الاستدلال أو معرفتنا بالعالم.

يخضع معيار الحبك للمعرفة المشتركة بكيفية ارتباط الأفعال الإنجازية بعضها ببعض وبالأعراف السائدة في جنس بعينه من أجناس الخطاب : كأن يكون تقريرا أو مذكرة أو مكاتبة إدارية . . الخ.

ينبغي للخطاب أن يكون مسبوكا محبوكا. ولكنه قد يكون محبوكا غير مسبوك. إذا وجدت علاقة قضوية بين الجمل كان الخطاب مسبوكا، وإذا وجدت علاقة بين الأفعال الإنجازية كان محبوكا.

- الحبك عند أصحاب نظرية أفعال الكلام وعلماء اللغة الاجتماعيين علاقة بين الأفعال وليس علاقة بين المنطوقات. وهذا ما يستنبط حقا من المبادلات الكلامية الطبيعية.

- الحبك عند القدماء : إشارات عامة :

دل القدماء على " النص " بأشكاله التي يتبدى فيها تحققه: كالقصيدة والخطبة والرسالة ونحوها، ولم يألفوا – في تنظيراتهم – جمع تلك التحققات مفهوم " النص " البنائي. بيد أن القدماء من اللسانيين البلاغيين قد أتيح لهم – على رغم ذلك – أن يلاحظوا لتلك التحققات مقومات " نصية " جوهرية مشتركة، فضلا عما لاحظوه لكل منها من مقومات نصية بنائية جوهرية خاصة: مثل تلك التي تفرق بين قصيدة ورسالة، أو بين رسالة وخطبة . . . الخ.

كان الحبك من أهم تلك المقومات النصية المشتركة التي وقف عليها اللسانيون البلاغيون منذ القرن الثالث الهجري. فضلا عن مفهوم الحبك نرى في مصادر التراث البلاغي مفاهيم أخري ارتبطت بسياقاتها اللغوية في الدلالة على ما يدل عليه الحبك أو على شيء مما يدل عليه: كالاتصال، والامتزاج، والالتئام، والالتحام، والتلاحم، والاتساق، والائتلاف، والاقتران، والارتباط، والملاءمة، والمناسبة، والتناسب وغيرها لعل الالتحام أقرب هذه المفاهيم إلى معنى الحبك المعجمي: فالحبك شد وإحكام. ولعل الالتحام والتناسب والاتساق أدنى إلى مجال اختصاص الحبك المعنوي وأنأها عن الالتباس

والاستعمال بالدلالة على خواص أخرى لفظية. ومهما يكن من أمر ، فقد أثرت الحبك على غيره مما دار مداره في التراث. كما أثرته مقابلا عربيا مناسبا لـ Coherence في الانجليزية أو Kohaerenz في الألمانية وما ماثلهما في لغات أجنبية أخرى، بدلا من هذا الحشد الحاشد المتخالف من المقابلات العربية التي تكاد تختلف باختلاف الباحثين في ترجمة هذين الاصطلاحين.
وأجمل فيما يلي – مرة أخرى – الأسباب التي دعتنا إلى إيثار الحبك على غيره، سواء من نظائره في التراث العربي نفسه، أو إيثاره على غيره من المقابلات العربية التي قوبل بها المصطلح الأجنبي في الدراسات العربية والمترجمات الحديثة – أجمل تلك الأسباب فيما يلي :

١- أن الحبك يصنع مع السبك ثنائية مفهومية متجانسة، مما يرسخ مدلوله الاصطلاحي ترسيخا أقوى مقارنة بنظائره.
٢- أن الجمع بينه وبين قرينة السبك، سوف يساعد في اختصاص معناه بمجرد إطلاقه، وهو ما لا يتوفر لمفاهيم أخرى كالملاءمة والائتلاف ونحوهما. الملاءمة مثلا تأتي في سياق تدل فيه على معنى الحبك، ولكنها تأتي في سياق آخر تدل فيه على الملاءمة بين اللفظ والمعنى؛ كأن يكون اللفظ رقيقا مثلا في موضع الوعد والبشارة.
٣- نظرًا لمعنى الحبك في اللغة ، فإنه يبدو أدل من غيره على ما يكون من صانع النص، من توزيع علاقات الحبك وربطها بين وحدات النص الجزئية، من أجل تشييد وحدته النصية الكلية.

أما أهم الإشارات العامة التي تثبت – في مجملها – وعي القدماء بخاصية الحبك اللغوي للكلام أو النص فيمكن لنا أن نعرضها موجزين على النحو التالي:

(أ) روى أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) عن عمر بن لجا أنه قال لأحد الشعراء: " أنا أشعر منك ! قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه "[1].

الأخوة والعمومة في كلام ابن لجا إشارة إلى درجة قوة الترابط الدلالي بين سلاسل المنطوقات المتواليات، مما يصير به النص كلا موحدا دالا. وهذه

---

(١) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة ط٥ (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ١/٢٠٦.

الإشارة الوجيزة في كلام ابن نحا تعكس وعي منتجي النصوص أنفسهم بأن إنتاج النص قدرة على القصد، يظهرها المتكلم تجاه الملابسات والظروف التي ينتج فيها نصا، والتي يحاول فيها أن يجعل هذا النص مفهوما، من خلال التخطيط وتسلسل المعلومات على نحو منطقي.

(ب) وقد ذم ابن قتيبة (ت ٢٦٧هـ) التكلف في الشعر. وجعل من التكلف في الشعر عنده أن ترى البيت مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه[1].

تخصيص الكلام عن الشعر هنا راجع إلى الجنس الذي يقوم عليه عمل ابن قتيبة فحسب. وما ذكره هنا عن الشعر يسري على شتى أجناس القول بالطبع: إذ لا تتصور مجاورة حقيقية بين المنطوقات من غير أن تتحقق بينها علاقة دلالية ما.

(ج) وقال ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ): " وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، ... ويتفقد كل مصراع: هل يشاكل ما قبله؛ فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه "[2].

انتظام المعاني واتصال الكلام في إشارة ابن طباطبا السابقة أمور ينبغي لها أن تفهم في ضوء مبدأ الاستمرارية المعنوية التي توفر للخطاب حبكا طوليا هو نواة أبنيته الصغرى، كما توفر له حبكا كليا هو نواة بنيته الكبرى. اتصال الكلام وانتظام المعاني يؤديان بالضرورة إلى المشاكلة بين أجزاء القول. لما كانت المشكلة مما يحوج إلى دقة نظر ولطف فهم، فقد غاب عن رواة الكلام ما لم يغب عن أصحابه. في ضوء مبدأ الانتظام المعنوي والاتصال الكلامي يمكن أن ننظر إلى ما وقع فيه الخلل من الشعر بين الرواة نظرة مقابلة بين " نص الشاعر " و " نص الراوي " . ربما كان الكلام في " نص الراوي " متشاكلا، ولكنه في " نص الشاعر " أشكل وادخل في استواء

(1) ابن قتيبة (أبو محمد الدينوري): الشعر والشعراء، بيروت (١٩٦٤ م) ١/ ٢٥، ٢٦.

(2) ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد): عيار الشعر، تحقيق دكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت، ص ٢٠٩.

النسج. يذكر ابن طباطبا أن البيتين التاليين قد رويا لامرىء القيس هكذا :

كأني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

هكذا الرواية . قال ابن طباطبا : " وهما بيتان حسنان . ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر ، كان أشكل وأدخل في استواء النسج ، فكان يروى :

كأني لم أركب جوادا ، ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروي للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال"(1)

يقضي مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام أن يكون نص الشاعر هو المتمتع بالمشاكلة؛ وذلك أن ركوب جواده في المصراع الأول يشاكله أمر خيله بالكر في المصراع الثاني. الكلام هكذا متصل، والمعاني هكذا منتظمة. وهذا مادق ولطف على الراوي، فلم يفطن إليه في نص روايته. نص الشاعر ونص الراوي مقابلة بين نص مسبوك محبوك ونص مسبوك فحسب.

ويذكر ابن طباطبا أبياتا أخرى رويت وقد خلت من المشاكلة، من ذلك قول طرفة :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

قال ابن طباطبا: " فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول " (2). ينبغي للكلام بعد الاستدراك بـ (لكن) أن يأخذ بسبب بما قبله. الأحرى – في التعليق – أن يقابل المثبت بعد (لكن) المنفي قبلها، لم يقع هذا في البيت في مثل هذه الرواية فسد السبك والحبك جميعا، ومن ثم خلت من المشاكلة.

(د) وقال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ): " ينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها . . ومثال

---

(١) عيار الشعر، ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) عيار الشعر، ص ٢٠٢

[illegible]

[illegible] قال أحد [illegible]

فاقسم يا عمرو لو نبهالك	إذا نبهـا منـك داء عضالا
إذا نبهـا ليـث عريسـة	مفيتـا مفيـدا نفوسـا ومـالا
وخـرق تجـاوزت مجهولـة	بوجناء حرف تشكي الكلالا
فكنـت النهـار بـه شمسـه	وكنت دجى الليل فيه الهلالا

فجعلت الشمس بالنهار، والهلال بالليل وقالت: مفيتا مفيدا، ثم فسرت فقالت: نفوسا ومالا "[1].

في كلام أبي هلال ما يفيد وعيه بتلاسق حقول الدلالة بين أجزاء الكلام، كما يفيد وعيه بإحدى العلاقات الدلالية التي توفر للخطاب تماسكاً؛ وهي علاقة التفسير، تفسير المجمل. ومازلنا نرى في إشارته إلى اشتباه أول الكلام بآخره، ومطابقة هواديه لأعجازه ما يحمعها بمبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام عند ابن طباطبا.

جعل أبو هلال – في نصه السابق – الاشتباه والمطابقة وتلازم الأجزاء أموراً واجبة في صنعة الكلام. في موضع آخر، أوجب أبو هلال في صنعة الكلام شروطاً نجملها في :

- تخير الألفاظ على ما يوجب التئام الكلام.
- أن يكون موقع الكلام في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحق بالمقام والحال"[2].

الشرط الأول من أحسن نعوت الكلام.

والثاني يجعل الكلام جامعاً الحسن.

أما الشرط الثالث، فهو :

---

(1) العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1 (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م)، ص ١٤١ - ١٤٢ [illegible]

(2) كتاب الصناعتين، ص ١٤١

* أن يكون ما يرده نسيب من مصادره، وأوله يكشف قناع آخره".

فإن هذا الشرط بأن يكون الكلام - من وجهة نظر أبي هلال - "قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام"(1).

إنباء موارد الكلام عن مصادره وكشف أوله قناع آخره مظاهر دالة على توفر خاصية الحبك بين أجزائه. ولعل في إشارة أبي هلال إلى واقعات الإجازة ما ينم عن وعي بمفهوم الحبك الطولي أو المتدرج الذي تتم معه القضية المعبر عنها في الجملة. يقول أبو هلال: " أخبرني أبو أحمد، قال: كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرك، نتعلم منه علم الشعر، فقال لنا يوما: إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم قال: أجيزوا هذا البيت :

الا إنمـا الـدنيا متـاع غـرور

فأجازه كل واحد من الجماعة بشيء، فلم يرضه، فقلت: " وإن عظمت في أنفس وصدور " فقال : هذا هو الجيد المختار .

وأخبرنا أبو أحمد الشطني، قال: حدثنا أبو العباس بن عربي، قال: حدثنا حماد عن يزيد بن جبلة ، قال: دفن مسلمة رجلا من أهله، وقال :

نـروح ونغـدو كـل يـوم وليلـة

ثم قال لبعضهم: أجز، فقال: فحتى متى هذا الرواح مع الغدو، فقال مسلمة: لم تصنع شيئا. فقال آخر: فيالك مغدى مرة ورواحا، فقال: لم تصنع شيئا. فقال لآخر: أجز أنت، فقال :

وعمـا قليـل لا نـروح ولا نغـدو

فقال: الآن تم البيت "(2).

تمام البيت والجيد المختار فيه بما يتم قضية، يأتي الجزء فيها مع لفقه. هذا ما ينتهي إليه الحد في صنعة الكلام عند أبي هلال، وهذا ما يجعل الكلام يبلغ عنده أعلى مراتب التمام.

---

(1) المرجع السابق ص ١٤١

(2) كتاب الصناعتين ص ١٤٣

كان الحسين بن وهب (ت ٣٣٧ هـ) قد أضاف " حسن النظام " إلى حد البلاغة: قال: " وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها. وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها. وحدها عندنا: القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان . . . وزدنا حسن النظام: لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصيير كل واحدة مع ما يشاكلها، فلا يقع ذلك موقعه "[1].

ويضرب ابن وهب على المشاكلة مثلا في قوله: " أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبنى وشيد ؟ " – فاتبع كل حرف بما هو من جنسه، وما يحسن معه نظمه، ولم يقل: " أين من سعى ونجد، وزخرف وشيد، وبنى وعدد ". ولو قال ذلك لكان كلاما مفهوما، ومن قائله مستقيما، وكان مع ذلك فاسد النظم، قبيح التأليف"[2].

لعل كلام ابن وهب في علاقة المشاكلة المعنوية يؤكد مقولة ليفاندوفسكي أن الحبك شرط لغوي يسهم في فهم السبك فهما أعمق. إذا كانت العلاقة بين " بنى وشيد" علاقة المشاكلة بين عنصرى عبارة، فلا وجود لمثل هذه المشاكلة إذا دخل في العبارة نفسها أحد هذين العنصرين مع آخر من عبارة أخرى. سوف يذهب السبك – على معنى جودة التأليف – إذا غاب الارتباط الدلالي بين المعطوف والمعطوف عليه. والتمييز في هذه الحال لا يكون بين كلام مفهم وآخر غير مفهم، ولكنه سيكون بين كلام مفهم وآخر مفهم مسبوك محبوك.

وكان ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) قد أطلق على مثال ابن وهب السابق اسم " المتناسب " . وفسره بإتباع كل لفظة ما يشاكلها ، وقرنها بما يشبهها"[3].

(هـ) ويقول أسامة بن منقذ (ت حوالى ٥٢٠ هـ): وأما السبك فهو أن يتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كقول زهير :

---

(١) ابن وهب (أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب) : البرهان في وجوه البيان، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، مطبعة جامعة بغداد، طبعة ط١ (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) ص ١٦٣

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٤

(٣) ابن رشيق (أبو علي الحسن) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ط ٤ (١٩٧٢م) ١ / ٣٤٨

يطعنهم ما ارتموا، حتى إذا طعنوا		ضارب، حتى إذا ما ضاربوا عتقا

ولهذا قال: خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض"[1].

هذا النص من النصوص المهمة في تعريف السبك. ولعل في كلام أسامة وفي شاهده ما يرجح استنباط اشتمال السبك عنده على التعلق النحوي والمعجمي معا. والسبك المعجمي هو – كما نعرف – النوع الأخير من أنواع السبك عند هاليداي. ولعل في قوله خير الكلام المحبوك المسبوك " ما ينبه إلى وعيه بأثر معياري الحبك والسبك بخاصة في صناعة الكلام أو النص، فضلا عما يمكن أن يلمح إليه تقديم الحبك من عناية واهتمام.

وتذكر ثنائية السبك والحبك عند أسامة بثنائية الجسم والروح عند ابن طباطبا. إذا كان السبك جسم الكلام فالحبك روحه. الجسم اللفظ والروح المعنى. اللفظ إتقان والمعنى إبداع. وواجب على صانع الكلام تحسين الجسم وتحقيق الروح. يقول ابن طباطبا: " فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه . . . فيحسنه جسما ويحققه روحا؛ أي يتقنه لفظا ويبدعه معنى "[2].

(و) ويعبر ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) عن فكرة المشاكلة عند أبي هلال أو التناسب عند ابن رشيق، باسم " المؤاخاة بين المعاني ". ولا شك أن المشاكلة والتناسب والمؤاخاة عند هؤلاء جميعا، إنما هي مظاهر للحبك في مصطلح أسامة. ما معنى المؤاخاة بين المعاني عند ابن الأثير؟ يقول ابن الأثير: " أما المؤاخاة بين المعاني، فهو أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي. مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به. فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة، وإن كان جائزا. فمن ذلك قول الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة		وإن تكامل فيها الدل والشنب

---

(١) ... معد (...) المنهج في نقد الشعر، تحقيق د. أحمد بدوي و د. حامد عبد المجيد، مراجعة إبراهيم مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت، ص ١٦٣
(٢) عيار الشعر، مرجع سابق، ص ٢٠٣

[illegible]

غير أن الذي يذكر مع المدح وما يشبهه والنسيب يذكر مع الغزل وما يشبهه، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مظنة الغلط؛ لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق، بحيث توضع المعاني مع أخواتها لا مع الأجنبي منها "(1).

وقد عاب ابن الأثير على بعض الشعراء تباعدهم في القول وأنهم لا يراعون المؤاخاة بين المعاني. لاحظ ابن الأثير أن أبا نواس " يقع في ذلك كثيرا "(2). من ذلك مثلا قول أبي نواس في وصف الديك:

له اعتدال وانتصاب قد وجلده يشبه وشي البرد

كأنه الهداب في الفرند محدودب الظهر كريم الجد

قال ابن الأثير: " فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد، وهذا لا يناسب هذا؛ لأن الظهر من جملة الخلق، والجد من النسب. وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويؤاخيه "(3). لم تطرد لأبي نواس القضية المذكورة في البيت، ولم يحسن أن يربط بين عناصرها؛ فأفسد مبدأ انتظام المعنى الذي هو قوام الحبك في نظرية النص المعاصرة والذي سبق إليه ابن طباطبا في عياره.

وقد نظر ابن الأثير – في موضع آخر – إلى ما أسماه بـ " الملاءمة " و " المناسبة " من منظور مقابلة الجملة بالجملة. والمقابلة فن بديعي يقوم على علاقة دلالية بين المنطوقات هي علاقة " التقابل ". ضرب ابن الأثير على ذلك مثلا من الشعر قول أبي الطيب:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال ابن الأثير: " وقد أوخذ على ذلك، وقيل: لو جعل آخر البيت الأول آخرا للبيت الثاني وآخر البيت الثاني آخرا للبيت الأول لكان أولى.

---

(1) ابن الأثير (ضياء الدين): المثل السائر، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة د. ت ٣/ ١٤٤، [illegible]

(2) المرجع السابق ٣/ ١٤٤

(3) المرجع نفسه ٣/ ١٥٥، [illegible] ٢/ ١٥٤ - ١٤٦

ولذلك حكاية، وهي أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها: " على قدر أهل العزم تأتي العزائم ". فلما بلغ إلى هذين البيتين قال: قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كأني لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل ... لخيلي كري كرة بعد إجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس، وكان ينبغي لك أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك في جفن الردى وهو

فقال المتنبي: إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله، وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف الشجاعة في منازلة الأعداء. وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره؛ ليكون أحسن تلاؤما. ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية، قلت: ووجهك وضاح وثغرك باسم؛ لأجمع بين الأضداد " [1].

والحق أن تأمل شعر أبي الطيب يدلنا على أن أحدا من الشعراء لم يبلغ في الجمع بين الأضداد مبلغه على الإطلاق. ولعله فنه الأول الذي يقود – مع فنون أخرى – إلى القول بتميزه بإحساس عال في رعاية الموقف. على أن الذي يعنينا هنا أن الحكاية السابقة تبرهن على أن ملاحظة المواءمة المعنوية بين المنطوقات والمفاهيم تحوج إلى تأمل وإرهاف فكر. وقد بلغ أمر المواءمة في إطار تقابل المعاني عند ابن الأثير مبلغا حدا به إلى أن يقول: " وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر منه نفعا ولا أعظم فائدة " [2].

فضلا عما سبق، فإن أكثر ما استنبطه البلاغيون من كلام العرب من

---

(1) المثل السائر ٣/ ١٦٥ - ١٦٦.
(2) المرجع السابق ٣/ ١٦٤.

فنون "البديع" المتعلقة بالمعنى، إنما تظهر علاقات دلالية مختلفة بين المنطوقات والمفاهيم، يتحقق عن طريقها الحبك. يدل التفريق وجمع المؤتلف والمختلف على علاقة المقارنة، ويدل الرجوع والمقابلة والعكس والتبديل على علاقة التقابل ويدل التفسير والتقسيم واللف والنشر على علاقة التبعية في هيئة: الإجمال – التفصيل، ويدل الاستشهاد والاحتجاج عل علاقة منطقية في هيئة: الشرط – الجواب . . . الخ. سبق دكتور جميل عبد المجيد إلى محاولة ربط الفنون البديعية المعنوية بالعلاقات الدلالية التي تناسبها عند يوجين نايدا Eugene Nida في بحثه: " العلاقات الدلالية بين الأبنية النووية Semantic Relations between Nuclear Structures "[1].

ولكن فانه عدد غير قليل من تلك الفنون البديعية المعنوية التي نرى لها اثرا مباشرا في تحقيق الحبك بين منطوقين أو أكثر: كالسلب والإيجاب، والاستشهاد والاحتجاج.

السلب والإيجاب أن تبنى الكلام على نفس الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى أو الأمر به في جهة والنهي عنه في جهة ، وما يجري مجرى ذلك؛ كقوله تعالى: +فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا" (الإسراء:٢٣) ومثاله من النثر قول الشعبي للحجاج: " لا تعجب من المخطيء كيف أخطأ ، واعجب من المصيب كيف أصاب "[2].

يظهر السلب والإيجاب علاقة دلالية ثنائية تقابلية. أما الاستشهاد والاحتجاج، فان تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته. من شواهده الشعرية عند أبي هلال قول الشاعر:

إنمــا يعــشق المنايــا مــن الأقـــ	ـــوام مــن كــان عاشــقا للمعــالي
وكــذاك الرمــاح أول مــا يكــ	ـــره منهن في الحــروب العــوالي[3]

---

(1) راجع: جميل عبد المجيد (دكتور): البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م، ص ١٤٣ وما بعدها.

(2) كتاب الصناعتين، ص ٤٠٤

(3) المرجع نفسه، ص ٤

وقد سبقت الإشارة إلى أن الاستشهاد والاحتجاج ينبغي له أن يكشف عن علاقة دلالية رابطة ثنائية قائمة على المقارنة.

حصيلة ما سبق أن القدماء – في إطار مبحث صناعة الكلام ونحوه – قد برهنوا على مكانة خاصيتي السبك والحبك اللغويتين. خير الكلام عندهم المسبوك المحبوك. تجاوزت هذه المقولة حد النظر إلى التطبيق. أسوق مثالا على ذلك ما انتهى إليه الآمدي (ت٣٧٠هـ) في إطار وقوفه على خطاب شاعري موازنته أبي تمام (ت٢٣١ هـ) والبحتري (ت٢٨٤هـ). يقول الآمدي: "وإذا جاء لطيف المعاني في غير ملاءمة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن، كان ذلك مثل الطراز الجديد على الثوب الخلق، أو نفث العبير على خد الجارية القبيحة الوجه"[1].

دل القدماء على خاصية الحبك اختصارا ، ولكنهم أفاضوا – إلى حد ما – فيما يعد من مظاهره. أخص بالذكر هنا مظهر التجانس ومظهر انتظام المعاني. عبروا عن التجانس بين عناصر المنطوق الواحد أو بين المنطوقين المتواليين بمفاهيم عدة كالمشاكلة والمواءمة والتناسب والمؤاخاة وغيرها. وأما المظهر الآخر فقد عبروا عنه بانتظام المعاني واتصال الكلام على نحو ما رأينا عند ابن طباطبا.

يمكن أن نجد لمبدأ انتظام المعاني صدى في تحليل الخطاب الشعري عند الآمدي أيضا. أضرب مثالا على ذلك بما قاله عن هذا المطلع للبحتري :

هب الدار ردت رجع ما أنت سائله

وأبدي الجواب الربع عما تسائله

قال الآمدي: " وهذا بيت غير جيد؛ لأن عجز البيت مثل صدره سواء في المعنى، وكأنه بني الأمر على أن الدار غير الربع، وأن السؤال إن وقع في محلين اثنين"[2]. لم ينتظم المعنى فيما سبق، ولم يتصل الكلام في العجز والصدر اتصالا يدفع إلى توالي المعلومات وتسلسلها والانتقال من مذكور إلى جديد ، إنما سكن المعنى على المصراع الأول.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ما يكون للشعر بمنطق وتميز، المصادفة. ثم وقفوا عند في تعريفه من شروط القول البليغ وبه شيئان ما ينبغي توفره من معايير لغوية ... في صناعة الكلام.

وقد عرض القدماء تلك المفاهيم من خلال نماذج استعمال لغوي حقيقي. وإن ظل الشعر بخيالهم – كلما وقفوا على مفهوم – أكثر من فنون النثر الأخرى. ومهما يكن من أمر، فإن حيز التحليل لم يجاوز غالبا المنطوقين أو البيتين من الشعر. ولا تكتمل منظوراتهم إلا بما نراه أهم من ذلك؛ وهو ما عرضوه من آراء وتبصرات عن بنية النص من منظور الحبك الدلالي، فضلا عما كشفوا عنه من مظهر للحبك لا نري مثيلا له في النظرية اللغوية المعاصرة: وهو الكشف عن العلاقات الدلالية بين النصين المتواليين في مدونة كبرى من منظور التناسب المعنوي.

٣ – بنية النص من منظور الحبك :

كان باب " المبدأ والخروج والنهاية " – في إحدى تسمياته – حقلا خصبا نمت فيه تصورا تهم عن مواصفات البناء الموضوعي النموذجي لنص محبوك دلاليا، من حيث إن النص وحدة من اللغة في حال الاستعمال.

كان القدماء قد عرضوا لفكرة استقلال البيت في النص الشعري استقلالا معنويا. يفسر ابن الأثير مثلا هذه الفكرة في ارتباطها بالنفس تفسيرا فسيولوجيا على النحو التالي: " لما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه، احتيج إلى أن يكون الفصل في المعني " (١)

ويشير ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) إلى استقلال البيت في النص بالإفادة مع رعاية مبدأ التناسب في الوقت عينه قائلا: "وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبله وعما بعده. وإذا أفرد كان تاما في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك في البيت ما يستقل في إفادته، ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك " (٢)

[illegible]

[illegible]

حقيقة الأمر هنا ينبغي أن تكون استقلال البيت عن غيره من حيث هو وحدة تركيبية ومعنوية، له كيانه الخاص، ولكنه الكيان الخاص الذي يتصل بما قبله وما بعده – داخل وحدة النص العامة أو وحدة المقطع من النص على الأقل – اتصال الجزء بالكل. يؤكد ذلك على مستوى النظر رؤية ابن خلدون نفسه القصيدة سلسلة متصلة تبنى فيها المقاصد والمعاني على التناسب: " ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود، بأن يوطىء المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثاني، ويبعد الكلام عن التنافر "[1].

في تحليل بنية النص من منظور الحبك (أو التناسب) وقف القدماء على الابتداء والتخلص والانتهاء من حيث هي مؤشرات بنائية خاصة في نسيج النص الشعري والنثري جميعاً.

وقد زادوا على ذلك اختبار مدى رعاية التناسب بين وحدات النص المختلفة في هيئة المقاطع أو ما سمي بالفواصل، فضلاً عن رعاية التناسب بين أبيات الفصل الواحد.

وقد رأيت أن أفرد لمعيار التناسب عند حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) منظوراً إليه من خلال بنية النص الشعري الكامل – جزءاً خاصاً من هذه الدراسة؛ وذلك أن آراءه ومنظوراته إلى ذلك المعيار يرتبط بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً، لاسيما أن الأمر عنده قد تجاوز الملاحظة والوصف العاجلين إلى التقنين والتأصيل النظري المتأني.

(أ) بنية النص من منظور الحبك قبل حازم :

يعنينا هنا أمران اثنان: أحدهما معرفة الشروط التي أوجب القدماء توفرها في كل من الابتداء والتخلص والانتهاء، لاسيما ما يتصل منها بالمعنى. والأمر الآخر هو محاولة استخلاص المبادىء الجوهرية التي وجهت علاقة كل من الابتداء والتخلص والانتهاء بسائر أجزاء النص تحقيقاً للترابط للنص فيما بينه وإيجاد العلاقات المنطقية التي تبني وحدته الدلالية.

---

[1] [illegible]

١ - الابتداء :

هو "الابتداء والمبدأ والمبتدأ والفاتحة والافتتاح والمفتتح والاستفتاح والمقدمة والتصدير والمطلع والاستهلال. لعل أقدم الإشارات إلى بلاغة الابتداء ما أورده الجاحظ عن عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢هـ) وشبيب بن شيبة. جعل ابن المقفع البلاغة اسما جامعا لمعان تجري في وجوه كثيرة وذكر من هذه الوجوه " ما يكون في الابتداء " [(١)]. وروى الجاحظ عن شبيب قوله: " الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة المطلع وبمدح صاحبه " [(٢)]. ولعل إشارة الجاحظ إلى العلاقة بين " دقة المدخل " و "إظهار المعنى " [(٣)] أولى بأن تنصرف إلى الابتداء.

الابتداء هو الوحدة البنائية الأولى من النص. وهي وحدة سمعية ومعنوية تفتح للخطاب قناة الاتصال. إذا كان الشعر قفل، فأوله - كما يقول ابن رشيق - مفتاحه. وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره: فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة [(٤)]. عرف هذه الحقيقة منتجو النصوص ومحللوها جميعاً. وليس كلام ابن شيبة السابق مما يحمل على مقصد إضعاف شأن الابتداء، لكنه ميل خاص به إلى مؤشر بنائي آخر من الكلام يرى له شأنا أخطر. لقد عرف ابن شيبة نفسه - كما يخبرنا الجاحظ - بحلاوة الابتداء ورشاقته وسهولته وعذوبته [(٥)].

كان حسن الابتداء من معايير تحليل النص الأدبي عند القدماء. بحسن الابتداء يتمايز الشعراء. شهر شعراء كثيرون به، من طليعتهم أبو الطيب وأبو تمام وأبو نواس والبحتري. يرى ابن رشيق أن جودة الابتداء من أجل محاسن أبي الطيب وأشرف مآثر شعره [(٦)]. ويطلب القاضي الجرجاني أن يغتفر لأبي الطيب ما عيب من ابتداءاته؛ لما له من ابتداءات كثيرة حسنة [(٧)].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٤ - ١١٦.

(٢) المرجع السابق ١/ ١١٢.

(٣) المرجع نفسه ١/ ٧٤.

(٤) العمدة ١/ ٢١٨.

(٥) البيان والتبيين ١/ ١١٢.

(٦) العمدة ١/ ٢٢٢.

(٧) الجرجاني، القاضي [illegible] الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية [illegible] ص ١٥٤ [illegible] ١٥٩.

السؤال الآن : ما شروط المبدأ المستحسن عند القدماء ؟. أشير إلى أن ما قرره القدماء نصا لا يأتي على جميع الشروط التي رغبوا في توفيرها في المبدأ. إذا كانت تلك الشروط ملفوظة، فهناك شروط أخري ملحوظة مما ضربوه من أمثلة وشواهد ينبغي لها أن تؤخذ في الحسبان. يتيح لنا الأمران أن نصنف تلك الشروط جميعا على النحو التالي :

(الشرط الأول) شرط الصياغة: ويقصد به حسن اختيار اللفظ وصحة السبك جميعا. وينبغي أن يضاف إلى شرط الصياغة اعتبارات أسلوبية أخري: مثل تجنب الحشو، وتجنب المعاظلة ونحوهما.

(الشرط الثاني) الشرط المعنوي: ويقصد به وضوح المعنى، وارتباط المبدأ بما بعده ودلالته عليه في الوقت نفسه. وسوف نفصل ذلك.

(الشرط الثالث) الشرط المقامي: ويقصد به – من خلال ملاحظاتهم المتفرقة – أمور عدة، نوجزها فيما يلي :

(أولا) رعاية حال المخاطب: فإذا خرج المبدأ عن ذلك المعيار كان معيبا. من أجل ذلك عيب مثلا مطلع قصيدة للبحتري في مدح أبي الحسن عبد الملك بن صالح الهاشمي، وهو قوله :

فؤاد ملاه الحزن حتي تصدعا

وعينان قال الشوق: جودا معًا معا معا

قال ضياء الدين بن الأثير: " وكذلك استقبح قول البحتري " فؤاد ملاه ... البيت " . فإن ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع. وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح "[1].

لا شك أن المخاطب كان قد هيأ نفسه في هذا الوقت أن يسمعه البحتري ما يروقه وما تسر به نفسه ، فلم يراع البحتري حاله، وفاجأه بما يناسب الرثاء من كلام عن فؤاد حزين وعينين تجودان بالدمع ا . وكان ابن رشيق قد التفت إلى زمن الخطاب وحال المخاطب وجعل رعاية الأمرين من الفطنة والحذق. يقول: " والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين، فيقصد محابهم ، ويميل إلي شهواتهم وإن خالفت شهوته،

---

(١) المثل السائر ٣ / ٩٩.

[illegible]

بتفقد ما يكرهون سماعه ، فيجتنب ذكره

(ثانيا) رعاية الدور الاجتماعي للمخاطب: وقد عبر ابن طباطبا عن هذا المعيار باشتراطه أن يعد المتكلم " لكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون الاستفادة من عقله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه"[٢].

(ثالثا) رعاية الموقف الخارجي: فإذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث، كفتح معقل أو هزيمة جيش ونحو ذلك، فإنه لا ينبغي للشاعر أن يبدأ فيها بغزل. وقد أصاب ابن الأثير حين ربط بين بدء الشاعر – في مثل هذه الحال – بالغزل وبين جهله بوضع الكلام في مواضعه"[٣]. ينصرف ذلك إلى معنى جهله تقدير الموقف الاتصالي الخارجي وما يناسبه من كلام .

السؤال الأهم الآن: ما المبادئ الجوهرية التي تستخلص من كلامهم عن علاقة المبدأ بما بعده والتي تتصل بخاصية الحبك النصي اتصالا مباشرا ؟

يمكن القول بأن القانون الدلالي الجوهري الذي يحكم علاقة المبدأ بما بعده هو ما عبر عنه ابن رشيق بقوله: " **أن يكون دالا على ما بعده** "[٤]. أجمل ابن رشيق القانون السابق إجمالا. وفي كلام ابن الأثير – في صدر فصله عن " المبادئ والافتتاحات " – ما نراه تفصيلا لذلك المجمل. يقول ابن الأثير: " **وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام: إن كان فتحا ففتح، وإن كان هناء فهناء، أو عزاء فعزاء. وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني. وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع** "[٥].

دلالة المبدأ على ما بعده تعني بالضرورة تحقق المناسبة المعنوية بينهما. وقف أبو القاسم الكلاعي (ت ٥٥٠هـ) على ملاحظة هذه المناسبة بين الرسائل وصدورها. عرض الكلاعي طائفة من صدور الرسائل التي شدها

---

(١) العمدة ١ / ٢٢٣

(٢) عيار الشعر ص ٩

(٣) المثل السائر ٣ / ٩٠ – ٩١

(٤) العمدة ١ / ٢١٠

(٥) المثل السائر ٣ / ١٠٠

التناسب إلى الإنباء عن المضمون وطبقة المخاطب نلحظ ذلك من تأمل الصدور التالية :

- أطال الله بقاء أمير المؤمنين (مخاطبة الأمراء).
- أما بعد، أحسن توفيقك، ونهج إلي الرشد طريقك (يكتب به عن الأمراء إلي من مرق عن الطاعة).
- سلام علي من اتبع الهدي وتجنب سبل الضلالة والهوى (يستفتح به عنهم إلي زعماء الروم).
- أمدك الله أيها الولي الأخص والخليل الأخص بالتقوى (يكتب به عنهم إلي القضاة والفقهاء).
- كتابنا، أمدك الله بتقواه (يكتب به عنهم إلي سائر العمال).
- يابني، ومن سلمه الله وأبقاه (يكتب به الأب إلي ولده).
- يا مولاي وجمال دنياي (يكتب به الولد إلي والده) [1].

ويري أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) أن من الحذق أن يشير المرسل في تحميده إلى الغرض من الرسالة: " وإذا كان المرسل حاذقا أشار في تحميده إلي ما جاء بالرسالة من أجله " [2]. والكلاعي علي رأي أبي الفتح[3]. وقد جرى مجراهما ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ). يرى ابن الأثير أن "المناسبة المعنوية" من أوكد أركان الكتابة. وقد أخذ علي أبي إسحق الصابي إخلاله كثيرا بهذا الركن: وذلك أنه يأتي بتحميده في الكتاب من الكتب السلطانية، لا تكون مناسبة لمعني ذلك الكتاب.

من أمثلة ابن الأثير علي ذلك ما كتبه أبو إسحق في ابتداء كتاب عن فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها، وكان فتحا عظيما: " الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، الوحيد الفريد، العلي المجيد، الذي لا يوصف إلا بسلب الصفات ولا ينعت إلا برفع النعوت، الأزلي بلا انتهاء . . . الخ ". قال ابن الأثير معقبا: " وهذه التحميده لا تناسب الكتاب الذي افتتح بها. ولكنها

---

(١) الكلاعي (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور): إحكام صنعة الكلام، حققه وقدم له د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٦١

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥

(٣) المرجع نفسه ص ٧٦

[illegible]

وقوف ابن الأثير علي مثال النموذج السابق دليل علي ندرة وقوعه. كان لمتداد بين كبار المنشئين رعاية المناسبة المعنوية بين الابتداء ومضمون الرسالة وعلي كل حال. فإن عناية أبي القاسم الكلاعي وابن الأثير بالنظر في إنشاء الرسائل من منظور المناسبة المعنوية، دليل عملي بين علي وعيهما بخاصية الحبك النصي. في مقابل نموذج أبي إسحق الصابي نري نماذج عدة عند الكلاعي وابن الأثير روعيت فيها المناسبة. من نماذج الكلاعي ابتداء رسالة لمحمد بن عبد الله أبي جعفر المشهور بابن عبد كان (ت ٢٧٠هـ) جمع فيها ذكر استقامة الحال بين أبي الحسن خمارويه (ت ٢٨٢هـ) وبين المعتضد أحمد بن طلحة الخليفة العباسي (ت ٢٨٩هـ)، وهو قوله: " الحمد لله مقلب القلوب، وعلام الغيوب، الجاعل بعد عسر يسرا ، وبعد تحارب اجتماعا "[١].

٢ – التخلص :

هو التخلص والخروج والتوسل. قال ابن رشيق: " ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً "[٢].

لعل التخلص أسبق من غيره استخداما. ولعل أقدم إشارة إلى التخلص ما جاء في كلام ثمامة بن أشرس (ت ٢١٣هـ): " ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتوقف، ولا يتلجلج ولا يتنحنح، ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معني قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتدارًا ولا أقل تكلفا ، من جعفر بن يحيي "[٣]. وجعفر بن يحيي هذا ، هو جعفر بن يحيي بن خالد البرمكي، من كبار البرامكة الذين قتلهم الرشيد. ويستنتج من ربط التخلص بالمتحدث عنه عموم التخلص في كل كلام. وأنه ليس وقفاً على الشعر. وإن عالجه أكثر القدماء من خلال نماذج شعرية.

أما اصطلاح " الخروج " فلعل أقدم اشارة ترجع إلى أبي العباس ثعلب

[illegible]

[illegible] في كتابه هو عند الشعر وقد تبعه في استخدام "الخروج" عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ) الذي جعل حسن الخروج من أنواع الالتفات. ومن شواهد حسن الخروج عند ابن المعتز قول أبي العتاهية:

واحببت من حبها الباخلين حتى ومقت ابن سلم سعيدا

إذا سيل عرفا كسا وجهه ثيابا من المنع صفرا وسودا [1].

رادف الخروج التخلص عند غير واحد من القدماء، ومنهم ابن طباطبا والقاضي الجرجاني. ولكن يحيي بن حمزة يستخدم التخلص، كما يستخدم أبو هلال وابن رشيق الخروج غالبا.

عرف التخلص في غير الشعر. وقع التخلص في النص القرآني. ممن عنوا بالتخلص في القرآن يحيي بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ). التخلص عنده " عبارة عن الخروج إلى المقصد المطلوب عقيب ما ذكره من قبل. ومثاله قوله تعالى من سورة المدثر: " يايها المدثر قم فانذر "، ثم تخلص بعد ذلك إلي ما هو المقصود بقوله: " ذرني ومن خلقت وحيدا ": فلما اتعظ الرسول بالأمر بالإنذار، عقبه بالوعيد الشديد للوليد بن المغيرة بقوله: " ذرني ومن خلقت وحيدا " إلى أخر الأيات. وهكذا في كل سورة تجده يتخلص إلى المقصود بأعجب خلاص " [2].

عنى أبو القاسم الكلاعي ببيان التخلص في الرسائل. أفرد الكلاعي بإحكامه فصلا بعنوان " في التخلص من الصدور إلى الغرض المذكور ". الرسالة – في رأيه – ابتداء خطاب أو رد جواب. مما توصلوا به من الألفاظ في ابتداء الخطاب إلى غرض الكتاب:

- قولهم " كتبت "، مثل: كتبت وقد هبت ريح النصر من مهبها، والأرض مشرقة بنور ربها ".
- أو " كتابي "، مثل: كتابي أطال الله بقاء الأمير، وبودي أن أكونه فاسعد به دونه "

---

(1) [illegible] ط٣ [illegible] ١٩٨٢ [illegible]

(2) [illegible]

ومما توصلوا به من الألفاظ في رد الجواب إلى غرض الكتاب :

◆ قولهم " ألقي " ، مثل : " إنه ألقي كتاب كريم ، عنوانه جسيم ... " .

◆ أو " وصل " ، مثل: " وصل – وصل الله سعده، وأثل مجده ! – كتابه الكريم"[1].

ارتبط التخلص في الشعر بطراز القصيدة المركبة، وهو الطراز الذي ألفه الذوق العربي، ومن ثم كانت هيمنته في الشعر العربي القديم. وكان القدماء على صوت واحد في استحسان التنويع في الأغراض في النص الشعري الواحد، منذ أن قال الجاحظ " متى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع " [2].

أفرزت القصيدة المركبة في الجاهلية قوالب لغوية للتخلص من غرض إلى غرض؛ نحو: " دع ذا " و " عد عن ذا ". وربما تركوا المعنى الأول ، وقالوا "وعيس " أو " وهوجاء " وما أشبه ذلك. وإذا أرادوا ذكر الممدوح قالوا: " إلى فلان " وأخذوا في مديحه. وربما تركوا المعنى الأول وأخذوا في الثاني من غير أن يستعملوا مثل تلك القوالب؛ وهو ما عرف باسم " الطفر " أو " الانقطاع " ، وهو ما ظل عند بعض العباسيين كالبحتري[3]. غير أن الموازنة بين الشعر العباسي وما قبله ، من حيث استعمال الخروج، تكشف عن صحة ما انتهى إليه ابن طباطبا وأبو هلال العسكري. لاحظ ابن طباطبا أن العباسيين قد " لطفوا القول في معنى التخلص إلى المعاني التي أرادوها " [4]. وكذلك لاحظ أبو هلال أن الخروج المتصل بما قبله كان قليلاً قبل شعراء العصر العباسي، ولكن العباسيين قد أكثروا من الخروج المتصل[5].

السؤال المهم الآن؛ ما القانون الدلالي الذي يحكم التخلص تحقيقاً لخاصية الحبك النصي ؟.

لعل ابن طباطبا خير من وضع يده على هذا القانون من القدماء قبل حازم.

---

(1) إحكام صنعة الكلام ص ٧٨ - ٧٩

(2) البيان والتبيين ١/ ٢٠٦

(3) راجع العمدة ١/ ٢٣٩

(4) عيار الشعر ص ١٨٧

(5) كتاب الصناعتين ص ٤٥٣ - ٤٥٤

ويمكن اختصاره فيما يلي

- " أن يصل المتكلم كلامه صلة لطيفة ". وبيان ذلك عند ابن طباطبا في موضعين من عبارة يقول ابن طباطبا في الموضع الأول، وهو من باب " بناء القصيدة ": " ويسلك (يعني الشاعر) منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم: فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر أن يصل كلامه – على تصرفه في فنونه – صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماحة، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافي والنوق . . . بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلا به وممتزجا معه "[1].

أما الموضع الثاني، فيقول فيه: " ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا؛ حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا . . . لا تناقض في معانيها، ولا وهي في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها "[2].

من كلام ابن طباطبا في الموضعين السابقين يمكن أن نلاحظ ما يلي :

١- أن قياس فصول الشعر على فصول الرسائل، يعني النظر إلى تعدد الأغراض بالقصيدة المركبة كتعدد محاور الخطاب بالرسالة. ولكن الذي يبدو لنا أن تعدد محاور الخطاب بالرسالة من تحميد إلى دعاء إلى أمر بفعل شيء . . . الخ، ليس كتعدده في القصيدة المركبة ، التلاحق بين المقاصد في الرسالة أشد قوة منه بين الأغراض في القصيدة المركبة. ولعل تقاليد النظم قد جعلت تعدد الأغراض على النحو الذي نعرفه أمرا مألوفا بين المرسلين والمستقبلين جميعا. من ناحية أخرى، جعلت تلك التقاليد لتوالي الأغراض – في الوقت نفسه – نظاما لا يخرج عنه الشاعر عادة[3]، وهو نظام نري له وجها

---

(١) عيار الشعر ص ٩

(٢) المرجع السابق ص ٢١٣

(٣) مما لاحظه ابن رشيق من خروج أبي تمام في قصيدة له وسط النسيب إلى مدح ، ثم عودته إلى ما كان فيه من النسيب ، ثم رجوعه إلى المدح ، [illegible] ، ولم يكن من مذهب العرب المشهورة . (راجع العمدة ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩)

من [illegible] حينما يوضح [illegible] في الظروف العادية [illegible] تنشط به النص لسماعه، أو حينما يخرج من مدحه إلى استماحته عذرا فيما وشى به الواشون . . . الخ. هذه وجوه للمناسبة، أفسحت لها تقاليد النظم عند العرب مجالا للقبول. نرى كثيرا من الشعراء يخرجون في قصائدهم المركبة من الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف. ولكننا لم نسمع بشاعر خرج مثلا من الافتخار إلى وصف الجنادب والحرابي. مازال هنالك نظام يجمل بين توالي الأغراض وجوها للمناسبة.

ومهما يكن من أمر، فإن قياس الشعر على الرسائل، يعني أن التخلص غير مرتبط بجنس أدبي دون غيره: هو عام في كل كلام، مادامت الحاجة فيه إلى أكثر من فصل: شعرا أو رسالة أو غيرهما. القصيدة في كلام ابن طباطبا إذا نموذج على كل نص. المهم حسن التصرف ولطف الصلة بين اجزائه، حتى لا تؤدى إلى خطاب مفكك الأوصال مبنى ومعنى.

٢- يفهم محمد خطابي كلمة " المعنى " في كلام ابن طباطبا على أنها تعني "الغرض" أو " الفن " ؛ يقول: " على أن المعنى هنا ينبغي أن يفهم في سياقه. إذ المقصود به، في نظرنا، الغرض أو الفن، مادام الحديث متمركزا هنا على اتصال فصول القصيدة "(١٣).

والحق أن ابن طباطبا نفسه قد ذكر – في نصه الأول – كلمة " فن " صراحة. وسياق كلامه كاملاً يجعل " المعنى " عنده مقصوداً به الغرض أو الفرع من فروعه؛ وذلك أن التخلص من غزل إلى مديح تخلص من غرض إلى غرض، ولكن التخلص من وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافي والنوق هو تخلص من فرع لغرض الوصف إلى فرع آخر.

٣ - إذا كانت وظيفة التخلص الأولية وظيفة معنوية: هي حبك معنى بمعنى أو غرض بغرض، فقد لمح ابن طباطبا للتخلص وظيفة بنائية: هي أن يصل منطوق التخلص بين بيت وبيت. في ضوء ذلك نفهم كلامه عن دور التخلص في الحصول على قصيدة (وبالتالي أي نص) مفرغة إفراغاً، خال نسجها من التكلف. من ناحية أخرى، فإن كلامه عن قصيدة خال نسجها من التكلف، تقتضي كل كلمة منها ما بعدها، وتتعلق ما بعدها بها: إنما

---

(١٣) محمد خطابي، لسانيات النص، [illegible] الدار البيضاء، ط١ (١٩٩١م) ص ١١٢

[illegible] كلامه عليه [illegible] لطف التخلص الحقيقي ليس في لطفه في ذاته فحسب، إنما ينبغي للشاعر (وبالتالي لكل متكلم) أن يتلطف في جعل ما قبل التخلص مناسباً معنوياً لما بعده بوجه من الوجوه.

وربما ناسب الشاعر بين ما قبل التخلص وما بعده، ولكن التخلص ذاته يبدو معيباً. من ذلك التخلص التالي في قول أبي الطيب :

ما فا نظري أو فظني بي ترى حرقا ... من لم يذق طرفا منها فقد وألا
علّ الأمير يرى ذلي فيشفع لي ... إلى التي تركتني في الهوى مثلا [1]

قال ابن رشيق: " فقد تمنى أن يكون له الأمير قوادا " [2]. قال أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) في شرحه: " ووجه تشفعه إليها أن يصل جناحه بما يصل به إلى المراد بها، ويحظى عندها لمكانه منها " [3]. وفي تأويل أبي العلاء تلطيف لا يستطيع ردا لإساءة أبي الطيب خطاب ممدوحه. وكان أبو الطيب زمن نظم هذه القصيدة صبيا !

وكذلك جعل القاضي الجرجاني من تخلصات أبي الطيب المستكرهة قوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم ... إلى سعيد بن عبد الله بعرانا [4]

التخلص في الموضعين السابقين معيب في ذاته. وهو معيب في ذاته مقاميا؛ لأنه خرج عما يليق بخطاب الممدوحين. وإذا كان التخلص في الموضعين وصل ما قبله بما بعده على سبيل الحبك بين معنيين أو غرضين انتقل الشاعر من أحدهما إلى الآخر، فلم تكن – للعلة الماضية – صلة لطيفة.

٣ - الانتهاء :

أوجب أبو هلال العسكري في الانتهاء أو بيت الخاتمة أن يكون أجود بيت في القصيدة؛ يقول: " فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها، وادخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها؛ كما فعل ابن الزبعري في

---

(1) المعري (أبو [illegible]): شرح ديوان أبي الطيب [illegible] معجز أحمد، تحقيق ودراسة دكتور عبد المجيد دياب، دار المعارف، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ١/ ٦١-٦٢ [illegible]

(2) العمدة ١/ ٢٣٥

(3) شرح ديوان أبي الطيب ١/ [illegible]

(4) [illegible] ١٤١ [illegible] شرح ديوان أبي الطيب ٤/ ٢٩٢

[illegible]

[illegible] قصيدة يعتذر فيها من النبي ﷺ ويستعطفه

فعد الفضيلة عن ذنوب قد خلت   واقبل تضرع مستضيف تائب

فجعل نفسه مستضيفا، ومن حق المستضيف أن يضاف. وإذا أضيف فمن حقه أن يصان. وذكر تضرعه وتوبته مما سلف. وجعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة: فجمع في هذا البيت جميع ما يحتاج إليه في طلب العفو "[1].

أما ابن رشيق ، فقد وصف الانتهاء بأنه " قاعدة القصيدة "[2]. وبالقياس يكون الانتهاء قاعدة كل كلام من شعر أو غيره . وينبغي لمفهوم " القاعدة " هنا أن يكون مفهوما دلاليا؛ وذلك أن النص لا قاعدة له مالم يتقدم هذه القاعدة من المنطوقات والمفاهيم وأجزاء المعاني التي تربط بينها العلاقات الدلالية المختلفة، حتى تقر على قاعدة النص. ومن ثم، يصبح اشتراط ابن رشيق في الانتهاء " أن يكون محكما "[3]. اشتراطا ضبيهما. شرح ابن رشيق معنى " الانتهاء المحكم " بقوله: " لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه. وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه "[4].

الابتداء له ما بعده ، أما الانتهاء فليس بعده شيء. الإحكام في موضع الانتهاء يؤدي بالضرورة إلى توفر خاصية الحبك بين منطوقاته وما قبله. هو إحكام معناه بما يكون نتيجة لما قبله وتدعيما له ولمقصد النص الكلي في آن معا؛ وذلك أن القاعدة لا تكون قاعدة إلا إذا كانت مرتبطة بما فوقها ارتباطا دلاليا بعلاقة ما ، وهي غالبا علاقة السبب – النتيجة .

وربما صنع المتكلم الانتهاء مراعيا سياق الاتصال الخارجي أشد من مراعاته سياق النص اللغوي الداخلي. من ذلك مثلا معلقة امرىء القيس التي ختمها بوصف السيل وشدة المطر :

كأن السباع فيه غرقى غدية   بأرجائه القصوى أنابيش عنصل [5]

---

[1] [illegible] ص ٤٤٣
[2] [illegible] ٢٣٩
[3] [illegible] ٢٣٩
[4] [illegible] ٢٣٩
[5] [illegible]

[illegible]

[illegible] التي هي معقودة به وحده، وليست قطعا على معنى تؤول إليه سائر الأبيات قبلها

بناء على ما تقدم، يكون القانون الذي ارتضاه القدماء حكما لجودة الانتهاء هو

- ".." أن يكون الانتهاء قاعدة النص ".."

وذلك على معنى أن يكون أدخل في مقصده، وأن يكون قطعا ينتهي إليه ما قبله ويدعم هو ما قبله في آن معا.

(ب) بنية النص من منظور الحبك عند حازم :

في معنى ما يكون بين المنطوقات المتوالية أو أجزاء النص الواحد من أشكال الترابط المضموني، يستخدم حازم (ت ٦٨٤هـ) مفاهيم عدة: كالتناسب والاقتران والالتئام تمثل هذه المفاهيم – مع طائفة أخرى من الأفكار المتفرقة – إضاءات معرفية مهمة في فهم منظورات حازم إلى بنية النص من جهة الحبك يمكن أن نجمل تلك المفاهيم والأفكار الأولية – وفاق خطة الدراسة – على النحو التالي :

١ - "للأغراض "أجناس" أول، من ذلك الارتياح والاكتراث وما تركب منهما: نحو إشراب الارتياح الاكتراث أو العكس. وتحت هذه الأجناس الأول "أنواع" كالاستغراب والاعتبار، والرضا والغضب، والنزاع والنزوع، والخوف والرجاء. وتحت هذه الأنواع "أنواع" كالمدح، والنسيب، والتذكرات، وأنواع المشاجرات، وما جرى مجراها من المقاصد الشعرية"[1].

ينتهي حازم من ذلك إلى أن حسن التصرف في المعاني يوجب على المتكلم أن يعرف "وجوه انتساب" بعضها إلى بعض. لكل معنى من تلك المعاني معنى أو معان تناسبه وتقاربه. ولكل معنى معنى أو معان تضاده وتخالفه. وللمضاد معنى أو معان تناسبه"[2].

٢ - لاقتران المعاني بعضها ببعض وجعل بعضها بإزاء بعض أنواع خمسة:

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(الأول) اقتران التماثل: وهو أن تتخاطر بين موقع المعنى في هذا الحيز وموقعه في الحيز الآخر.

(الثاني) اقتران المناسبة: وهو اقتران المعنى بما يناسبه.

(الثالث) المطابقة أو المقابلة: وذلك باقتران المعنى بمضاده.

(الرابع) المخالفة: وذلك باقتران الشيء بما يناسب مضاده.

(الخامس) تشافع الحقيقة والمجاز: وذلك باقتران الشيء بما يشبهه، بأن يستعار اسم أحدهما للآخر[1].

تقع أنواع الاقتران السابقة – ويسميها حازم أيضا باسم "جهات التعلق" – بين معنيين كلاهما "عمدة" في الكلام، كما يقع الاقتران بين معنيين أحدهما "عمدة" والآخر "فضلة" أو كالفضلة، من أجل التتميم وتحقيق صحة مفهوم أحدهما ببيان الصحة في مفهوم الآخر؛ كان تقول: العفاف فضيلة كما أن الفسوق رذيلة[2].

٣ - ينبغي للشاعر – حتى يكمل له القول على الوجه المختار – أن يتمتع بقوى ثلاث:

(الأولى) القوة الحافظة: وذلك أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازا بعضها عن بعض. والقوة الحافظة هي التي تزود الشاعر بالخيال الذي يليق بكل غرض يريد أن يقول فيه من نسيب ومديح وغيرهما.

(الثانية) القوة المائزة: وهي القوة التي يميز بها الشاعر بين ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك، وما يصح مما لا يصح.

(الثالثة) القوة الصانعة: وهي القوة التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتراكيب إلى بعض والتدرج من بعضها إلي بعض. وعلى الجملة هي القوة التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات صناعة الشعر.

إذا جمع الشاعر بين هذه القوى جميعا كان متمتعا بـ "الطبع الجيد" في تلك الصناعة[3].

٤ - يحدد حازم قوى فكرية عشرا تتحقق بها مقاصد النظم وأغراضه.

---

(١) منهاج البلغاء ص ١٤

(٢) المرجع السابق ص ١٥

(٣) المرجع السابق ص ١٣

[illegible]

[illegible] تلك القوى إلى [illegible] القوى الذاتية

(الأولى) القوة على تصور كليات الشعر، والمقاصد الواقعة فيها، [illegible] المعاني الواقعة في هذه المقاصد. وذلك حتى يتوصل الشاعر إلى اختيار ما يجب من القوافي، وبناء فصول القصائد على ما يجب

(الثانية) القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن، وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعاني والأبيات والفصول من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمتها في حاجة إلى شيء من ذلك.

(الثالثة) القوة على ملاحظة الوجوه التي بها يقع التناسب بين المعاني وإيقاع تلك النسب بينها.

(الرابعة) القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض، ووصل الأبيات بعضها ببعض، وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التي لا تنبو عنها النفس

يكشف تصنيف حازم المقاصد الشعرية إلى أجناس عليا وفروع سعة أفقه التصوري. ولا شك أن المعرفة النظرية الأولية بتلك الأجناس والفروع سوف تعد أداة لاختيار مدى ضبط العلاقات بين المعاني والأغراض عند ممارسة القول الشعري. وسوف تترك هذه المعرفة آثارها في بناء النص وتنظيم العلاقات والنسب بين أجزائه. وليست جهات التعليق أو علاقات الاقتران عنده إلا علاقات حبك بين المنطوقات، تصلح للخروج عن ذلك إلى أن تصير ضروبا لعلاقات حبك فصول النص الشعري الكامل، لا سيما في النصوص الشعرية غير المركبة والتي تبنى معنويا على أنواع الأجناس الأولى عنده؛ كالرضا والغضب، والخوف والرجاء ونحوها.

أما كلام حازم عن القوى الثلاث التي يكمل بها القول للشاعر (وبصفة أعم كل متكلم)، فهو أدنى شيء إلى ثلاثية الكفاءة في النظرية اللغوية المعاصرة: القوة الحافظة عنده تضاهي الكفاءة اللغوية التي تعني ما يعرفه متكلم اللغة الأصلي عن لغته وما يختزنه في عقله منها وقدرته على استعمالها، والقوة المائزة عنده تضاهي الكفاءة التداولية التي تعني قدرة صانع

[illegible] على [illegible] نفسه بالمواقف والسبقات، وقدرته على جعل منطوقاته ممتثلة [illegible] الكامنة أي جعل منطوقاته مناسبة وظيفيا وموقفيا لسياق الاتصال والقوة الصانعة عنده تضاهي الكفاءة الموضوعية التي تعني قدرة صانع النص على تعيين ما يريد أن يصل إليه عند متلقيه، وقدرته على تنسيق أجزاء النص والربط بينها[1]. وليست القوى الفكرية الأربع التي اصطفيناها من جملة القوي الفكرية العشر عنده إلا تبيانا وتفصيلا للقوة الصانعة أو الكفاءة الموضوعية.

سبق حازما إلى الكلام عن آلات الكتابة والنظم آخرون[2]، ولكن حازما وضع يده على تصنيف جامع لما تفرق عند سابقيه مميزا بالوصف وتعيين الوظيفة بين قوة وأخرى من قوى القول، حتى يصير تصنيفه الثلاثي هذا من الأسس الإجرائية النظرية التي نرى لها صلاحية لأن تتخذ في وصف إنتاج النصوص وتخطيطها.

ومهما يكن من أمر، فقد استفرغ حازم جهده في منهاجه لتحليل بنية النص وشروط الإبداع في صناعته. وفيما يلي التفصيل :

١ - قوانين الابتداء والتخلص والانتهاء :

أ / ١ - الابتداء :

ينبغي الإشارة إلى أن ما أسماه حازم بـ " شروط الإبداع في المبادئ " لا يكاد يزيد عما اشترطه سابقوه، سواء ما يرجع إلى اللفظ أو المعني أو النظم أو الأسلوب[3]. على أن الذي ينبغي لنا ملاحظته في مبحث الابتداء أن الشرط المقامي عنده قد اتخذ هيئة المناسبة بين اللغة المستخدمة ومقصد المتكلم، ولم يعرض لملابسات الخطاب وأحوال المخاطبين. يقول حازم: " ملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم من جميع جهاته: إذا كان مقصده الفخر، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم. وإذا كان المقصد النسيب، كان

---

(١) نظر في تفصيل أنواع الكفاءة الثلاثة الفصل الأول ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) انظر مثلا كتاب الصناعتين ص ١٣٣ وما بعدها وص ٤٤ وما بعدها والعمدة ١ / ١٩٠ - ١٩٩.

(٣) منهاج البلغاء ص ٣٠٩

نوحه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعدوبة من جميع ذلك. وكذلك سائر المقاصد

سبق آخرون حازما في اشتراط ذلك، وفي جعل المناسبة بين المقصد واللغة أول ما يحتاجه الشاعر من معرفة مقامات الكلام. أضرب مثالاً على ذلك من رشيق (ت ٤٥٦هـ). يقول ابن رشيق: " فأول ما يحتاج إليه الشاعر .. حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول: فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع . ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان: ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه. فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس، وبه تفاضلوا "[2].

أما القانون الذي يحكم الابتداء عند حازم ، فهو أن " يجعل (يعني الشاعر) مبدأ كلامه دالا على مقصده، ويفتتح القول بما هو عمدة في غرضه "[3]. ولا يختلف الجزء الأول من قانونه عما نص عليه سابقوه. أما الجزء الثاني، ففيه تنويه بافتتاح القول بما هو أدخل في الغرض منه.

إضافة حازم الحقيقية في تحليل المبادئ في عنايته بمعيار المناسبة، وفي بنائه ترتيب المبادئ على ما أسماه بـ " التناصر " :

١ - معيار المناسبة: يقول حازم: " وإذا لم يكن البيت الثاني مناسبا للأول في حسنه، غض ذلك من بهاء المبدأ وحسن الطليعة، وخصوصا إذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب، وذلك نحو قول أبي الطيب المتنبي :

أتراهـا لكثـرة العـشاق ... تحسب الدمع خلقة في المآقي

كيف ترثي التي رأت كل جفن ... رآهـا غـير جفنهـا غـير راق"[4]

الأحرى أن نرى المناسبة – في هذا السياق – مبدأ تنظيميا: وذلك أنه

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٠

(٢) العمدة ١/ ١٩٩

(٣) المنهاج ص ٣٠٦

(٤) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/ ١٨٠ [illegible]

ينظم بنية النص اللفظية والمعنوية: أي أن المناسبة هنا تعني الربط الشكلي والمضموني جميعاً.

٢ - فكرة التناصر: اتخذ حازم فكرة التناصر أساساً بني عليه ترتيبه المبادئ إلى رتب ثلاث:

- فأحسن المبادئ ما تناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثاني (ويلحظ حازم أن هذه الرتبة عند " المحدثين " - بمفهوم العصر - أكثر من " العرب المتقدمين " الذين لم يكن لهم بتشفيع البيت الأول بالثاني كبير عناية).

- والرتبة الثانية: أن يتناصر الحسن في المصراعين دون البيت الثاني.

- والرتبة الثالثة: أن يكون المصراع الأول كامل الحسن، ولا يكون المصراع الثاني منافراً له، وإن لم يكن مثله في الحسن (ومثل هذا - فيما لاحظه - يوجد كثيراً)[1].

تعكس تراتبية المبادئ على هذا النحو المنطقي أثر التناصر في جودة الكلام. وليس التناصر - في جوهره - إلا مظهرا من مظاهر الارتباط المضموني والشكلي بين وحدات الفصل الواحد، لا سيما في طليعته. ويمكن لمعيار المناسبة وفكرة التناصر معا أن يمثلا منظوراً لغوياً إلى بنية النص بوصفه كلا دلاليا متفاعلاً متبادل التأثير بالإيجاب والسلب. إذا كان حسن الجزء معتداً به بحسن غيره، فإن ذلك يعني أن الحسن في المبدأ ليس صفة قبلية، ولكنها صفة استعمال يكتسبها الجزء في محيط الكل. وسيعني هذا بالضرورة أن النص ليس مجموع أجزائه، ولكنه حصيلة التفاعلات بين تلك الأجزاء.

ب / ١ التخلص:

التخلص عند حازم خروج في الكلام من غرض إلى غرض على سبيل التدرج[2]. إذا كان الخروج من غير تدرج، ولكن بانعطاف طارئ على جهة

---

(١) المنهاج ص ٣١٠ - ٣١١

(٢) المرجع السابق ص ٣١٦

من الالتفات سمي عنده باسم " الاستطراد " [1] :

التدرج إذن هو العمود الفقري للتخلص عند حازم. مقياس التدرج عند حازم في قوله: " أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما " [2]. وفي تفسير حازم لوظيفة التخلص – في ضوء فهمه هو على الأقل – ما يجعل للتخلص – بما يحققه من التقاء محكم بين الأغراض – أثرا إيجابيا مباشرا في تلقي الكلام: " فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما، وجدت الأنفس في طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه. وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المديح بعد النسيب دفعة من غير توطئة لذلك، فإنها تستصعبه ولا تستسهله، وتجد نبوة ما في انتقالها إليه من غير احتيال وتلطف فيما يجمع بين حاشيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواء والتئام " [3].

ليس النسيب والمديح في الكلام عن القصيدة المركبة التي توجب – في الأساس– احتيالا وتلطفا في صناعة التخلص، ليسا إلا نوعين أو اسمين على غرضين من أغراض الاتصال الأدبي. المهم هنا ما يكشف عنه نظام " التدرج " في كل غرض عند حازم، فيما يسميه " كيفية العمل " من وعي بضرورة الارتباط المعنوي والتسلسل المنطقي بين عناصر ذلك الغرض. الأحسن في النسيب عند حازم أن يجري التدرج هكذا :

- البدء بما يرجع إلى المحب ،
- ثم بما يرجع إلى المحب والمحبوب معا ،
- ثم إرداف ما يرجع إليهما معا مما يشجو وقوعه بذكر ما هو راجع

(١) المرجع نفسه ص ٣١٦
(٢) المنهاج ص ٣١٩
(٣) المرجع السابق ص ٣١٩

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هو توسيع لنه [illegible]

أن التدرج التخلص به من النسيب إلى المدح في ترتيبه عند حازم

- يجب [illegible] التعديد لفضائل الممدوح

وأن يتلو ذلك التعديد موطن بأسه وكرمه . وذكر أيامه في أعدائه

وإذا كان للممدوح سلف حسن تشفيع ذكر مآثره بذكر مآثرهم .

ثم يختتم بالتيمن للممدوح والدعاء له بالسعادة ودوام النعمة والظهور على الأعداء وما ناسب ذلك [1]

أقول مرة أخرى لا يعنينا هنا المديح أو النسيب غرضا من أغراض الشعر، إنما الذي يعنينا ما ارتبط بهما من بيان "كيفية العمل". توفر أكثر شروط التخلص عند حازم فرصة للقول بأن مبادئ الائتلاف المعنوي، والانتظام، واتصال الكلام. كانت الخلفية النظرية التي انطلقت منها تلك الشروط. فمن تلك الشروط ما يلي:

- التحرز من انقطاع الكلام
- التحرز من الإخلال واضطراب الكلام
- التحرز من النقلة بغير تلطف (إذ يجب التلطف فيما يوقع الكلام أحسن مواقعه ويجريه على أقوم مجاريه).
- أن يجهد الشاعر نفسه في تحسين البيت التالي لبيت التخلص [2]

الإضافة الحازمية الأهم في بحث التخلص هي ما يمثله الشرط الأخير: أن يجهد الشاعر نفسه في تحسين البيت التالي لبيت التخلص: فإنه أول الأبيات التي يظهر فيها الإجادة أو الإساءة وهو – كما يقول حازم – أول منقلة من منازل الفكر فيما تخلصت إليه [3]. وينبغي لنا أن نضيف إلى حدة ذلك الشرط

[illegible]

[illegible] في بيت التخلص الشرطين التاليين:

التحرز في بيت التخلص من الحشو

والتحرز في بيت التخلص من الاضطرار إلى الكناية

الحشو عامل لفظي، والكناية عامل معنوي. الحشو والكناية يرتبطان بتدفق الخطاب وتدفق الخطاب في موضع التخلص ينبغي له أن يكون مطلبا ملحا. الحشو والكناية - على نحو ما يجب أن نفهم من سياق كلام حازم - يضعفان قوة إخلاص التخلص لوظيفة الربط المضموني المنطقي في موضع تلح فيه الحاجة إلى نقل الكلام - في تدرج - من محور خطابي إلى آخر. إنهما يضعفان قوة إخلاص التخلص لتلك الوظيفة؛ لأنهما يقيدان حركته اللفظية والمعنوية: تضعف السلاسة وتشاب مباشرة المعنى بلازم المعنى.

ومهما يكن من أمر، فإن قانون التخلص الدلالي عند حازم ينبغي له أن يكون هكذا:

- ينبغي للتخلص أن يكون على سبيل التدرج وأن يؤدي إلى الالتقاء المحكم بين الأغراض.

جـ / ١ الانتهاء:

عرض حازم شروطه في الانتهاء أو الخاتمة تحريا وتحرزا وتحفظا على النحو التالي:

١- تحري أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة.

٢ - أن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه، أو مميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه.

٣ - أن يتحفظ في أول البيت الواقع مقطعا للقصيدة من كل ما يكره ولو ظاهره وما توهمه دلالة العبارة أولا، وإن رفعت الإيهام أخرا ودلت على معنى حسن. ومن هذا قول المتنبي:

فـلا بلغـت بهـا إلا إلى ظفـر ولا وصـلت بهـا إلا إلى أمـل[2]

---

(1) [illegible]

(2) [illegible]

الشرط الثاني عند حازم شرط معنوي وهو يرتبط [illegible]. لا يخرج عما اشترطه أبو هلال وابن رشيق وأمثالهما: ينبغي للخاتمة أن ترتبط بالمقصد من الكلام. أما الشرطان الأول والثالث فهما لفظيان نظميان. وما ضرب به حازم مثلا علي النظم القبيح هو نفسه الذي سبقه إليه ابن رشيق، عجت بيت أبي الطيب.

كان ابن رشيق قد علق على هذا البيت قائلا: " فإن هذا شبيه ما ذكر من بغيض: كان يصابح الأمير فيقول: لا صبح الله الأمير بعافية، ويسكت، ثم يقول: إلا رماه بأكثر منها، ويماسيه فيقول: لامسي الله الأمير بنعمة، ويسكت سكتة ثم يقول: إلا وصبحه بأتم منها، أو نحو هذا. فلا يدعو له حتي يدعو عليه. ومثل هذا قبيح، لاسيما عن مثل أبي الطيب "[1].

السكتة علي ما قبل أداة الاستثناء تقدم مثالا على النظم القبيح؛ لأنه موهم، يضطرب معه الخطاب في موضع الخاتمة، وهو موضع ينبغي له أن يحوز علي عناية المتكلم: لأنه – كما يقول حازم – منقطع الكلام وخاتمته"[2]. المهم هنا – على أي حال – التفات حازم إلى تبادل الخاتمة مع ما قبلها فعل التاثير في نفس المتلقي سلبا وإيجابا: " فالإساءة فيه (يعني موضع الخاتمة) معفية علي كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس. ولا شئ أقبح من كدر بعد صفو وترميد بعد إنضاج "[3].

ومهما يكن من أمر، فإن قانون الخاتمة الدلالي عند حازم ينبغي له أن يكون هكذا :

- ينبغي أن ترتبط الخاتمة بما قصد إليه المتكلم في النص، وإلا يكون تأثيرها فيما قبلها من حيث المعني تأثيرا سلبيا.

وهو قانون لا يخرج – كما نري – عما وضعه سابقوه.

٢ - المبادئ الدلالية لحبك الفصول :

الإضافة الحقيقية في دراسة الحبك أو التناسب المعنوي بين وحدات النص عند حازم مستودعها المعلم الأول من المنهج الثالث من (المباني) وهو عن " طرق

---

(١) العمدة ١: ٢٤١.
(٢) المنهاج ص ٢٨٤.
(٣) المنهاج ص ٢٨٤.

[illegible]

لديه يحكم مباني الفصول وتحسين هيئتها ووصل بعضها ببعض

الفصول عنده هي ما نتعارفه بالمقاطع التي يستقل كل مقطع منها في القصيدة العربية المركبة بغرض. تتوزع معطيات هذا المعلم – فيما نرى – على مفاهيم ثلاثة:

- معطيات تختص بمفهوم السبك .
- معطيات ترتبط بأحدهما أو كليهما وبمفهوم بنية النص وتنسيقه في آن معا.

مقتضى الحال أن نقتصر هنا على ما يتصل من آرائه بمفهوم الحبك على مستوي الفصول.

السؤال الآن: ما الأسس الدلالية والمضمونية التي يبنى عليها الحبك بين فصل وآخر ؟

أ / ٢ - قوانين الوصل بين الفصول :

ينبغي أن نشير أولا إلي أن حازما قد جعل الكلام فيما يرجع إلى ذوات الفصول وإلى ما يجب في وضعها وترتيب بعضه من بعض قائما على أربعة قوانين :

(القانون الأول) في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها.

(القانون الثاني) في ترتيب الفصول والموالاة بين بعضها وبعض.

(القانون الثالث) في ترتيب ما يقع في الفصول.

(القانون الرابع) فيما يجب أن يقدم في الفصول وما يجب أن يؤخر فيها وتختتم به[٢].

لكل قانون من هذه القوانين الأربعة عند حازم شروط تحقيق مختلفة.

تتوزع هذه القوانين وشروط تحقيقها على ما يمكن تسميته :

١- شروط الحبك الكلي: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين فصول القصيدة. وتقع هذه الشروط في القانون الأول والثاني.

٢ - شروط الحبك الجزئي: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٩١ [illegible]

(٢) [illegible] ص ٢٨١

أبيات الفصل الواحد. وتقع هذه الشروط في القانون الثالث.

ومما يحقق الحبك الكلي من شروط القانون الأول عند حازم "تناسب المفهومات بين الفصول" (١) ومما يحققه من شروط القانون الثاني أن يقدم من الفصول ما للنفس به عناية على حسب الغرض المقصود بالكلام، وأن يتلو الفصل المقدم بالأهم، حتى تتصور التفاتة ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم (وبالتالي إلى ترك القانون الأصلي في الترتيب) (٢).

ومن شروط حازم في القانون الأول "حسن الاطراد بين الفصول" (٣).

وقد جاء حازم بهذا الشرط على الإجمال. ومما يعنيه حسن الاطراد بالضرورة التوالي المحكم للمفاهيم والأغراض الذي يصل الفصول بعضها ببعض في القصيدة الواحدة.

واستواء النسج من شروطه في القانون الأول أيضاً. وهو متعلق بالعامل التركيبي أي بالبنية اللفظية. ولكنه ينعكس بالضرورة على البنية المعنوية. يجب أن تكون الفصول تبعا لهذا القانون "غير متخاذلة النسج، غير متميز بعضها عن بعض التمييز الذي يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية تنزل منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر. والقصائد التي نسجها على هذا مما تستطاب" (٤).

أما الشروط التي تحكم تحقيق الحبك الجزئي، فقد اشتمل عليها القانون الثالث: وهو في تأليف بعض بيوت الفصل إلى بعض. وهذه الشروط هي:

١ - يجب أن يبدأ من ابيات الفصل بالمعنى المناسب لما قبله (٥).

٢ - فضلا عن وجوب صياغة رأس الفصل الصياغة التي تدل على أنه

(١) المنهاج ص ٢٨٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٩

(٣) المرجع نفسه ص ٢٨٨

(٤) المرجع نفسه ص ٢٨٨

(٥) ويرى حازم أنه إذا تأتى أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل والذي به يحصل التشريف كان أبهى لوروده [illegible] (منهاج ص ٢٨٩)

مبدأ فصل، فالأحسن أن يتصل به معنى يحسن موقعه من النفوس بالنسبة إلى الغرض. كالتعجب والتمني والدعاء وتعديد المعهود السوالف ... الخ.

٣ - يشترط أن يكون معنى البيت - مع كون أوله مبدأ كلام ومصدرا بكلمة لها معنى ابتدائي - أن يكون له علقة بما قبله ونسبة إليه "

٤ - " يجب أن يردف البيت الأول من الفصل بما يكون لائقا به من باقي معاني الفصل، مثل :

(أ) أن يكون مقابلا له على جهة من جهات التقابل ،

(ب) أو أن يكون بعضه مقابلا لبعض ،

(ج) أو أن يكون مقتضى له، مثل :

- أن يكون مسببا عنه ،
- أو أن يكون تفسيرا له ،
- أو أن يكون بعضه محاكيا بعض ما في الآخر.
- أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر.

وكذلك الحكم فيما يتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل"[1].

وفي نهاية تلك الشروط يورد حازم هذه الملحوظة المهمة: " وربما ختم الفصل بطرف من أغراض الفصل الذي يليه أو إشارة إلى بعض معانيه "[2].

باستثناء الإشارة في الشرط الثاني إلى وجوب صياغة رأس الفصل الصياغة التي تليق بموقعه، تبدو جميع الشروط في هذا القانون مختصة بالحبك الجزئي أو الداخلي بين أبيات الفصل الواحد. ولكنها لم تغفل - على رغم ذلك - وجوب المناسبة المعنوية بين رأس الفصل وما يسبقه أو بين خاتمة الفصل ورأس الفصل الذي يليه.

ولعل وضع حازم يده على بعض وجوه التعلق بين البيت والآخر من الفصل الواحد بداية جدولة العلاقات الدلالية التي سبق فيها المحدثين، مثل نايدا. يحتفظ نايدا بحق الجدولة المتكاملة للعلاقات الدلالية بين المنطوقات، ويحتفظ حازم بحق السبق إلى كثير من تلك العلاقات. ولنا أن نقابل ما عند

---

(١) المنهاج ص ٢٨٩ - ٢٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٠

حازم مما يشترك فيه مع ناهد، على النحو التالي

حازم

- علاقة المقابلة :
- الكلية
- البعضية
- مسبب عنه
- تفسير له
- بعضه يحاكي بعض ما في الآخر

ناهد

- العلاقة التقابلية (علاقة ثنائية)
- السبب – التفصيل (علاقة تبعية)
- الكيفية – (علاقة الوصف)

ضم القانونان الأول والثاني شروط ما أسميناه بالحبك الكلي، كما ضم القانون الثالث شروط الحبك الجزئي. أما القانون الرابع، فقد جعله حازم في وصل بعض الفصول ببعض. ونري أن الوصل – في هذا الموضع – ينبغي له أن يتسع للسبك والحبك معا. ويعني هذا أن القانون الرابع إنما يتناول النص المسبوك المحبوك في الآن نفسه. لم يبن هذا القانون – مثل غيره – علي شرط تحقيقه، إنما بني على أنواع الفصول من حيث الاتصال والانفصال بين العبارة والغرض. يقول حازم: " فأما القانون الرابع في وصل بعض الفصول ببعض، فالتأليف في ذلك على أربعة أضرب:

١ - ضرب متصل العبارة والغرض.

٢ - وضرب متصل العبارة دون الغرض.

٣ - وضرب متصل الغرض دون العبارة.

٤ – وضرب منفصل الغرض والعبارة "[1].

حد حازم الضرب الأول على النحو التالي. " فأما المتصل العبارة والغرض، فهو الذي يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقة من

---

(١) المنهاج ص ٢٩٠

جهة الغرض وارتباط من جهة العبارة، بأن يكون بعض الألفاظ التي في أحد الفصلين يطلب بعض الألفاظ التي في الأخر من جهة الإسناد والربط "[1].

على أساس الاتصال والانفصال بين العبارة والغرض تجرى سائر الضروب. إذا كان الاتصال من جهة العبارة لا الغرض كان الضرب الثاني. ويكون الفصل متصلا بغيره في الغرض دون العبارة إذا كان أوله رأس كلام، ويكون لذلك الكلام " علقة " بما قبله من جهة المعنى. هذا هو الضرب الثالث. أما الضرب الرابع والأخير، فهو الذي لا توصل فيه عبارة بعبارة ولا غرض بغرض مناسب له، يهجم على الفصل هجوما من غير إشعار به مما قبله ولا مناسبة بين أحدهما والأخر[2].

الضروب الأربعة السابقة هي الإجابة عن سؤال يمكن أن يطرح على النحو التالي: كيف تبدو صور العلاقات بين الفصول من حيث اتصال العبارة والغرض؟

وينبغي الإشارة هنا إلى أن حازما قد وصف الضرب الثاني بأنه " منحط عن غيره "[3]. ووصف الضرب الرابع بأنه " متشتت من كل وجه "[4]. ولكنه يرى الضرب الثالث، وهو ما اتصلت فيه الفصول بعضها ببعض في الغرض دون العبارة، يراه أفضل الضروب الأربعة. يقول حازم: " وهذا الضرب (يعني الثالث) إذا نيط برأس الفصل فيه معنى تعجيبي أو دعائي أو غير ذلك مما أشرنا إليه هو أفضل الضروب الأربعة؛ لكون النفوس تنبسط ويتجدد نشاطها بإشعارها الخروج من شئ إلى شئ، واستئناف كلام جديد لها مع ما يشفع به إليها في قبول الكلام من نياطة ماذكرناه من تعجيب أو دعاء أو غير ذلك مما له بالمعنى علقة بالكلام وتصديره به. وهذا الضرب – على كل حال – أفضل الضروب الأربعة "[5].

يعكس تنظير حازم لضروب الاتصال بين فصول القصيدة ما يستحسنه الذوق العربي في بنية الخطاب: تعلق الفصول فيما بينها من جهة الغرض

(1) المرجع السابق ص ٢٩٠
(2) المرجع نفسه ٢٩١
(3) المرجع نفسه ٢٩١
(4) المرجع نفسه ٢٩٠
(5) منهاج ص ٢٩٠

وارتبط بعضها ببعض من جهة العبارة أي ارتباط الألفاظ بعضها ببعض من جهة الإسناد والربط. لقد نظر حازم - فيما يبدو لنا - إلى طراز القصيدة المركبة - على تقدير قدر الاتصال بين الفصول في الغرض عن طريق الخروج - عندما جعل الضرب الثالث أفضل الضروب. بعبارة أخري نقول: سوف تجد القصيدة المركبة محلا لها من الضرب الثالث. على أساس فهم حازم ومن قبله لدور التخلص أو الخروج، من الربط بين الفصول لفظا ومعني.

ب / ٢ تنسيق المعاني بين الفصول :

المعاني الجزئية والمعاني الكلية :

ويرتبط بالحبك بين المفاهيم والقضايا على مستوي الفصل الواحد الكيفية التي تتسق بها المعاني بين أبيات الفصل. جعل حازم المعاني صنفين :

١ - المعاني الجزئية: وهي عنده ما كانت مفهوماتها "شخصية"[1].

٢ - المعاني الكلية: وهي عنده ما كانت مفهوماتها "جنسية أو نوعية"[2]

لم يمثل حازم لأي من هذين النوعين عنده. ينبغي لمعني الحب أو الوفاء أن يكون معني كليا، من حيث إن مفهومه جنسي أو نوعي، فإذا ما عرض شاعر لتجربة شخصية في أحدهما في علاقته بفلان أو فلانه، وكيف كانت تلك التجربة، وما كان يريده لها، ونحو ذلك، كان التحول إلى المعني الجزئي.

هذان هما نوعا المعاني عند حازم. فأما القصد إليها في القصائد فثلاثة أشكال:

١ - القصائد التي يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمنها معاني جزئية.

٢ - ما يقصد الشاعر في فصولها أن تضمن المعاني الكلية.

٣ - ما يقصد الشاعر في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية. وهذا هو المذهب الذي يجب اعتماده عند حازم: وذلك

---

(1) المرجع السابق ص ٢٩١

(2) المرجع نفسه ص ٢٩٤

حسن موقع الكلام به من النفس

ما يتصل بالحديث المعنوي هنا - على معنى كيفية توزيع المعاني بين الفصول وتسلسلها إظهارا لطبيعة التفاعل فيما بينها - هو إشارة حازم إلى أنه يحسن أن تصدر الفصول بالمعاني الجزئية وأن تردف بالمعاني الكلية على سبيل التمثل بالأمر العام على الأمر الخاص، أو على سبيل الاستدلال على الشئ بما هو أعم منه[2].

ترتيب المعاني في الفصل على النحو السابق يبدو مقهما على نماذج المجيدين من الشعراء مثل المتنبي. كان أبو الطيب النموذج المحتذي فيما اعتمده حازم أو استحسنه، لا في تصدير الفصول بالمعاني الجزئية وإردافها بالمعاني الكلية فحسب، بل في تصدير الفصول بالأبيات المخيلة وجعل ختامها ببيت المخيلة في الفصل الثاني. يرى حازم أن كلام أبي الطيب كان له بذلك " أحسن موقع في النفوس "[3]. ويرى أنه " يجب أن يعتمد مذهب أبي الطيب في ذلك ، فإنه حسن"[4].

ومهما يكن من أمر، فإن الذي نلاحظه في تصدير الفصول بالمعاني الجزئية وختمه بالمعاني الكلية هو مجاراة ذلك للغالب في العلاقات الدلالية المنطقية بين المنطوقات: إذ يغلب أن تبدو العلاقة من هذا النوع في هيئات نحو :

- السبب/النتيجة.
- أو الوسيلة/النتيجة.
- أو الشرط/الجواب، ونحوها.

(ج) رءوس الفصول: التسويم والتحجيل :

لا يخرج رأي حازم في التقسيم النصي إلى فصول عن رأي سابقيه. يرى حازم أن العرب " اعتمدوا في القصائد أن يقسموا الكلام فيها إلى فصول ينحى بكل فصل بها منحى من المقاصد ، ليكون للنفس في قسمة الكلام

---

(1) المنهاج ص ٢٩١

(2) المرجع نفسه ص ٢٩٣

(3) المرجع نفسه ص ٣٤٣

(4) المرجع نفسه ص ٣٤٣

في تلك الفصول والميل بالأقاويل فيها إلى جهات شتى من المقاصد وأنحاء شتى من المآخذ استراحة واستجداد نشاط بانتقالها من بعض الفصول إلى بعض وترامي الكلام بها إلى أنحاء مختلفة من المقاصد.

ولا يرى حازم في تعدد الفصول والموضوعات ما يشوش الاتصال؛ بل يرى أنه أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق؛ وذلك لولع النفوس بالافتنان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد[1].

في هذا الإطار يقع التسويم والتحجيل. هذان الاصطلاحان من وضع حازم. التسويم يعني العناية برءوس الفصول العناية التي توقظ نشاط النفس لتلقي ما يتبعها ويتصل بها[2]. أطلق حازم على هذا الموضع التسويم؛ لأن العناية هنا ترتبط بفواتح الفصول، فتجعل لها بهاء وشهرة وازديانا حتى كأنها بذلك ذوات غرر[3].

أما " التحجيل " عنده فيعني " تحلية أعقاب الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية ... ليكون اقتران صنعة رأس الفصل وصنعة عجزه نحوا من اقتران الغرة بالتحجيل في الفرس "[4].

يعنينا من " التسويم " أمران مهمان " :

(أولهما) التفات حازم إلى العلاقة بين توفر خاصية الحبك لوحدات الفصل وبين تأثيرها في النفس وبلوغ المقصد؛ يقول حازم: " وإذا اتجه أن يكون الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكدا بمعنى المتبوع ومنتسبا إليه من جهة ما يجتمعان في غرض ومحركا للنفس إلى النحو الذي حركها الأول أو إلى ما يناسب ذلك، كان ذلك أشد تأثيرا في النفوس وأعون ما يراد من تحسين موقع الكلام منها "[5].

و (الأخر) التفات حازم إلى علاقة المعنى في خاتمة الفصل (بيت التحجيل) بجملة معاني الفصل أو بعضها. فضلا عن فطنته إلى الوظائف الخطابية لهذه

---

(1) منهاج ص ٢٩٦
(2) المرجع نفسه ص ٣٠٢
(3) المرجع نفسه ص ٢٩٠
(4) منهاج ص ٢٩١
(5) المرجع نفسه ص ٢٩١
(6) نفسه ص ٢٩١

"خاتمة في علاقتها بما قبلها: كالتمثيل والاستدلال اللذين غرضهما التصديق أو الإقناع قصد إعطاء حكم كلي في بعض ما يتعلق بـ " الأغراض الإنسانية " من أمور قصد إليها الفصل. يقول حازم: " ولا يخلو المعنى الذي يقصد تحلية الفصل به وتحجيله من أن يكون مترامياً إلى ما ترامت إليه جملة معاني الفصل إن كان منزاها واحداً، أو يكون مترامياً إلى ما ترامي إليه بعضها: فيورد على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التمثيل، ويكون منحواً به منحي التصديق أو الإقناع، مقصوداً به إعطاء حكم كلي في بعض ما تكون عليه مجاري الأمور التي للأغراض الإنسانية علقة بها مما تصرفت إليه مقاصد الفصل، ونحي بها نحوه : فيكون في ورود البيت الأخير الذي يتضمن حكماً أو استدلالاً على حكم إثر المعاني التي لأجلها بنى ذلك الحكم أو الاستدلال عليه، إنجاد للمعاني الأول وإعانة لها على ما يراد من تأثر النفوس لمقتضاها " [1].

خلاصة القول أن المبادئ والتخلصات والخواتيم كانت من مجالات النظر في بنية النص من منظور الحبك عند حازم. وقد رأينا له إسهامات خاصة، لاسيما في المبادئ والتخلصات. في تحليل المبادئ أبرز حازم فكرتي التناسب والتناصر بين المبدأ وما يليه. وعلى أساس فكرة التناصر بني ترتيبه المبادئ إلى رتبها الثلاث على نحو ما رأينا وفي تحليل التخلصات نبه حازم إلى وجوب العناية بالبيت التالي للتخلص، فضلاً عن اشتراطه خلو بيت التخلص مما يعوق حركته اللفظية والمعنوية من حشو أو كناية.

ولكن الرقعة الحقيقية التي أضافها حازم إلى مبحث الحبك أو التناسب في التراث العربي، كانت مع تجاوزه مواضع البداية والتخلص والنهاية وعلاقاتها بسائر أجزاء النص، إلى بحث خاصية الحبك من خلال القوانين وشروط القوانين التي وضعها للوصل بين فصل وآخر من فصول النص الشعري أو التي وضعها للوصل بين أبيات الفصل الواحد منها، أو استجادته – في ترتيب المعاني في كل فصل – البدء بالمعاني الجزئية ثم المعاني الكلية، أو تنبيهه إلى وجوب العناية بمواتح الفصول وأعقابها – فهما أسماه بالتسويم

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٠٠

والتحجيل – من جهة المعنى والوظيفة الخطابية.

أما المبادئ الدلالية الجوهرية التي بنيت عليها قوانين المبادئ والتخلصات والخواتيم من ناحية، أو التي بنيت عليها قوانين مباني الفصول وهيأتها وكيفيات وصل بعضها ببعض والوصل بين أبيات الفصل الواحد منها من ناحية أخرى، فيمكن أن نوجزها في: انتظام المعاني، واتصال الكلام، وتناسب الجزء مع الكل في المفهوم، والتدرج: رأينا مناسبة الابتداء لما بعده ومناسبة ما بعده له. وكذلك الحال مع التخلص: أن يناسب ما قبله ويربطه على سبيل التدرج بما بعده، ولابد للخاتمة أيضا من أن تناسب ما قبلها وأن ترتبط بالمقصد من الكلام. وفي مباني الفصول لابد من تناسب المفهومات فيما بينها، وأن يكون تقديم الأهم من الفصول فالأهم على حسب الغرض المقصود من الكلام، وأن يتعلق معنى أول الفصل بالفصل الذي قبله. وقد رأينا آنفا أن أفضل ضروب الاتصال بين الفصول عند حازم ما كان الاتصال فيه بين الفصول في الغرض دون العبارة. ولعل ذلك يرجع إلى أنه الضرب الذي يجمع بين الترابط المعنوي والتجدد الأسلوبي. وفي التأليف بين أبيات الفصل الواحد، أوجب حازم المناسبة بين البيت الأول من الفصل (بيت التسويم) وما قبله في المعنى، وأن يردف بيت التسويم ببيت آخر له به علاقة دلالية ما: كالتقابل أو الاقتضاء أو نحوهما، وأن يناسب توزيع المعاني بالفصل، من البدء بالمعاني الجزئية ثم المعاني الكلية، الغالب في العلاقات الدلالية المنطقية، وأن يرتبط المعنى في بيت التحجيل بجملة معاني الفصل أو بعضها على الأقل.

٤ - التناسب بين النصوص :

يتجاوز التناسب هنا ما بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد إلى التناسب بين طائفة من النصوص في مدونة كبرى. التناسب بين النصوص بمثله عمل علمي من طراز عبقري، هو كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور) للإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ). هذا الكتاب هو النوع الأول من الأنواع الثلاثة عشر التي احتوى عليها كتاب له يحمل اسم (أسرار التنزيل). ولكن لم يصل إلينا من الأسرار إلا التناسق. فرغ السيوطي من كتابه (تناسق الدرر) في عام ٨٨٢ هـ.

ونكتشف قراءة عجلى للمحتوى العام لكتابه الأسرار الذي صدر به كتاب التناسق عن وقوع أكثر من نصف أنواعه في مجال " المناسبة "[1].

يقوم (تناسق الدرر) على أساس ترتيب السور في المصحف لا ترتيب النزول. والترتيب القرآني للمصحف مختلف فيه بين العلماء: هل هو بتوقيف من النبي ﷺ أم باجتهاد من الصحابة، بعد القطع بأن ترتيب الآيات توقيفي.

المختار عند السيوطي أن ترتيب السور في المصحف توقيفي، سوى الأنفال وبراءة "[2].

خاصية التناسب في المعاني والمقاصد بين نصي سورتين متواليتين غالبا، وربما بين سورتين غير متواليتين مثل التناسب بين النساء والبقرة من وجوه، هي المنظور اللغوي العام الذي بني عليه السيوطي كتابه. وهو منظور دعامته الاستقراء النصي. وقد دل السيوطي على استقرائه في موضعين؛ أحدهما: " القاعدة التي استقر بها القرآن: أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجاز "[3]. والموضع الآخر: قوله: " وأمر آخر استقرائه، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسبا لأولها "[4].

جدير بالإشارة أن السيوطي - مثل سابقيه - قد اتخذ في كلامه عن وجوه التناسب مفردات عدة، منها: التناسق، والتلاحم، والارتباط، والاعتلاق والالتئام، والتآخي، والتلازم، والاتحاد، والاتصال. وهو يستخدم في مواضع متماثلة عددا من تلك المفردات، حتى تبدو كأنها مترادفة عنده، وهو ما يجعل التمييز فيما بينها أمرا عسيرا، إلا ما ندر جدا منها؛ كأن يفيدنا السياق بأن الاتصال أعم من التناسب[5]، أو أن يفيدنا بأن التآخي يكاد

(١) انظر: السيوطي (جلال الدين) : تناسق الدرر في تناسب السور. دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية. ط ١ (١٤٠٦ هـ -- ١٩٨٦ م) ص ٥٤.

(٢) تناسق الدرر ص ٦٠، وقارن ١٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٦٥

(٤) المرجع نفسه ص ٧٤.

(٥) المرجع نفسه ص ١٣٢

[illegible] علاقة [illegible]

[illegible] التي [illegible] القول [illegible] بين سورة وأخرى؟

[illegible] على أن الترابط الدلالي والمضموني بين سورة وأخرى يرجع إلى إحدى العلاقات الجوهرية العشر التالية

(أ) تفصيل المجمل :

أشرت إلى أن القاعدة التي استقر بها القرآن- من وجهة نظر السيوطي- أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجاز [illegible] على هذا، تصبح هذه العلاقة الدلالية أهم العلاقات التي وفرت للنص القرآني المحكم خاصية الحبك. تفصيل المجمل إذن هو الملمح الرئيس من ملامح الحبك التي تصير كل سورة معها وحدة من وحدات الخطاب القرآني المترابطة. سبق البديعيون السيوطي إلى إدراك هذه العلاقة من علاقات الحبك في الخطاب العربي، ولكن السيوطي يجعلها - باستقرائه - قاعدة الخطاب القرآني كله

- فسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة[1].

- سورة آل عمران شرح لإجمال ما في البقرة قبلها، ومثاله أن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه. وقال في آل عمران: " نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه " [3] . وذلك بسط وإطناب: لنفي الريب عنه "[2]. وهكذا تطرد للسيوطي قاعدته.

(ب) علاقة التلازم والاتحاد :

استقرأ السيوطي هذا الأمر على نحو ما أشرنا. إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد كانت خاتمة السورة الثانية مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. مثال ذلك أن آخر آل عمران مناسب لأول البقرة: فإنها افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون، وختمت آل عمران بقوله

[illegible]

[illegible]

[illegible] نصحون [illegible]

[illegible] فتتحت [illegible] وختمت [illegible] وفتحت الأنعام بالحمد. قال السيوطي: وهما [illegible] قال: "وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الزمر: [illegible])

(جـ) تشابه الأطراف:

يقول عنه "السيوطي": وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من البديع. وتشابه الأطراف - في عمل السيوطي - يعني تشابه أول السورة مع خاتمة ما قبلها في الموضوع. من تشابه الأطراف الذي وقف عليه "السيوطي" أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى، وبدئت النساء به"
وختمت يوسف بوصف الكتاب، ووصفه بالحق، وبدئت الرعد بمثل ذلك.

وختمت الإسراء بالتحميد وافتتحت الكهف بالتحميد أيضا"

(د) علاقة المقابلة:

وهي أو التفصيل من وجوه التناسب بين السور في عمل السيوطي. من أمثلته على ذلك أن سورة الكوثر كالمقابلة لسورة الماعون قبلها؛ لأن الماعون وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة. وذكر في الكوثر في مقابلة البخل: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" أي: الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة "فصل" أي: دم عليها وفي مقابلة الرياء "لربك" أي: لرضاه، لا للناس. وفي مقابلة منع الماعون "وانحر" وأراد التصديق بلحوم الأضاحي. أخذ السيوطي التأويل

[illegible]
سابق عن الإمام محمد الدين الرازي [illegible]

(هـ) علاقة المقارنة :

تستنبط هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلا عن وجه الاتصال بين سورتي الفيل والهمزة. قال السيوطي: " لما ذكر حال الهمزة اللمزة، الذي جمع مالا وعدده، وتعزز بماله وتقوى، عقب ذلك بذكر أصحاب الفيل، الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر أموالا وعتوا، وقد جعل كيدهم في تضليل، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه، وجعلهم كعصف مأكول . . . فمن كان قصاري تعززه وتقويه بالمال، وهمز الناس بلسانه، أقرب إلى الهلاك، وأدنى إلى الذلة والمهانة " [1].

تبدو المقارنة هنا إذن علاقة دلالية رابطة بين طرفين لسان صفة أو وضع أحدهما مقارنا بالآخر.

(و) علاقة الملابسة :

وتتجلى هذه العلاقة بين سورة الشمس والليل والضحى. قال السيوطي: " هذه الثلاثة حسنة التناسق جدا؛ لما في مطالعها من المناسبة لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة، وفيها سورة الفجر ، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم، كما فصل بين الانفطار والانشقاق وبين المسبحات: لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد في المناسبة"[2].

(ز) علاقة التحقيق :

وتستنبط من كلام السيوطي عن السورتين إذا كانت بداية إحداهما قسم على تحقيق ما في سابقتها. من أمثلة هذه العلاقة ما لاحظه السيوطي من الارتباط بين سورة الفجر والغاشية قبلها. يقول السيوطي: " لم يظهر لي من وجه ارتباطها (يعني الفجر) سوى إن أولها كالأقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها (يعني الغاشية): من قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥)ثُمَّ

---

(1) المرجع السابق ص ١٤٤ - ١٤٥
(2) المرجع نفسه ص ١٤٣ - ١٤٤
(3) المرجع نفسه ١٣٠ - ١٣١

إنْ علينا حسابَهُمْ(٢٦)"" وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد. كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في (ق)، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في (عم)

(ح) بيان العلة :

ويعني أن تقع السورة موقع العلة لما قبلها. من ذلك مثلا أن سورة البينة – كما يذكر السيوطي – واقعة موقع العلة لسورة القدر قبلها؛ كأنه لما قال سبحانه: " إنا أنزلناه " " ١ ". قيل: لم أنزل ؟ قيل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة، وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. وذلك هو المنزل"[1].

من ذلك أيضا أن أول سورة الحديد واقع موقع العلة للأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة؛ وكأنه قيل: " فسبح باسم ربك العظيم " لأنه " سبح لله ما في السموات والأرض " "[2].

(ط) الإتمام أو العطف :

وذلك أن تكون السورة في ترتيبها كالتتمة لما قبلها. من الأمثلة على ذلك أن سورة المعارج – فيما ذكر السيوطي – كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار[3]. وسورة النمل كالتتمة للشعراء قبلها في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان، وداود، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء"[4].

يجعل السيوطي هذه العلاقة من العلاقات التي بين سورة وأخرى؛ كعلاقة سورة الشرح بالضحى قبلها. ينقل السيوطي عن الإمام فخر الدين الرازي قوله: " والذي دعاهم إلى ذلك (يعني ما ذهب إليه بعض السلف في جعلهما سورة واحدة بلا بسملة) هو أن قوله: " ألم نشرح " كالعطف على: ألم يجدك يتيما فآوي " " ٦ " في الضحى"[5].

---

(١) السابق [illegible] ص ١٣٠

(٢) المرجع السابق ص ١١

(٣) المرجع [illegible] ١٢٩

(٤) المرجع [illegible] ١٢٨

(٥) المرجع [illegible]

(٦) [illegible] ٣٩

(ي) وصف الإطار الزمني :

نستنبط هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلا عن وجه الاتصال بين سورتي البينة والزلزلة. قال السيوطي: " لما ذكر في آخر " لم يكن " (يعني البينة) أن جزاء الكافرين جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقيل: " إذا زلزلت الأرض زلزالها " " ١ " : أي : حين تكون زلزلة الأرض ، إلى آخره "[1].

تلعب العلاقات الدلالية على النحو الذي رأيناه دورا بالغا في الوصل بين سورة وأخرى. يمكن – في استقراء موسع – أن نضع الأيدي على مزيد من العلاقات. ميزنا هنا بين عشر علاقات دلالية على الأقل، كانت من ركائز السيوطي المهمة في الكشف عن التناسب بين السور. من أجل ذلك، لا نرى وجها لاقتصار محمد خطابي على ثلاث من العلاقات الدلالية في عمل السيوطي[2]. نرى في ذلك إجحافا بجهد السيوطي الجهيد في تحليل النص القرآني من منظور التناسب من ناحية ، ونراه – من ناحية أخرى – أقل كثيرا من أن يصور حقيقة ثراء العلاقات بين طائفة من النصوص يجمعها نص أكبر واحد.

هناك أمر آخر ينبغي لنا أن ننوه به: وهو أن التناسب " عند السيوطي يتجاوز العلاقات الدلالية المذكورة آنفا ، إلى كل مظاهر الاتصال الموضوعي والمضموني والمنطقي التي تجعل وضع إحدى السور بعد الأخرى أنسب من وضع غيرها موضعها.

يمكن توضيح ذلك بمثال من عمل السيوطي، وليكن ما ذكره من وجوه للتناسب بين سورة البقرة والفاتحة قبلها. هذه الوجوه عنده هي :

(الوجه الأول): " سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة ".

(الوجه الثاني): " أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب

(١) المرجع السابق ١٤٢
(٢) لسانيات النص ص ١٩٨ - ٢٠٤

ترتيبهم في الزمان، فعقب بسورة البقرة، وجمع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب . . . . " .

(الوجه الثالث): " أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، ... ، فناسب تقديمها على جميع سوره " .

(الوجه الرابع): " أنها أطول سورة في القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال، فناسب البداءة بأطولها " .

(الوجه الخامس) " أنها أول سورة نزلت بالمدينة، فناسب البداءة بها، فإن للأولية نوعا من الأولوية " .

(الوجه السادس): " أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالا، ختمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وحمل الإصر، وما لا طاقة لهم به تفصيلا، وتضمن آخرها أيضا الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع.

وذلك من وجوه المناسبة في التوالي والتناسق . . . فهذه ستة وجوه ظهرت لي "[1].

يتضح مما سبق ما ألمحنا إليه آنفا : يتسع التناسب هنا ليشتمل على العلاقات الدلالية: كتفصيل المجمل، وعلى وجوه أخرى لغوية: كالتناسب الموضوعي في خطاب أهل الكتاب، والاشتراك في مضمون الخاتمة، أو وجوه خارجة عن نطاق اللغة: كالطول، وترتيب النزول.

لا ريب أن طبيعة النص المدروس الخاصة من الناحيتين: اللغوية وغير اللغوية، قد فرضت مثل هذا التوسع في استخدام مفهوم " التناسب " عند السيوطي. هذا ما يؤكده عمل آخر للسيوطي في التناسب بين المطلع والمقطع في السورة الواحدة: وهو رسالته: "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع" . فضلا عن خروجه بنطاق المطلع عما تعارفه سابقوه، حتى يصل المطلع عنده

---

(١) [illegible]، ص ٦٤ - ١٠.

إلى نصف السورة والمقطع إلى نصفها الآخر"[1]. فقد اتسع "التناسب" عنده إلى أن جعل الاشتراك بين المقطع والمطلع في موضوع أو محور خطابي وجه التناسب الرئيس. من ذلك مثلا أن "هود" و"يوسف" و"الرعد" و"إبراهيم" و"الحجر"، كلها مفتتحة بذكر القرآن، ومختتمة به"[2]. وفي حالات غير قليلة يظهر وجه التناسب في هيئة علاقة دلالية ما.

على أي حال، فمن المسلم به أن لدراسة السيوطي عن "تناسب السور" خصوصية من جانب قيامها على نص منزل من لدن حكيم خبير للناس كافة. ولكن هذا النص قد أحكمت معانيه ومقاصده علاقات دلالية ومضمونية في كل جزء من أجزائه في محيط نظمه الكلي. من ثم، يظل السؤال التالي مشروعا: إذا اتخذنا دراسة السيوطي عن "تناسب السور" نموذجا لدراسة تطبيقية عن خاصية الحبك بين طائفة من النصوص في إطار مترابط أكبر، فما المعطيات النظرية العامة التي توقفنا عليها مثل تلك الدراسة؟.

يمكن إيجاز تلك المعطيات فيما يلي:

١ - يجمع النص بالآخر في محيط نص مترابط أكبر علاقتان دلاليتان اثنتان على الأقل: إحداهما علاقة مطردة بين جميع النصوص، من حيث إن أحدهما يفصل مجمل الآخر، ومن حيث إن كلا منهما جزء من كل، والأخرى متغيرة حسب موقع النص مما قبله وما بعده.

٢ - كلما طال نصان متواليان في نص مترابط مطول، كانت فرصة لأن تجمع بينهما أكثر من علاقتين اثنتين. هذا ما نراه واضحا في عمل السيوطي بين معظم السور المدنية.

٣ - إذا كان إحصاء العلاقات الدلالية بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد عملا متاحا، فإن إحصاء العلاقات الدلالية بين طائفة من النصوص

---

(١) ومثال ذلك أن الأول منه في سورة المائدة حتى الآية ١٧، وهي قوله تعالى: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم". السيوطي (جلال الدين): مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع. تحقيق د. محمد يوسف الشربجي. مجلة (الأحمدية) - دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي - العدد الرابع (جمادى الأولى ١٤٢٠هـ - أغسطس ١٩٩٩م) ص ٦٣ - ١١٢، ص ٩٢.

(٢) مراصد المطالع ص ٩٣.

التي يقوم عليها نص أكبر واحد، يبدو شيئا غير يسير، وقابلا للتأويل والتعدد. ولعل ما استثمره السيوطي من تجاوز وجوه التناسب والاتصال بين سور القرآن ما ذكره في عمله، كان وراء قوله: "وجميع هذه الوجوه التي استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر" [1].

٤ - ليست العلاقات بين نصين في مدونة كبرى من حيث المعنى والمقصد ظاهرة دائماً. تظهر هذه العلاقات حينا، ولكنها خفية في أحيان أخرى. يرتبط خفاء العلاقات بطول النص ومقصده في كثير من الأحيان. وفي عمل السيوطي رأينا وجوه اتصال السورة بالأخرى ظاهرة، ولكنها تحتاج إلى تأمل وروية في أحيان غير قليلة. عبر السيوطي عن هذه المسألة في غير موضع من كتابه :

- عن سورة " إبراهيم " قال: وجه وضعها بعد سورة الرعد، زيادة على ما تقدم، بعد إفكاري فيه برهة . . . " [2].

- وعن وجوه مناسبة " تبارك " لسورة " التحريم " قبلها قال: " ظهر لي بعد الجهد . . . " [3].

- وعن وجه اتصال " نوح " بسورة " المعارج " قبلها قال: " أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه . . . " [4].

- وعن وجه اتصال " الجن " بسورة " نوح " قبلها قال: " قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها . . . " [5].

٥ - للاستدلال دور مهم في استنباط العلاقات الدلالية التي لم يصرح بها الخطاب. يمكن أن نضرب على ذلك مثلا نوع الاتصال بين سورة " نوح " و " المعارج " قبلها: قال السيوطي: " أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال في " سأل " (يعني المعارج): " إنا لقادرون. على أن نبدل خيرا منهم " " ٤١ ". عقبه بقصة قوم نوح، المشتملة على إبادتهم

(١) تناسق الدرر ص ٨٧

(٢) تناسق الدرر ص ٩٦

(٣) المرجع السابق ص ١٢٦

(٤) المرجع نفسه ص١٢٩

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٩

عن آخرهم، بحيث لم يبق منهم ديار، وبدل خيرا منهم، موقع الاستدلال لما ختم به تبارك " (٥). وفي الاتصال بين "تبارك" و"التحريم" قبلها، يقول السيوطي: "ظهر لي بعد الجهد: أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتي نوح ولوط الكافرتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتتحت هذه السورة بقوله: "الذي خلق الموت والحياة" "٢"، مرادا بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين، وآمنت امرأة فرعون، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق في كل من القضاء والقدر "[1].

من المقرر – في علم لغة النص ونظرية تحليل الخطاب – ان خطاب اللغة الطبيعية – على عكس الخطاب الشكلي – ليس خطابا صريحا تماما explicit.

يمكن أن تقع العلاقات بين الجمل والقضايا دون أن يعبر عنها. وهذه هي العلة في أن البنية النظرية للنص ضرورية لبيان كيفية تفسير الخطابات بأنها مترابطة حتى وإن كانت معظم القضايا اللازمة لإنشاء الحبك تبقي ضمنية implicit، على نحو القضايا المستلزمة عن قضايا أخري قد عبر عنها في الخطاب تعبيرا صريحا. هنا يكون للاستدلال دور[2]. وقد راينا في التوطئة كيف يمكن لنا أن نقوم بتركيب " الحلقات المفقودة " في الخطاب بواسطة قوانين الاستدلال Rules of Inference.

٦ - إذا كانت بنية النص الكبري هي بنية المحتوي النصي الشاملة التي تؤثر على مقصده الرئيس، فإن بنية النصوص المكونة لنص أكبر ممتد ينبغي لها ان تكون – عبر علاقات المحتوي الكبرى فيها – ما يمكن تسميته بالبنية النصية العظمي. في ضوء هذا يمكن أن نفهم كلام القدماء عما أسموه " المقصد الأعظم من القرآن ". مثال ذلك أن الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) جعل " المقصد الأعظم من القرآن " هو تقرير امور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر"[3].

---

(١) تناسق الدرر ص ١٢٧

(٢) راجع Text and Context,ibid,p.94

(٣) تناسق الدرر ص ٦١ - ٦٥

٥ - خلاصات وتعقيبات :

كان النص الأدبي عند البلاغيين والنقاد، والنص القرآني عند البلاغيين والعاملين في حقل التفسير وعلوم القرآن، المادة النصية التي نهضت عليها تنظيرات القدماء وتبصراتهم في حبك الكلام وإيقاع المناسبة بين أجزائه. ولا ريب أن اتخاذ كل من النص القرآني والنص الأدبي مركزا للعمل في حبك النص مبرر برغبة في أن تصدر تنظيراتهم عن نماذج لغوية عليا، تزود بالمثال المحتذي. وبدهي أن يكون الوقوف على النماذج الأدبية المعينة مطلعا أو تخلصا أو خاتمة أو وصلا بين الأجزاء، قصدا إلى استهداف النقيض عند صناعة الكلام.

فضلا عن اصطلاح الحبك، استخدمت مفاهيم أخرى تؤدي إليه؛ كالتناسب والالتحام والارتباط والتعلق والمجانسة والمؤاخاة ونحوها. في ظل ذلك قدم القدماء طائفة من التصورات والمبادئ التي ربطت تمام حسن الكلام بحبكه وتناسب المعاني بين أجزائه. يمكن أن نجمل تلك التصورات والمبادئ فيما يلي :

١ - مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام ودلالته على الاستمرارية المعنوية في النص.

٢ - مبدأ مجانسة الجزء للكل، وهو ما رأيناه على نحو تطبيقي في باب " الابتداء والتخلص والانتهاء ". ومن الدراسة التطبيقية، استمدت القوانين التي تحكم كل جزء بما بعده وبما قبله لغويا وموقفيا :

(أ) فالابتداء ذو علاقة موقفية بمقام الاتصال، ولغوية بالوحدات التي تليه: بيتا شعريا، أو جملة في رسالة أو خطبة.

(ب) والتخلص على علاقة لغوية بما قبله وما يليه. ويشترط فيه التدرج.

(ج) والانتهاء قاعدة النص.

٣ - اتخاذ فكرة التناصر أساسا لترتيب المبادئ إلى رتبها الثلاث المعروفة عند حازم.

٤ - اتخاذ معيار المناسبة وفكرة التناصر منظورا لغويا إلى " بنية النص " ، مما يعكس فهما للنص كلا دلاليا متفاعل الأجزاء.

٥ - أنواع اقتران المعاني (أو جهات التعلق)، وهي عند حازم: اقتران التماثل، واقتران المناسبة، واقتران المطابقة أو المقابلة ... الخ.

٦ - ربط مقاصد النظم بقوى فكرية مختلفة: كالقوة على تصور صورة مثلى للقصيدة، والقوة على تنظيم المعاني وتوزيعها بين الفصول، والقوة على ملاحظة وجوه التناسب بين تلك المعاني. وينبغي لما وصل إليه حازم في مبحث "القوى الفكرية" أن يعد من الأسس الإجرائية في تحليل النص وفهمه.

٧ - قوانين الوصل بين الفصول، وتصنيف هذه الفصول – من خلال جهد ظاهر عند حازم في استقراء النصوص – إلى ضروبها الأربعة.

٨ - العلاقات الدلالية التي فطن إليها حازم، فضلا عن "وجوه التناسب" المعلنة في عمل السيوطي أو التي يمكن أن تستنبط منه. نود أن نبرز منها هنا– على وجه الخصوص – أمرين :

(أ) أهمية هذا العمل في تجلية الاختلافات أو القواسم المشتركة بين طبيعة العلاقات الدلالية بين أجزاء النص الواحد والعلاقات الدلالية بين نصين ... في مدونة نصية كبرى، من حيث ظهور العلاقات واختفائها، أو من حيث عدد العلاقات الأقل الذي يلزم وقوعه للربط المعنوي أو المضموني في الحالتين: أو من حيث العلاقة الطردية بين طول النص وعدد العلاقات الكامنة ... الخ.

(ب) أهمية هذا العمل في توكيد دور الاستدلال في اكتشاف العلاقات الدلالية الخفية التي لم يصرح بها الخطاب.

في ضوء ما سبق، يمكن وضع الأيدي على حقيقتين اثنتين على الأقل :

(أولاهما) أن القدماء فهموا النص وحدة كلية مترابطة الأجزاء، متجانسة الدلالات والمعاني والمضامين. ولا يند عن ذلك إلا نظرتهم إلى القصيدة المركبة. وهو ما سنعقب عليه بعد قليل.

و (الأخرى) أن التصورات والمبادئ السابقة جميعا، وهي حصائد فكر المهتمين بصناعة الكلام والنصوص من اللغويين والبلاغيين، تكاد تشغل جميع المنظورات التي حددها ليفاندوفسكي للحبك في علم اللغة النصي :

- فالحبك أداة لغوية لفهم السبك فهما أعمق. نراه في روايات الجاحظ

عن بعض منتجي النصوص. وفي إشارات ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) والحسين بن وهب (ت٣٣٧ هـ) وأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) وابن رشيق (ت٦٣٦هـ) عن: الكلام المضموم إلى لفقه، والكلام الآخذ بعضه برقاب بعض، وانتظام المعاني، وتشاكل المصراعين، وإنباء الموارد عن المصادر، والمشاكلة بين الألفاظ، وربط الحبك بالسبك، وذكر المعنى مع أخيه لامع أجنبي . . . الخ.

- والحبك خاصة من خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، نراه في وجوه التناسب التي اتسع بها السيوطي في عمله عن تناسب السور، حتى خرجت عن العلاقات الدلالية المحددة إلى التناسب بين السورتين في الارتباط بمرجعية واحدة: كأن يكون الموضوع المتكلم عنه واحدا في المطلع أو المقطع.

- والحبك خاصة من خصائص إطار الاتصال الاجتماعي، نراه في اشتراط مناسبة المطالع للمقاصد، ومقامات الاتصال، وأحوال المخاطبين، وما يروق للممدوحين سماعه في فصول المديح؛ فلا يمدح الشاعر بما هو بالرثاء أجدر، وأن يرعى دور المخاطب الاجتماعي: فلكل طبقة ما يشاكلها، فضلا عن رعايته موقف الاتصال الخارجي، فلا يتغزل إذا كان الكلام في حادثة لا يناسبها الغزل.

- والحبك إجراء وحصيلة للتلقي الابتكاري البناء، نراه في كلام حازم عن دور المتلقي في الاستدلال على الشئ بما هو أعم منه، أو في دوره عند السيوطي في الاستدلال على العلاقات الدلالية التي لم يصرح بها الخطاب.

ليس القصد مما سبق تعبئة ما وصل إليه القدماء من تصورات ومبادئ في قوالب جديدة من عمل النظرية اللغوية المعاصرة، وأن القدماء وصلوا إلى ما وصل إليه المحدثون، وانتهو إلى ما انتهوا إليه، حتى لم تعد بنا حاجة إلى تلك النظريات اللسانية المحدثة. المضاهاة السابقة بين منظورات القدماء والمحدثين نوع استضاءة بمحددات المحدثين النظرية المحكمة، وقد كشفت عن إلمام التراث العربي في مجال الحبك بطائفة من التبصرات الجوهرية والخطوط العريضة غني عن البيان أن المنظورات الأربعة التي حددها ليفاندوفسكي للحبك على النحو السابق قد رفدتها اتجاهات لغوية حديثة عدة، مثل اللغويات

الاجتماعية، ونظرية أفعال الكلام، ونظريات التلقي ونحوها. أما اجتهادات القدماء، فقد رفدتها نظرة شمولية ثاقبة في صناعة الخطاب العربي، تجمع بين العلم والذوق. أقصد بالعلم هنا العلم اللغوي بمعناه العام (النحوي والدلالي والمقامي) الذي يلزم توصيف ظواهر كلامية ونصية مفردة، من حيث الصياغة ومن حيث كيفية الوصول إلى المؤثرات الاتصالية المثالية: ترتيب الأفكار، وتنظيم أجزاء الكلام . . . الخ.

أما الذوق، فقد لاحظناه في مواطن كثيرة مما سبق، نحو خلع أوصاف الاستحسان والاسترذال على المطالع والتخلصات والخواتيم، ونحو ربط حازم وغيره بين القصيدة المركبة والنفوس الصحيحة الأذواق. ويمكن أن نضيف هنا تعليق أبي هلال على المناسبة المعنوية بالمطابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم:٤٣- ٤٥] وقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى(٤)وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥)﴾ [الضحى٤- ٥] بقوله: "فأبكى مع أضحك، وأحيا مع أمات، (الذكر والأنثى مع الذكر، والأولى مع الآخرة، والرضا مع العطية، في نهاية الجودة وغاية حسن الموقع"[1]. مثل ذلك ما نراه في السبك أيضاً. أضرب مثالا على ذلك من مبحث "المنافرة بين الألفاظ في السبك". قال ابن الأثير: "أنشد بعض الأدباء بيتاً لدعبل (ت٢٤٦هـ)، وهو:

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك من مكروهها وهو يخلق

فقلت له: عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقبيح: لأنه سبكه قلقاً نافراً، وتلك الفاء التي في قوله: "شفيعك فاشكر" كأنها ركبة البعير، وهي في زيادتها كزيادة الكرش!، فقال: لهذه الفاء في كتاب الله أشباه، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾ [المدثر: ١- ٤] فقلت له: بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا، وبالذوق ثانيا.

أما العلم: فإن الفاء في "وربك فكبر وثيابك فطهر" وهي الفاء العاطفة، فإنها واردة بعد "قم فأنذر". وهي مثل قولك "امش فأسرع" و "قل فأبلغ".

---

(1) كتاب الصناعتين، ص ٤٤٩

وليست الفاء التي في "فشنعت فاشكر" كهذه الفاء، لأن تلك زائدة، لا موضع لها. ولو جاءت في السورة كما جاءت في قول دعبل - وحاش لله من ذلك - لابتدئ الكلام، فقيل: ربك فكبر. وثيابك فطهر. لكنها لما جاءت بعد "قم فأنذر" حسن ذكرها فيما يأتي بعدها من "وربك فكبر. وثيابك فطهر".

وأما الذوق: فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دعبل، ويستثقلها، ولا يوجد ذلك في الفاء الواردة في السورة.

فلما سمع ما ذكرته أذعن بالتسليم "[1].

وهناك فرق جوهري في المادة اللغوية المعتمدة للتحليل بين التراث العربي وعلم اللغة النصي. يلحظ المرء أن نماذج الدراسة النصية منذ عام١٩٧٠م، قد جعلت مركز اهتمامها التعريف بتوظيف النصوص في سياقات الحياة اليومية. وقد تبع ذلك أن تكون مادة التحليل اللغوية نصوص المحادثات التي تمثل جانبا مهما من جوانب النشاطات الاجتماعية اليومية، وهي - كما نعرف - نصوص تبنى على التفاعل المباشر المطلق بين المشتركين فيها. أما مادة التحليل عند العرب، فقد كانت - كما رأينا - النصوص القرآنية والنصوص الأدبية. وغني عن البيان أن النص القرآني يقدم النموذج الأعلى للغة المسبوكة المحبوكة. وفي النصوص الأدبية يرى هؤلاء الباحثون العرب نماذجهم المنشودة. ومعلوم أن ظروفا وأسبابا تاريخية مرتبطة بالمقاصد الكبرى للتأليف والتصنيف في العربية، قد جعلت ذلك أمرا طبيعيا. ولكننا نحسب أن لو كان قدر لطائفة من اللسانيين المحترفين أن يجعلوا الاستخدام اللغوي في شكله التفاعلي المنطوق غير الأدبي مادة لتحليل الطرق التي يتحقق بها الحبك، لكانوا - كما هو المظنون بهم - قد قدموا مزيدا من التصورات والحقائق، على نحو ما رأينا عند لابوف و ودوسون مثلا، من ربط تحقق الحبك بالعلاقة بين أفعال الكلام الإنجازية.

من ناحية أخرى، فإن مقارنة ما انتهى إليه القدماء عن مشكل الحبك في طراز القصيدة المركبة بما استقر في علم اللغة النصي ونظرية تحليل

(١) [illegible]، ٣١٧ - ٣١٨.

الخطاب من مفاهيم مركزية. تؤكد أن الذين حللوا النص الشعري المركب موافقة للنفوس صحيحة الأذواق: عكس ضدها وحده. قد علوا الذوق على العلم. وضربوا بمفاهيم جوهرية في علم اللغة النص ونظرية تحليل الخطاب عرض الحائط: أعني مفاهيم مثل " محور الخطاب Discourse Topic " و " عالم النص Textual world " و " بنية النص الكبرى Macro- Structure ".

في القصيدة المركبة يصبح " محور الخطاب " وعالم النص " و " بنية النص الكبري " على مستوى الفصل الواحد من النص، لا النص الكامل. لكل فصل محوره أو موضوعه الذي تعتمد عليه علاقات الحبك بين الجمل وما تعبر عنه من قضايا. ولكل فصل عالمه النصي الذي يبنيه في ذهن القارئ تناسق المفاهيم والعلاقات في حيز معرفي Knowledge Space بعينه. وعالم النص أحد فروع الموقف. والموقف - كما نعرف - مرتبط بخطط أطراف الاتصال وغاياتهم. مع تباين المفاهيم والعلاقات سيفقد النص الشعري المركب موقفيته الموحدة. وينسحب ذلك على بنيته الكبرى: وذلك أن البنية الكبرى لا تقتصر على العلاقات بين القضايا المتجاورة، إنما هي بنية شمولية تلتقط عناصرها من مجموع قضايا النص المتآلفة. بناء على ذلك، يتعذر تحصيل بنية كبرى واحدة لنص شعري مركب.

بيد أن المرء لا يعدم قصائد مركبة من الشعر بخاصة، يفتح لي التأويل بابا على تآلف المحاور، ومكونات عالم نصي واحد، وبنية كبرى واحدة ولكنها ليست مركبة من طراز: النسيب - المديح، الذي تتاخمه فيه النقلة من كلام عن الذات إلى كلام عن الآخر، ولكنها من طراز النسيب - الفخر، الذي تؤلف بين غرضيه ذات الشاعر. أضرب مثالا على ذلك دالية البحتري (ت٢٨٤هـ) التي مطلعها

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد   أما لكم من هجر أحبابكم بُدُّ ؟ [1]

صنفت هذه الدالية شكلها على أنها في وصف لقاء الشاعر بالذئب وهذا يعني مبدئيا غض الطرف عن فصل النسيب فيها، أو النظر إليه على أنه هامش على متن الوصف. ولكننا نرى أن القصيدة تتوزع بين هند التي غدرت به، وأهله الذين ظلموه، والحياة التي تجره إلى الصراع والمواجهة. ولم يبق

---

[1] [illegible]

مشهد الصراع بين الشاعر والذئب إلا وسيلة فنية للتدليل على أن ذلك الشاعر لدي كانت له الغلبة في ذلك الصراع مع ذئب شرس، إنما هو أقوى من غدر هند ومثلم أهله، وأقدر على أن يخوض - في ذلك المحيط الاجتماعي المتوثب - كافة الصراعات والمواجهات حتى مع ذئاب أخرى من عالم الإنسان، فإن لم يقدر له الفوز أسلم أمره للقدر !.

من أهم ما يدعم التأويل السابق اطراد جملة من المفاهيم التي تدور حول غدر هند والتي تجمع بين فصل النسيب وما بعده: فالكلام فيهما تلاه عن ظلم الأهل وقسوة الحياة. ولعل الفصل الأخير من النص والذي يبدأ بـ :

لقد حكمت فينا الليالي بجورها   وحكم بنات الدهر ليس له قصد

لعله لا يعدو أن يكون خاتمة مطولة مدت قاعدة الدالية، ووقعت مما قبلها جميعها موقع النتيجة من السبب.

بناء على ذلك، نرى النسيب في مثل ذلك النص مختلفا عنه في نصوص أخرى وقد نلاه صريح ولعل عزوف البحتري عن التخلص في موضع يحرص غيره عليه فيه صرنا هنا مما يشد الفصول بعضها إلى بعض من علاقات دلالية.

ومهما يكن من أمر، فقد وقف القدماء على توصيف طائفة من المبادئ العامة للممارسة اللغوية في شكلها النصي من حيث خاصية الحبك، وعالجوا كثيرا من الإشكاليات عن بنية النص وعلاقات أجزائه من خلال جملة من القوانين العامة. على رغم أنهم لم يحرروا في تلك المعالجات على عرف ولم يحملوا فيها على شاكلة وقد نرهن ما انتهى إليه هؤلاء من تصورات ومبادئ عن الحبك على أن للنظرية اللغوية في تحليل النص عند العرب امتدادات بعيدة في مصادر التراث اللساني البلاغي، وأن ذلك التراث ما زالت به إمكانيات مختلفة للتزويد بأصول مرضية لتطوير علم لغوي نصي عربي، وأنه ليس دارا خربة نسجت عليها العنكبوت !

●●● ●●● ●●●

الفصل الثالث

النص الحجاجي العربي

دراسة في وسائل الإقناع

١ – توطئة :

توصيف مكونات البنية الحجاجية للنص الحجاجي العربي نوعا نصيا خاصا، واستقراء وسائل الإقناع المنطقية واللغوية وتحليل صورها المختلفة انطلاقا من معطيات العينات النصية المختارة لهذه الدراسة ذاتها، هما الهدفان الأوليان اللذان تسعى دراستنا إلى تحقيقهما. وقد اقتضى تحقيق هذين الهدفين تمهيد السبيل إلى التطبيق بهذه التوطئة النظرية التي نرمي بها إلى إلقاء ضوء على المفاهيم والأسس النظرية ذات الصلة الوثقى بمحتوى المعالجة التطبيقية.

(أ) أنواع النصوص :

التمييز بين أنواع النصوص وفقا لمعايير لغوية واتصالية هو مجال نظرية أنواع النصوصText Type Theory. لا نعني هنا بتقديم مراجعة شاملة لأدبيات هذه النظرية، ولكننا نمحض القول فيما يناسب أهداف الدراسة. هدف نظرية أنواع النصوص تكشيف خواص البنية اللغوية وأنماط الوظائف الاتصالية التي يغلب ارتباطها بنوع نصي بعينه مقارنا بسائر الأنواع الأخرى. الهدف من تصنيف النصوص إلى أنواع محددة هو دائما اختصار العدد غير المتناهي من نصوص حقيقية إلى أنماط كبرى قابلة للتحديد و التحليل.

كان للاتجاه الموجه إلى النظام اللغوي من منظور بنائي، لا سيما من منظور الملامح النحوية، إسهامه في نظرية النص. كانت نقاط التركيز فيه مختلفة: طرق توزيع الأزمنة في النص، وطرق استخدام العناصر الإشارية، وطرق الربط الإحالي ... إلخ. بيد أن أكثر الإسهامات اللاحقة في نظرية النص قد أثبتت عجز البحوث البنائية الموجهة إلى النظام اللغوي وحده عن أن تمدنا بوسائل كافية لتصنيف مناسب للنصوص من حيث هي واقعات في سياق التفاعل الاتصالي. لقد لوحظ أن النص الواحد يمكن أن يشتمل على أكثر من نوع نصي واحد، وهو ما يوجب أن يتحلى نموذج «نوع النص» بصلاحيته لأداء أفعال لغوية معقدة ذات ارتباطات بالعلامات السياقية الموقفية والعلامات الوظيفية الاتصالية، والعلامات البنائية النحوية والموضعية

جميعا[1].

ويحدد برنكر Brinker ثلاثة معايير للتمييز بين أنواع النصوص في علم اللغة النصي:

١- الوظيفة النصية معيارا أساسيا: ويقود هذا المعيار إلى التمييز بين أنواع نصية خمسة: إخبارية (كالخبر والتقرير) وطلبية(كالقانون والطلب) والتزامية (كالعقد والضمان) واتصالية (كالإعراب عن الشكر) وإقرارية (كالوصية).

لوحظ أن هذه الأنواع المحددة في إطار وظيفة النص واسعة جدا، ويمكن أن توزّع على نحو آخر إلى أنواع أكبر.

٢- المعايير السياقية: وتجرى على مستوى الوصف الموقفي الذي يضم مقولتي «شكل الاتصال Kommunikationsform» و «مجال الفعل Handlung sbereich». ويحدد الموقف الاتصالي من خلال الوسيط الذي تنقل عبره النصوص. ويميز هنا بين خمسة وسائط: الاتصال المباشر (وجها لوجه) والاتصال الهاتفي، والاتصال الإذاعي، والاتصال التليفزيوني، والاتصال المكتوب.

تؤسس العلامات الموقفية التي تخص كل وسيط على حده أنواعا للاتصال، من أهمها: المحادثة المباشرة (وجها لوجه)، والمحادثة الهاتفية، والإرسال الإذاعي، والإرسال التليفزيوني، والرسالة، والمقالة الصحفية أو الكتاب.

٣- المعايير البنائية: وتتخذ في الجانب البنائي المقولتين الموضعيتين: «موضوع النص Text thema»، و«الشكل الذي يظهر فيه الموضوع Form der Themenentfaltung» أساسين للتمييز بين أنواع النصوص :

---

(١) راجع في تفصيل ذلك:
- دوبوجراند (روبرت): النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى القاهرة (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) ص ٤١١.
- حاتم (باسل) - ميسون (إيان): الخطاب والترجمة، ترجمة د. عمر فايز عطاري، النشر العلمي والمطابع بجامعة الملك سعود، الرياض (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) ص٢١٥-٢١٦
- Brinker, Klaus: linguistische Textanalyse. Eine Einfuehrung in Grundbegriffe und Methoden. 3., durchges. und erw. Aufl. (1992) S. 131

(أ) موضوع النص: ويشتمل على التركيز الزمني للموضوع، وهو ما يعرف باسم «التوجه الزمني»: ما قبل الكلام، وزمن الكلام، وما بعد زمن الكلام. مثال ذلك الأنواع النصية: الخبر، والبروتوكول ونحوهما. ويشتمل موضوع النص أيضا على «التوجه المكاني»: أي العلاقة بين المرسل والمستقبل وبين الموضوع :

الموضوع – المرسل

الموضوع – المستقبل

الموضوع – ما يستثنى منه شركاء الاتصال. ومثال ذلك التعليق الصحفي .

(ب) الشكل الذي يظهر فيه الموضوع: ويميز هنا بين النص الوصفي، والنص السردي، والنص الحجاجي أو(الجدلي). هذه الأشكال الكبرى التي تظهر فيها الموضوعات وثيقة الصلة بوظائفها النصية[1].

إذا ميّزنا بين الأنواع النصية الثلاثة: الوصفية، والسردية، والحجاجية، على أساس مفهوم «مراكز الضبط Control Centers في عالم النص، كما فعل دو بوجراند ، لرأينا أن مراكز الضبط في النصوص الوصفية Descriptive هي . في معظمها . تصورات للشيء والموقف، وهي في النصوص السردية Narrativeتصورات الحدث والعمل،وهي في النصوص الحجاجية Argumentative قضايا كاملة تنسب إليها قيم صدق وأسباب لاعتقاد كونها حقائق. ويغلب أن يكون هنالك تعارض بين القضايا التي تتصادم فيها القيمة لكونها موصوفة بالصدقtruth assignment [2].

لقد كان من أهم العلل التي أمسكت بها الإسهامات الأولى في نظرية أنواع النصوص: أن كل نظرية تبحث عن القواعد التي تحكم نصا بعينه، وتنظر هل هي قواعد يختص بها هذا النوع، أم أنها قواعد مشتركة. ومن أهم تلك العلل أن كلا من علوم اللغة وعلم الأدب معنى بمشكل تحديد أنواع

(1) Brinker, Op. Cit., SS 133- 139

(2) النص والخطاب والإجراء ، مرجع سابق ص ١١٥ – ١١٦

[illegible]

[illegible]

[illegible] تشكل

ب) الحجاج والنص الحجاجي :

في علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية المعاصرة عرف الحجاج من زوايا شتى: السمات الموضوعية العامة، أو البنى اللغوية المميزة، أو الغرض البلاغي والوظيفة الاتصالية، أو التقاطع سمة أولية مائزة، ... إلخ. تطول القائمة بالتعريفات إن مضينا مع أدبيات علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية، حتى نراها تدنو كثيرا من جوهر الحجاج تارة وتنأى عنه قليلا تارة أخرى. من أهم التعريفات التي نراها أدنى من غيرها إلى جوهر الحجاج ما يلي :

١- الحجاج عند أندرسين Andersen ودوفر Dovre طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة والتأثير في وجهات النظر والسلوك[٢].

يكون الحجاج طريقة من التحليل والتعليل يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين مما تبنى عليه تعريفات أخرى عدة، نراها عند روبرت هوبر R. Huber[٣]، وعند كل من ماكبورني McBurney وميلز Mills[٤]، وعند كل من فيشر Fisher و سايلز Sayles[٥] وغيرهم.

٢- والحجاج عند بيريلمان Perelman وتيتكا Tyteca طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى زيادة درجات تلك الاستمالة[٦].

---

(١) راجع في تفصيل ذلك
Guelich, Elizabeth - Raible, wolfgang. Textsorten Probleme. IN. Linguistische Probleme der Textanalyse Schwann.Duesseldorf 1 Auflage(1975)SS 144-197 SS 146 [illegible]

(٢) Andersen, Jerry M. Dovre, Paul. J. Readings in Argumentation Allyn and Bacon.Inc Boston (1968) p.3

(٣) Huber, Robert, B. Influencing through Argument. David Mc Kay Co Inc. New York (1963) p.4

(٤) McBurney, J. Mills, g. E. Argumentation and Debate. Mac Millan Co. New York (1964) p. 1

(٥) Fisher, Walter. Sayles, Edward. The Nature and Functions of Argument. In Gerald r. Miller and Thomas r. Nilsen (eds.)). Perspectives on Argumentation Scott Foresman and Co Chicago (1966) pp. 3-27, pp. 3-4

(٦) Perelman Ch. Tyteca Olbrechts. Traite de l'argumentation. Presses universitaire de Lyon (1981) p.92

والاستمالة أو Adherence هي العنصر الأهم الذي تبنى عليه تعريفات أخرى. من أهمها تعريف ريك Rieke وسيلارز Sillars يعرف هذان الباحثان الحجاج بأنه عملية عرض دعاوي تتضارب فيها الآراء، مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على الموالاة لإحدى تلك الدعاوي[1].

٣- وتبرز تعريفات أخرى تكون الحجاج عملا لغويا أو عملية اتصالية أو جنسا من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوناته، على نحو ما نجد في تعريف أوتس ماس Utz Maas، وديبورا شيفرين Deborah Schiffrin، وكل من هاينمان Heinemann وفيهيجر Viehweger:

فالحجاج عند ماس سياق من الفعل اللغوي Handlungszusammenhang تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف في شأنها. هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هي مشكل الفعل اللغوي[2].

والحجاج عند شيفرين جنس من الخطاب، تبنى فيه جهود الأفراد دعامة مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه الذي ينقضون فيه دعامة موقف خصومهم[3].

والحجاج عند كل من هاينمان وفيهيجر عملية اتصالية. هي كل ضرب من ضروب عرض البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمامات[4].

تلك نماذج من أهم تعريفات الحجاج، دارت حول عناصر موضوعية وبنائية ووظيفية شتى. خلاصة تلك التعريفات: أن الحجاج جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية.

---

(١) Rieke, Richard, D. Sillars, Malcolm. (1): Argumentation and the decision Making Process. John Wiley and Sons, Inc. USA (1975) pp. 6-7.

(٢) Mass, Utz: Sprachliches Handeln II: Argumentation. In: Hans Buehler (herdq.): Sprache 2. Fischer Taschenbuch Verlag Frankfurt (1973) SS: 158-178, S. 158.

(٣) Schiffrin, Deborah: Everyday Argument: The Organization of Diversity in Talk. In: Teun A. van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis. Vol. 3: Discourse and Dialogue. Academic Press London 3d Edition (1989) pp. 35-46, p. 35.

(٤) Heinemann, Wolfgang. Viehweger, Dieter: Textlinguistik. Eine Einfuehrung. Max Niemeyer Verlag Tuebingen (1991) S. 249.

في ضوء التعريفات السالفة يمكن تحديد الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي فيما يلي:

١- العلاقة بين أجزاء النص الحجاجي علاقة منطقية logical أكثر من كونها علاقة تصورية Perceptual كما هي الحال في النص غير الحجاجي. ويقصد بالعلاقة التصورية تلك التي تصدر عن تجربة محددة مقيدة بزمن التصور ويحدث التصور. والعلاقة المنطقية علاقة استنباطية invented غالبا، في مقابل العلاقة التصورية المباشرة غالبا في النص غير الحجاجي[1].

يبين وليم برانت William Brandt ذلك بأن جوهر الحجاج إنشاء رابطة مقنعة بني عبارتين، ومن ثم يعتمد النص الحجاجي اعتمادًا كبيرًا جدًا على بنية أساسية عند عالم المنطق؛ وهي بنية القياس المنطقي. وفي الحجاج يرى الحكم على نتيجة القياس حكما على الحجج المقدمة – من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبر عن قضايا محددة: – بأنها صالحة أو فاسدة ،لا حكما عليها بالصواب أو الخطأ[2].

٢- يبنى النص الحجاجي – في شكله الرئيس – على مكونات ستة، هي: الدعوى (أو النتيجة) Claim، والمقدمات أو تقرير المعطيات Assertion of Data والتبرير Warrant، والدعامة Suppor، ومؤشر الحال Qualifier، والتحفظات أو الاحتياطات Reservations :

الدعوى نتيجة الحجاج. هي مقولة تستهدف استمالة الآخرين. تذكر الدعوى صراحة، وقد تضمَّن.

والمقدمات تقرير يصنعه المجادل عن أشخاص أو أحوال أو أحداث. وينبغي للمقدمات أن ترتبط بالدعوى ارتباطًا منطقيًا، حتى تصلح لتدعيمها.

والتبرير بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقا لعلاقتها بالمقدمات.

والدعامة كل ما يقدمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم --

(١) Brandt, William J.: The Rhetoric of Argumentation. 1 st Printing. USA(1970) p. VII

(٢) راجع في تفصيل ذلك: Brandt, W. : The Rhetoric, op. cit., pp. 22-26

إلخ، حتى يجعل المقدمات والتبريرات أقوى مصداقية عند المستقبل.

ومؤشر الحال كل ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدعاوى للتطبيق، نحو: من الممكن، من المحتمل، على الأرجح ... إلخ.

والتحفظات هي الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبولية الدعوى[1].

٣- النص الحجاجي نص تقويمي. والقيمة مفهوم يستنبط مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تشيده المجادلات. والقيم – مع الدليل ومصادر معقولية الأشياء – تكون المادة التفاعلية التي يقدر بها الناس الحجاج الذي يستحق منهم الموالاة[2]. والقيم من أهم المفاهيم التي يبنى عليها النص الحجاجي عند كل من دو بوجراند de Beaugrande ودرسلر Dressler. ومن المفاهيم الأخرى: العلة، والمعارضة. النص الحجاجي – في نظر هذين الباحثين– نص موظف لتقوية القبول أو تقويم معتقدات وأفكار[3].

(جـ) الحجاج والإقناع:

يعرف توماس شايدل Thomas Scheidel الإقناع بأنه محاولة واعية للتأثير في السلوك[4]. ويرى أوستين فريلي Austin Freely الحجاج والإقناع جزءين من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد Emphasis. يولي الحجاج الدعاوى المنطقية أهمية خاصة، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضا الدعاوى الأخلاقية والعاطفية. أما الإقناع، فإنه ينعكس على التوكيد الذي يبطل ضده[5].

في مقابل ذلك يرى كل من هوارد مارتين Howard Martin وكينيث أندرسين Kenneth Andersen أن كل اتصال هدفه الإقناع؛ وذلك أنه يبحث عن تحصيل رد فعل على أفكار القائم بالاتصال[6]. يبدو أن هذين الباحثين

---

(١) راجع في تفصيل ذلك: Rieke - Sillars: Argumentation, op. cit., pp. 77-78.

(٢) المرجع السابق ص ١١٥.

(٣) de Beaugrande,R.- Dressler,W.: An Introduction to Text linguistics. (1981) p. 184.

(٤) Scheidel. Thomas. M: Persuasive Speaking. Scott,Foresman and Co. Glenbiew (1967) p. 1.

(٥) Freely,Austin. J.: Argumentation and Debate. Wodsworth Publishing co. Belmont 2nd. Ed. (1966) p. 7.

(٦) Martin, Howard, H – Andersen, Kenneth, E: Speech Communication. Allyn and Bacon, Inc., Boston (1968) p. 6

يعني بالإقناع هنا معناه العام، وليس الإقناع الحجاجي الذي يصدر عن وسائل منطقية ونحوية خاصة. يمكن توضيح هذه المسألة بالنظر في نصوص الخطابة العربية. يكون النص الخطابي هنا إقناعيًا، ولكنه ليس نصًا حجاجيا بالضرورة؛ لأنه لا يعبر بالضرورة عن قضية خلافية. يعني هذا أن كل نص حجاجي نص إقناعي، وليس كل نص إقناعي نصا حجاجيا. يرتبط الإقناع بالحجاج إذن ارتباط النص بوظيفته الجوهرية الملازمة في محيط أنواع نصية أخرى كالوصفيات والسرديات.

(د) الحجاج عند العرب :

وهو الحجاج والاحتجاج والجدل والجدال والمجادلة. يضرب الحجاج بجذور قوية في الخطاب العربي. فضلاً عن الدور المهم الذي لعبه الحجاج في الحياة العقدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية، وفضلاً عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب العلمي البلاغي، على نحو ما نرى في دفاع عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) عن إعجاز القرآن بإقناع الناس بفكرة النظم، مما طبع دلائله بطبيعة حجاجية واضحة[1]، فضلاً عن كل ذلك، شغل الحجاج بعض القدماء جنسا خاصا من الخطاب. يمكن أن نقف هنا على محاولتين مهمتين في دراسة الحجاج لكل من أبي الحسين إسحق بن وهب (ت ٣٣٧هـ) وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) .

يمكن تصنيف خلاصة فكر ابن وهب في «الجدل والمجادلة» في النقاط الرئيسية التالية:

١- قدم ابن وهب تعريفا دقيقا للجدل والمجادلة، ووضع فيه يده على مقصد الجدل ووقوعه في مسائل خلافية: «وأما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، والتوصل في الاعتذارات»[2]

---

(١) يلاحظ حافظ قويعة أن حجاج عبد القاهر في الدلائل [illegible] منطق قائم على [illegible]، ولا لأن ذلك يؤدي إلى [illegible] ... في رأيه [illegible] حافظ قويعة [illegible] عبد القاهر الجرجاني [illegible] منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، [illegible] تونس (١٩٩٨م) ص ٢٥٣، ٢٦٣، ص ٢٦٠.

(٢) ابن وهب (أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان)، [illegible] تحقيق د. أحمد مطلوب [illegible] الحديثي، مطبعة جامعة بغداد، [illegible] (١٣٨٦هـ ١٩٦٦م) ص ٢٢٠.

٢- الجدل - فيما يفهم من كلام ابن وهب - خطاب تعليلي إقناعي؛ فالجدل إنما يقع في "العلة من بين سائر الأشياء المسئول عنها"[1] وينبغي للمجيب إن سئل أن يقنع، وأن يكون إقناعه الإقناع الذي يوجب على السائل القبول.

وإذا كان الفلج في الجدل إظهار الحجة التي تقنع، فالغالب هو الذي يظهر ذلك"[2].

٣- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصومات ونحوها، فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجبه تلك المقامات، بل هو أوجبها. وليس التمييز بين جدل محمود وجدل مذموم - فيما نفهم من كلام ابن وهب - إلا تمييزا ينظر فيه إلى حضور هذا الاعتبار أو غيابه. الجدل المحمود ما قصد به الحق واستعمل فيه الصدق. والجدل المذموم ما أريد به المماراة والغلبة، وطلب به الرياء والسمعة"[3].

إذا كان القصد هو الحق والصواب، وجب على المجادل «ألا تحمله قوة إن وجدها في نفسه، وصحة في تمييزه، وجودة خاطره، وحسن بديهته، وبيان عارضته، وثبات حجته، على أن يشرع في إثبات الشيء ونقضه، ويشرع في الاحتجاج له ولضده، فإن ذلك مما يذهب ببهاء علمه، ويطفئ نور بهجته، وينسبه به أهل الدين والورع إلى الإلحاد وقلة الأمانة»[4].

والحق أن كثيرا مما اشترطه ابن وهب في «أدب الجدل» ينبغي له أن يعزى إلى ذلك الاعتبار الأخلاقي. ومن أهم ما اشترطه :

(أ) أن يحلم المجادل عما يسمع من الأذى والنبز.

(ب) ألا يعجب برأيه وما تسوله له نفسه حتى يفضي بذلك إلى نصحائه.

(ج) أن يكون منصفا غير مكابر؛ لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه، ويقصده بقوله وحجته.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥، ٢٢٨.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٢.
(٤) المرجع نفسه ص ٢٢٥.

(هـ) ألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به، وإن كان الخصم صغير المحل في الجدال[1].

٤- مما ذكره ابن وهب في مبحثي «الجدل والمجادلة» و «أدب الجدل» ما يمكن أن ينظر إليه الآن من منظور «الاستراتيجيات الاتصالية الحجاجية». من أهم ذلك:

(أ) أن يبنى المجادل مقدماته مما يوافق الخصم عليه[2].

(ب) أن يصرف همته إلى حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه مما يبنى منها مقدماته، وينتج منها نتائجه، ويصحح ذلك في نفسه، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه[3].

(جـ) ألا يقبل قولا إلا بحجة ، ولا يرده إلا لعلة[4].

(د) ألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله، ولا يبادر بالجواب قبل تدبره، واستعمال الروية فيه[5].

(هـ) ألا يشغب إذا شاغبه خصمه، ولا يرد عليه إذا أربى في كلامه ، بل يستعمل الهدوء والوقار، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة في موضعها؛ فإن ذلك أغلظ على خصمه من السب[6].

(و) أن يخاطب الناس بما يعهدون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عما توجبه أوضاع الكلام[7].

٥- قول ابن وهب «إن الجدل إنما يقع في العلة»[8]، مطابق لما تقول به النظرية الحجاجية المعاصرة. في هذه النظرية الكائنات البشرية صانعة علة Reason-Makers ومستخدمة علة Reason-Users. الوقوف على كيفية

---

(١) المرجع السابق ص٢٣٦ -٢٣٩
(٢) المرجع نفسه ص٢٤٤
(٣) المرجع نفسه ص٢١٠
(٤) المرجع نفسه ص ٢٣٧
(٥) المرجع السابق ص٢١٠
(٦) المرجع نفسه ص ٢٣٩
(٧) المرجع نفسه ص ٢٤٣ ، ٢٤٤
(٨) المرجع نفسه ص ٢٢٥

صناعة الناس العلل واستخدامها هو الوسيلة الضرورية لبيان عملية تطوير الدعاوى ومنح الموالاة.

وإذا كانت العلة في جوهرها هي ما يقدم ردًا على السؤال «لماذا»، فإن العلة المقنعة هي العلة في أن المستمع يمنح موالاته [1].

أما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ)، فإن أهم ما يمكن أن يستخرج من نظريته العامة في «التخييل والإقناع» موصولا بموضوعنا، الأمران التاليان :

١- تمييزه بين جهتين للكلام.

٢- تمييزه بين طريقتين لإقناع الخصم.

في تمييزه بين جهتين للكلام يقول حازم: «لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال ...» [2].

لعل لفظ «الجهة» يعني – في سياقه – طريقة إظهار الموضوع. ولعل تمييز حازم بين الإخبار والاقتصاص وبين الاحتجاج والاستدلال، يعدل ما رأيناه في نظرية أنواع النصوص من تمييز بين النوعين السردي والحجاجي.

أما «التمويهات والاستدراجات»، فهي من الاستراتيجيات الحجاجية المهمة. لم يكن حازم أول من فطن إلى الاستدراج. كان ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) قد سبق إلى استخراج هذه الاستراتيجية من النص القرآني. الاستدراج عند ابن الأثير «مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال» [3]. وهو عنده «استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم» [4].

إضافة حازم في ربطه التمويهات والاستدراجات بالطبع والحنكة معا من ناحية، وفي تمييزه بين التمويهات والاستدراجات من ناحية أخرى. يقول حازم: «التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه

(١) راجع في تفصيل ذلك: Rieke – Sillars: Argumentation, op. cit., pp. 2-3.

(٢) القرطاجني (حازم): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس (١٩٩٦) ص ٦٣

(٣) ابن الأثير (ضياء الدين): المثل السائر، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار النهضة مصر للطبع والنشر، ط ٢ (١٩٧٣) ٢/ ٢٥٠

(٤) المرجع السابق ٢/ ٢٥٠

[illegible] ... على ما هم عليه بخطورة سماع المغالطات في ذلك والتدرب في [illegible].

وفي تمييزه بين هاتين الاستراتيجيتين يقول حازم: "التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه أو باطبائه إياه لنفسه، وإحراجه على خصمه، حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول" [1].

جدير بالإشارة هنا أن باسل حاتم كان قد وقف على استراتيجية في الحجاج المضاد Counter argumentation تعرف في التقليد البلاغي الغربي باسم "لعبة الولاء الكاذب Strawman Gambit": وذلك من خلال ما ذكره ابن وهب (وإن كان باسل حاتم قد نسب كلام ابن وهب خطأ إلى قدامة بن جعفر) في قوله: وحق الجدل أن تبنى مقدماته بما يوافق الخصم عليه ...". يقول باسل حاتم: "لما كان قصد المجادل هو أن يقود خصمه إلى قبول الدليل المطروح، فإن عرض الدليل الذي يؤخذ من قول الخصم نفسه سوف يصبح - على نحو مؤكد - الطريقة الأعظم تأثيرًا في إنجاز غايات المجادل ... يعني المؤلف بالإشارة أن ذكر كلام الخصم، ليس يخلو جملة من دوافع خفية: فمنتج النص بذكر كلام خصمه على نحو لا يفضح اعتقاده الراسخ فصحا شديدًا، حتى يحمل دفاع الخصم اللاحق عن موضوعه غير مؤثر. من ثم، يعرض محتوى الاقتباس من قوله في جو من الرفض المراوغ، حتى يفضح ترثرته الفكرية" [2].

---

(1) منهاج البلغاء ص [illegible] [illegible] التمويهات التي [illegible]

- [illegible] الخصم [illegible] السامع
- [illegible] على مقدمات [illegible] أنها صادقة [illegible]
- [illegible] على [illegible] أنه صحيح [illegible]
- [illegible]
- [illegible] (منهاج البلغاء ص ٦٤)

(2) [illegible]

Hatim, Basil, Anatomy of Argumentation from Arabic Rhetoric [illegible] British Society for Middle Eastern Studies Bulletin [illegible]

٢- النصوص المختارة ومكونات البنية الحجاجية :

تبنى الدراسة التطبيقية الثانية على سبعة عشر نصا حجاجيا، خمسة نصوص قديمة والأخرى من العصر الحديث. تختلف هذه النصوص في موضوعات الحجاج: موضوعات اجتماعية، ومكاتبات رسمية، وموضوعات دينية، وفكرية، وأدبية، وسياسية. ومن تلك النصوص ما تمتزج فيها الموضوعات وتتداخل. كالحجاج السياسي من منظورات دينية. أصحاب تلك النصوص مختلفون في أساليبهم ومشاربهم الثقافية ومنطلقاتهم الفكرية. يعطي ذلك كله فرصة أكبر لاستقاء معلومات أوفر عن تفاوت البنى الحجاجية بين تلك النصوص على نحو أو آخر، كما يفسح المجال لاستكشاف الوسائل المختلفة التي توسلت بها للإقناع والاستمالة.

وفيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية :

١- من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبخله (من قوله: تسمون من منع المال- إلى قوله: بجعل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحابه): (كتاب البخلاء للجاحظ ص ٧٨ - ٨١).

الدعوى (مذكورة): المال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو إتلافه.

شكل الحجاج :

مقدمات ———— دعوى ———— تبرير ———— تدعيم

٢- ١ ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا .

النص٢: في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة (٢٠/٤ - ٢١)

الدعوى الرئيسية (مذكورة): جمع محمد ﷺ خصال النبوة وخصال الملك.

شكل الحجاج

مقدمات ———— دعوى ———— تدعيم

النص (٣): [illegible]

الدعوى الرئيسية (مذكورة): هي الدعوى السابقة.

شكل الحجاج

مقدمات ودعوى ———————— تدعيم

تبرير

النص (٤): في مسألة الجبر (٤/٣٥- ٣٦).

الدعوى الرئيسية (مذكورة): ليس أحد من المخلوقين بقادر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما أقدره الله عليه.

شكل الحجاج:

مقدمات ———————— تبرير

دعوى — احتياط

٥- كتاب الإخشيد إلى أرمانوس ملك الروم (جمهرة رسائل العرب٤/٤١٤- ٤٢٥)

الدعوى (مضمنة): الإخشيد لا تقصر منزلته عن منزلة من يكاتبه: أرمانوس.

شكل الحجاج :

مقدمات ———————— تبرير

دعوى

٦- ٧ نصان لطه حسين من كتابه (حديث الأربعاء جـ ٣) :

النص (٦): القديم والجديد (٣/٣١- ٣٦).

الدعوى (مذكورة): ليس للقديم أنصار: أي أن أنصار القديم ليسوا مخلصين في نصرهم للقديم، أو أنهم يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم ينصرونه.

شكل الحجاج

مقدمات ———————— تدعيم

النص (٧): أحسن إلي وأنا مولاك (ص ١٢٠- ١٢٢)

الدعوى (مذكورة): فلسفة الرافعي في الجمال والحب (في كتابه: "رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب") لا تفهم ولا تدل جملتها على شيء.

شكل الحجاج

مقدمات ———— دعوى ———— تبرير ————► تدعيم

٩-١٠ : نصان لعباس محمود العقاد من كتابه (الفصول) :

النص (٨): الغزل الطبيعي (ص٩٤- ١٠١) .

الدعوى (مذكورة): العشق في طبيعته الأولى بعدي عن الرفق والسلامة.

شكل الحجاج :

مقدمات ———— دعوى ———— تبرير ————► تدعيم

النص (٩): الأدب العصري (ص ١٠١- ١٠٨)

الدعوى (مذكورة): التقدم في الأدب تقدم في الإحساس بالأشياء على ما هي عليه.

شكل الحجاج :

مقدمات ———— دعوى ———— تبرير ————► تدعيم

١٠- ١١ : نصان لإبراهيم عبد القادر المازني من كتابه (حصاد الهشيم) :

النص (١٠): الأدب ينهض في عصور المشادة لا عصور اللين والأمن (ص٤٧- ٥١).

الدعوى (مضمنة): العنوان السابق هو الدعوى المضمنة والتي استخرجها الكاتب بنفسه عنوانا لمقاله

شكل الحجاج :

مقدمات ————► دعوى

النص (١١): القدماء والمحدثون (٢٣٣ - ٢٣٩).

الدعوى (مضمنة): القدماء يتميزون بالبساطة.

شكل الحجاج :

مقدمات ← تبرير

دعوى

١٢- ١٣: نصان لخالد محمد خالد من كتابه (دفاع عن الديمقراطية) :

النص (١٢): تجربتنا مع الديمقراطية (ص٣٠ - ٤١).

الدعوى (مضمنة): كان للديمقراطية وجود في بلادنا قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م .

شكل الحجاج :

مقدمات ← تدعيم

دعوى، احتياط، تبرير

النص (١٣): قضية تنتظر الفهم الصحيح (ص١٧٥- ١٨٩) .

الدعوى (مذكورة) الإسلام دين ودولة.

شكل الحجاج :

مقدمات ← تدعيم

دعوى، تبرير

١٤-١٥: نصان لمحمد زكي عبد القادر من كتابه (الله في الإنسان) :

النص (١٤): التعدد في حياة الإنسان (ص١١- ١٥).

الدعوى (مذكورة): حياة الإنسان عملية معقدة متعددة.

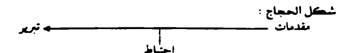
مقدمات ← تدعيم

دعوى، تبرير، احتياط

النص (١٥): من الألم ينبع كل شيء عظيم (ص١٤٨- ١٥٣).

الدعوى (مذكورة): من الألم ينبع كل شيء عظيم

شكل الحجاج :

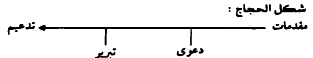


١٦ - ١٧ : نصان للدكتور مصطفى محمود :

النص (١٦): الحب القديم (من كتابه «الإسلام في خندق» ص٧- ١٣).

الدعوى (مذكورة) الدين - في حقيقته - هو الحب القديم الذي جئنا به إلى الدنيا.

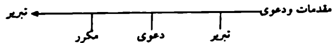
شكل الحجاج :



النص (١٧): أنشودة الأمل (من كتابه «كلمة السر» ص١٥- ١٩) .

الدعوى (مذكورة): الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس .

شكل الحجاج :

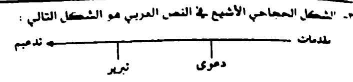


تأمل النصوص المختارة وأشكالها الحجاجية يتيح لنا استنتاج ما يلي :

١- الشكل الأشيع للنص الحجاجي العربي المكتوب هو النص الذي يبدأ بالمقدمات فالدعوى فالتبرير. وربما اقتصر النص على ذلك كما رأينا في النص الخامس. ولكنه في أكثر الحالات يتجاوز تلك العناصر الثلاثة إلى التدعيم وفي حالات غير قليلة يتجاوزها إلى الاحتياط والتدعيم جميعا.

٢- المألوف أن يبدأ النص الحجاجي بالمقدمات، ولكن يندر جدًا أن تشغل الدعوى الموقع المألوف للمقدمات، وهذا ما لم نره إلا في نصين اثنين: أحدهما قديم لإخوان الصفا (النص ٣)، والآخر معاصر لمصطفى محمود (النص ١٧).

٣- الشكل الحجاجي الأشيع في النص العربي هو الشكل التالي :



وهو شكل يتسم بالمنطقية التي تعد أسّ الحركة الحجاجية المتنامية مترابطة العناصر. ترتبط الدعوى منطقيا بالمقدمات. ويحرص الكاتب لجعل خطابه مقنعا ومستميلا على التبرير والتعليل. ويستخدم دعامات لا يخفى ثراؤها.

٤- ربما اتخذت الدعوى في النصوص الحجاجية المعاصرة عنوانا للنص. يعكس هذا – على الأقل – وعي الكاتب القوي بقضيته التي يدافع عنها.

٥- ربما ضمنت الدعوى، ولكنها تذكر في أكثر الأحيان في هيئة منطوق واحد أو أكثر.

٦- يبنى النص الحجاجي عادة على دعوى رئيسية واحدة ، سواء أكانت مذكورة أم مضمنة ، ويلاحظ هنا أن الكاتب يعبر أحيانًا عن هذه الدعوى الواحدة في أكثر من موضع مع النص. هذا ما نجده مثلا في النص١٧ (أنشودة الأمل للدكتور مصطفى محمود). في هذا النص ذكرت الدعوى في أوله: «الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس». (كلمة السر ص١٥)، ثم ذكرت مرة أخرى بعد التبرير في تغيير صياغي طفيف: «إن الدنيا لم تعد هي الدنيا، والناس ما عادوا هم الناس الذين نعرفهم» (كلمة السر ص١٦).

٧- في أكثر الحالات يلحق الكاتب تبريره بالتدعيم ، والتدعيم – في أكثر الحالات – أدلة منطقية وشواهد وأمثال تدعم صحة الدعوى. الدعوى نتيجة الحجاج. هي المقولة التي تقدم لاستمالة الآخرين. قد تذكر وقد تضمن. هي مقولة شاملة أحيانا، وتكيف درجة عمومها أحيانًا أخرى. من عبارات التكييف: من الممكن، من المؤكد ... إلخ. في حالات غير قليلة، يدخل الاحتياط إلى الحجاج، حتى يكون أساسًا للقول بمقبولية دعوى أو عدم مقبوليتها. والتبرير يجيء عن المبدأ العام الذي يبرهن على

صلاحية الدعوى في علاقتها بالمقدمات. ويدعم التبرير الدعامة (أو التدعيم). والتدعيم كل مادة يقدمها المجادل ليزيد من تصديق المخاطب لمقدماته وتبريره؛ ومن ذلك - كما أشرت - الأدلة المنطقية، والشواهد الخاصة، والإحصاءات ... إلخ. وغني عن البيان أن مقدمات الحجاج مكون أساسي، من حيث إنها تقريرات عن أناس، أو أحوال، أو أفعال. وينبغي لها أن تصلح لبلوغ الدعوى.

٨- قد تتفرع عن الدعوى الرئيسة دعوى ثانوية. في النص١٥ («من الألم ينبع كل شيء عظيم» لمحمد زكي عبد القادر) تفرعت عن الدعوى الرئيسة دعوى أخرى ثانوية هي قول الكاتب: «للألم إذن في حياتنا معنى وقيمة» (ص١٥٢). وهي دعوى ثانوية لسببين :

(أحدهما) أن التبرير في النص ينصرف إلى الدعوى الرئيسة.

و(الآخر) أن محور الدعوى الثانوية هو نفسه محور الدعوى الرئيسة، وهو «قيمة الألم». لو لم تكن الدعوى الرئيسة: «من الألم ينبع كل شيء عظيم»، ما كانت الدعوى الثانوية: «للألم في حياتنا معنى وقيمة».

٩- إثبات الكاتب صحة رأيه أو معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده وسيلته التدعيم. وللتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليلEvidence، والتدعيم بالقيمةValue، والتدعيم بالمصداقية Credibility.

(أولا) التدعيم بالدليل: موقف الحجاج الأبسط والأشيع هو - كما يذكر ريك وسيلارز - تقديم إفادة Statement تحظى بموالاة المخاطب. وربما طوّر المخاطب الحجاج بسؤال أو بدعوى مضادة :

◆ المتكلم: لا تخف هنا على سيارتك !

المخاطب : ولماذا ؟

◆ المتكلم : الجو حار اليوم !

المخاطب : لكنه ليس حارًا كالأمس[1].

ولكن الكاتب يطور حجاجه بإضافة مادة مدعمة لدعواه على نحو يجعل القارئ مواليا لتلك الدعوى، وهو ما يسمى بالدليل.

(1) Rieke Sillars, op. cit. P...

في النص الحجاجي العربي، نرى للمادة المدعمة أو الدليل أنماطًا شتى، من أهمها:

(أ) أدلة تاريخية: وهي من التاريخ الأدبي في حجاج أدبي المحور (كما نرى في نصي المازني).

(ب) شواهد خاصة: وذلك كأحدوثة «الخرسوس» التي يرويها طه حسين (في مقاله: القديم والجديد ص٣٢) عن الشيخ المهدي، وكان يخاطب بائع الشراب بما لا يفهمه. أراد طه حسين الاستدلال بهذه الأحدوثة على ما يقع فيه بعض أنصار القديم من تكلف لغة لا تناسب عصرهم.

(جـ) وهناك نوع خاص من الشواهد الخاصة، يسميه ريك وسيلارز باسم «المثال الافتراضي أو النظري hypothetical example»، وهو الذي يستخدم عندما لا تصلح الأمثلة الحقيقية real examples »[1].

لعل من هذا النوع ما نجده عند طه حسين بخاصة. وأسوق نموذجا على ذلك قوله في سياق تمييزه للرافعي بين النقد والثناء الخالص: «كن عاقلا، واعلم أن الثناء الخالص الذي لا يشوبه النقد ، إنما هو كالماء أذيب فيه كثير من السكر، وتوشك إن أسرفت في شربه أن يأخذك الغثيان. وخير لك وأصلح لصحتك أن تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصرًا ثالثًا يحول بينك وبين القيء. فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير في أن تقيء لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئًا يشبه رسائل أحزان»[2].

ويعي كاتب الحجاج أثر الشواهد والأقيسة وضرب الأمثال في دعم دعواه وهو يعبر عن ذلك تعبيرًا في حالات غير قليلة. من النصوص المختارة ما نرى فيها ذلك: كقول إخوان الصفا: «وعلى هذا القياس ...»[3]، أو «وعلى هذا المثال ...»[4] ومن ذلك أيضًا قول المازني: «والآن ، فلنسق لك الأمثال

[1] المرجع السابق ص ٩٩
[2] طه حسين: [illegible] (١٩٨٩)
٢٠٠
[3] إخوان الصفا: [illegible]
[4] [illegible]
٢٠٠

لتوضيح ما نعني[1].

جدير بالإشارة أن بعض القدماء قد "التفتوا" إلى علاقة المثل بالحجاج، ومنهم ابن وهب. يقول ابن وهب عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثال: «وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها»[2]. ويقول: «المثل مقرون بالحجة»[3]. ويشرح مقولته هكذا: «ألا ترى أن الله – عز وجل – لو قال لعباده: «إني لا أشرك أحدا من خلائقي في ملكي، لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدل على العلة فيه، ووجه الحكمة في استعماله، فلما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه؛ لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه، فالله – عز وجل – أولى بأن يتعالى عن ذلك»[4].

(ب) التدعيم بالقيمة: والقيمة مفهوم يستخرج مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تبنيه المجادلات. في ضوء دراسة ريك وسيلازر للتدعيم بالقيمة، يمكن أن نرى الملامح التالية للتدعيم بالقيمة في الخطاب الحجاجي العربي :

(أولا) القيمة معيار للقول بالجودة أو الرداءة. قد تذكر القيمة، وقد تضمن، ولكن تضمينها يقع في حالات كثيرة جدًا :

- من تضمين القيمة عند تدعيم التعليل، ما نراه في غير موضع من نصوص طه حسين بخاصة، كقوله: «وما رأيك في رجل يفلسف في الجمال والحب: أي يضع نفسه بين الفلاسفة ، بل بين كبار الفلاسفة، فلم يفلسف منهم في الجمال والحب إلا قليل، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون

---

(١) [illegible] (١٩٩٩م) ص ٢٢.
(٢) [illegible] ص ١٦.
(٣) [illegible] ص ١٢.
(٤) [illegible] ص ١.

خطلا. فيتحدى ويطلب إلى أن أحضر كتابا كتبته أو نصا من كتابه. أستغفر الله».

يعول الكاتب في تدعيمه هنا على قيمة صدق الكاتب/الإنسان مع نفسه في الفعل. وهو يعتمد على قدرة المخاطب على تعيين هذه القيمة المضمنة من خلال سياق الحجاج السابق.

- ومن التصريح بالقيمة قول خالد محمد خالد: «ولا جدال في أن قضايا السياسة ومشكلاتها ومتطلباتها في الذروة من دواعي الاهتمام وحوافز المشاركة. فاي مسلم يعطي لهذه الاهتمامات ولتلك المشاركة ظهره يكون قد حق عليه قول الرسول الكريم «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[3].

القيمة المصرح بها هنا هي قيمة اهتمام المسلم الحقيقي بقضايا السياسة، وهي وسيلة الكاتب في تدعيم تبريره دعوى كون السياسة في الإسلام عبادة.

(ثانيًا)- تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نمطين اثنين القيمة الوسيلة instrumental value والقيمة الغاية terminal value. الأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة. والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتغياه المتكلم[4].

يبدو من تأمل عينات الدراسة أن خطاب الحجاج العربي يميل إلى القيمة الغاية ميلا أقوى. وهذا أمر مهم : وذلك أن القيمة الغاية أقوى تأثيرًا في الحصول على مستوى من الموالاة adherence يجعل المستقبلين يغيرون من سلوكهم.

من النمط الأول قول العقاد : «ونعتقد أنه ليس أعون لنا على فهم طبيعة العشق الصادق من الالتفات إلى نقطة واحدة: وهي علة استئثار الرجل بالغزل دون المرأة»[1]. ومن النمط الثاني قوله «وإنما الحري بأن يدعي تقدما مثمرا

"التقدم في الإحساس بالأشياء على ما هي عليه"[1].

(ثالثًا) يعتمد خطاب الحجاج العربي في تدعيم التبرير اعتمادًا جوهريًا على القيم التي يكون تمسك الناس بها قويًا أو التي تتسم بالشمولية بسبب موالاة كثير من الناس لها. مثال ذلك «قيمة التغيير» التي اعتمد عليها طه حسين في رأيه في قضية «القديم والجديد»، أو «قيمة الجمع في الإسلام بين الدين والدولة» التي اعتمد عليها خالد محمد خالد في دفاعه عن الديمقراطية، وهي قيمة تكتسب موالاة نسبة كبرى من الناس أو «قيمة الحب» التي اعتمد عليها مصطفى محمود في الكشف عن المفهوم الحقيقي – من وجهة نظره – للدين.

القوة والشمولية من العوامل المساعدة على تعيين القيم السائدة في حضارة أو مجتمع. في خطاب الحجاج العربي، نرى عاملا آخر مهما: هو منزلة الأشخاص الذين يدعمون هذه القيمة أو تلك. إن اقتناع القارئ وإعطاءه موالاته لمثل قول مصطفى محمود: «وأرى أننا مطالبون اليوم أكثر من أي يوم مضى بالعودة إلى روح الإسلام وإلى نبعه الشامل ... إلى فضائل الحب والرحمة والمودة والتقوى وسعة الصدر مع الخصوم ...»[2]. الاقتناع والموالاة اللذان يعتمدان على منزلة الشخصية التي تدعم قيمة ما تطالب به الناس. وأنها صادقة في مطالبتها، وأنها بريئة فيما تطالب به من أي نفع أو مصلحة خاصة.

(جـ) التدعيم بالمصداقية: والمصداقية عامل مهم في الحجاج. في ضوء تحديد ريك وسيلارز لأنواع المصداقية[3]، يمكننا أن نستنبط من نصوصنا الحجاجية المختارة ما يلي:

(أولا) قلما يلجأ الكاتب إلى المصداقية المباشرة: وذلك أنه قلما يقدم عن نفسه إفادات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق. إنما يصرف همه – في المقام الأول – إلى التماس العلل المقنعة. كان أكثر كتاب عينات الدراسة اعتمادًا على المصداقية المباشرة طه حسين وخالد محمد خالد. يؤكد طه

---

(1) [illegible] ص [illegible]

(2) مصطفى محمود [illegible]

(3) [illegible] Rieke, Sillars, pp. [illegible]

[illegible]

حسين شكر عفي برأهنته في نقده قائلاً: «لقد نقدت الناس من قبل [illegible] عليه أصابعهم ولم أرفق بهم»

ويقول خالد محمد خالد في سياق احتجاجه لحاجتنا إلى الديمقراطية وترحيب الإسلام بها: «واعلموا يا من تطالعون هذه السطور أني -والحمد لله- في هذه القضية بالذات برئ الصدر من الغرض. فلا أنا صاحب حزب، ولا عضو في حزب، وليس في نيتي أن أكون كذلك .. ثم إني وإن مارست السياسة «فكرًا» فإني لا أمارسها «عملا»، ومن ثم فلا مطمح لي مهما ضؤل في أن أكون عضوا في برلمان، ولا عضوا في وزارة، ولا رجلا من رجال السياسة، ولا الهواة منهم ولا المحترفين»[2].

(ثانيًا) اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية الثانوية (وهي التي تتأتى من ربط مصداقية شخص آخر بالحجاج) أقوى كثيرًا جدًا من اعتماده على المصداقية المباشرة. ربما يرجع هذا إلى أن كاتب الحجاج العربي يتجانف عن أن يقدم عن نفسه إفادات تاركا ذلك لنص الخطاب وفهم المخاطب.

أما مصداقية الآخر هنا فجلّها للرسول في حديثه، أو الحكماء في أقوالهم (مثل هذا الذي روى عنه محمد زكي عبد القادر أنه لما سئل: من معلمك في الحياة؟ فقال: الألم»[3]. أو ذوى الخبرة في شأن: كالكندي في شأن البخل والحرص على المال، حينما استدل إسماعيل بن غزوان بكلامه على حكمته وحضور حجته[4].

(ثالثًا) من الطبيعي أن يكون اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية المباشرة أقوى من الاعتماد على النوعين السابقين جميعا؛ وذلك أن المصداقية المباشرة تصدر عن تطوير المتكلم حجاجه بطريقة ما تجعله قابلا لأن يصدق. الكاتب هنا صاحب الحجاج، وهو الذي يطوره بكلام له هو في

---

(1) [illegible]
(2) [illegible]
(3) [illegible]
(4) [illegible]

لأساس.

(رابعًا) ومما يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المستقبل عن مصدره. يميل الناس إلى تصديق من يرونهم أكفاء وأمناء. في ضوء خلاصة بحث المصداقية في النظرية الحجاجية المعاصرة التي قدمها ريك وسيلارز في أربع عشرة مسألة، يمكن أن نستنبط من نصوص الدراسة ما يلي :

١- يتمتع أصحاب تلك النصوص جميعًا بكفاءة حجاجية في صناعة العلل وبأمانة في عرض موضوع الحجاج.

٢- أصحاب تلك النصوص جميعا من الرجال. ويلاحظ أن قابلية تصديق الرجال أقوى من قابلية تصديق النساء. يستثنى من هذا بالطبع أن تكون المرأة جذابة جسديا وعقليا.

٣- سمعة أصحاب تلك النصوص مناسبة لطبيعة خطابهم الحجاجي، فكل منهم من أهل الاختصاص في مجال حجاجه الموضوعي.

٤- للإفادات التي قدمها بعضهم عن ذاته، على نحو ما رأينا عند طه حسين وخالد محمد خالد، أثر في زيادة قابلية تصديقهم.

٥- لا يستطيع مستقبلو تلك النصوص الحكم على سلامة نية أصحابها، ولكن نسيج النصوص اللغوي وسياقاتها التاريخية والحضارية تبرهن على سلامة نية أصحابها: فالغاية تعيين الحقيقة – على حسب ما يرونه – أكثر من إحراز نصر على خصم أو معارض.

٦- لا شك أن أصحاب تلك النصوص يستندون في مصداقيتهم إلى التحقق – إلى حد ما – من كنه فهم قرائهم أو مستمعيهم أو طائفة منهم على الأقل.

٧- مصادر التدليل الأقوى سلطة تزيد من المصداقية. نرى ذلك مثلا في المقارنة بين النص القرآني والمثل.

٨- جودة تنظيم الخطاب تزيد من المصداقية. وهذه السمة مشتركة بين جميع عينات الدراسة، على تفاوت فيما بينها. وهو تفاوت يبدو مثلا من مقارنة نص رسالة الإخشيد بنص لمصطفى محمود.

٩- يبدو أن تدفق العبارة في نصوص مصطفى محمود مثلا، وإخراجها في

هيئة صرخات عالية متعاقبة خالية من التكلف أو تأنق في نظام السبك. تزيد – فيما نرى – من مصداقيته.

١٠- وتشترك نصوص الدراسة في سمة أخرى، هي أنها تبنى جميعها على لغة غير متعنتة، ولا يظهر فيها تشبث المتكلم برأيه، مما يزيد من مصداقيتها وحركيتها. وتتأى وفرة أساليب القصر ودوال الاعتقاد في نصوص كاتب كالعقاد، تتأى – فيما أحسب – عن أن تكون مظهرا لتعنت أو تشبث بالرأي؛ وذلك أنها – بالأحرى – سمة أسلوبية تسمح بها العربية آلية للتعبير عن وثوق المتكلم بمعتقده قبل مستمعيه.

٣- وسائل الإقناع :

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من وسائل الإقناع في النص الحجاجي العربي، وهي: الوسائل المنطقية – الدلالية، والوسائل اللغوية، والوسائل الموقفية. التفاعل بين تلك الوسائل جميعًا وأنماطها المختلفة في أداء الوظيفة الإقناعية هو الأمر الطبيعي. وليست معالجة كل نوع منها على حده إلا قصدا إلى بيان صوره وهيئاته البنائية والدور الخاص الذي يشغله في تلك الوظيفة العامة. ونظرا لارتباط الوسائل الموقفية بالخطاب المنطوق في المقام الأول، فسوف نعني بالنوعين الأولين فقط.

(أ) الوسائل المنطقية – الدلالية :

العلاقات النصية التي يقيمها سياق النص الحجاجي – من خلال عرضه على مفهوم النص العام – هي علاقات الدعوى أو النتيجة. ويشترط – من المنظور الدلالي – أن يرتبط محتوى النتيجة بمحتوى المقدمات[1]. ويمكن أن نميز في النص الحجاجي العربي بين الوسائل المنطقية – الدلالية التالية :

أ/١ القياس المنطقي :

القياس المنطقي بنية أساسية في كل خطاب حجاجي، ومن ثم يعبره الباحثون الاهتمام الأكبر. في البيان الأول من برهان ابن وهب، وهو الاعتبار،

---

(1) Schnelle, Helmut: Zur Explikation des Begriffs "Argumentativer Text". In Linguistische Probleme der Textanalyse, Schwann, 1. Auflage (1975) SS. 44-S.6[illegible]

يذكر القياس . القياس في اللغة: التمثيل والتشبيه. ولا يجب القياس إلا عن قول متقدم، فيكون القياس نتيجة ذلك. ربما كان هذا القول في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتجه من أفهام المخاطب ولا يجب قياس عند المناطقة إلا عن مقدمتين، لإحداهما بالأخرى «تعلق»[1].

ويرى إخوان الصفا أن وضع العقلاء للقياسات يصير داعيا إلى طلب الحجة عند خصمائه، ويكون سببا لغوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة ووضع القياسات واستخراج النتائج، ويكون سببا ليقظة النفوس، وانتباهها لها من السهو[2].

أهم ما في كلام ابن وهب إشارته إلى التعلق بين المقدمتين في القياس، وارتباط عدد المقدمات بقدر ما يتجه من أفهام المخاطب أما أهم ما في كلام إخوان الصفا، فهو أثر القياس في النفوس وانتباهها. المخاطب مؤثر في بنية القياس ومتأثر به في آن معا. التعلق بين المقدمات للوصول إلى نتائج والتركيز على المخاطب أو المستمع هما الأمران الأهم في مبحث القياس المنطقي في النظرية الحجاجية المعاصرة؛ فالقياس المنطقي Syllogism وسيلة منطقية من وسائل التعليق بين الأقوال Statements . في القياس المنطقي يصبح أحد القولين مرتبطا بالآخر عن طريق تعليقهما بقول ثالث يمثل طبقة من الموضوعات أو المفاهيم أعلى من القولين الآخرين. وما ينتج عن ذلك هو «المعادل الحجاجي argumentative equivalent لما يسمى ب «الاستدلال deduction» عند المناطقة[3].

يفهم القياس المنطقي فهما أفضل في ضوء تأمل كيفية فهم عالم المنطق له. القياس المنطقي التقليدي هكذا :

كل الناس فانون

سقراط إنسان

سقراط فان

لهذه البنية ثلاثة أقوال: الأول المقدمة المنطقية الكبرى Major Premise والثاني المقدمة المنطقية الصغرى minor premise والثالث النتيجة conclusion.

---

(1) البرهان، مرجع سابق، ص ٧٦ – ٧٨

(2) رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق ١/ ٢٨

(3) راجع في تفصيل ذلك: Brandt, William: The Rhetoric of Argumentation, op. cit. p.24.

ليس المعوّل عليه العدد: فلابد لبناء قياس منطقي من وجود تعلق دلالي منطقي بين الأقوال الثلاثة، وذلك بأن تكون المقدمة الصغرى منضوية تحت الطبقة أو المفهوم الذي تقدمه المقدمة الكبرى، وهو ما يتضح من القياس التقليدي السابق.

وظيفة القياس المنطقي في الخطاب الحجاجي هي الانتقال مما هو مسلم به عند المخاطب. أي المقدمة الكبرى. إلى ما هو مشكل : أي إلى النتيجة.

يقول وليم برانت: «إذا لم يقبل المخاطب المقدمة الكبرى كان الحجاج - إذ ذاك - سدى »[1].

بدلنا فحص عينات الدراسة على أن القياس المنطقي من البنى المنطقية - الدلالية المهمة في النص الحجاجي العربي، ولعله الأهم على الإطلاق.

من أمثلة القياس المنطقي في تلك العينات ما يلي :

♦ يقول الكندي في سياق احتجاجه لبخله: « فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»[2].

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): الحسرة لمن أتلف المال.

(المقدمة الصغرى): إنفاق المال هو إتلافه.

(النتيجة): الحسرة لمن أنفق المال.

♦ ويقول إخوان الصفا في سياق الاحتجاج للعلاقة بين خصال النبوة والإمامة والملك: «والكلام في خصال الإمامة ... قبل معرفة خصال النبوة ... وقبل معرفة خصال الملك وشرائطه والفرق بينهما كلام على غير أصله. وكل كلام على غير أصل هذيان لاتحقيق له»[3].

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): كل كلام على غير أصل هذيان.

(المقدمة الصغرى): الكلام في خصال الإمامة قبل ... كلام على غير أصله.

---

(1) المرجع السابق ص ٣٢

(2) البخلاء ص ٧٨

(3) رسائل إخوان الصفا ٣١/٤

(النتيجة): الكلام في خصال الإمامة قبل ... هذيان.

في النص الحجاجي المعاصر يعتمد الكاتب على القياس المنطقي أحيانًا، لا سيما طه حسين. من نماذجه عند طه حسين قوله عن أنصار القديم: «وإذا فهم بين اثنين: أن يكونوا صادقين حين يبكون القديم ويحرصون عليه، فهم يحبون حياتهم كارهين ويأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأي. فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق. وكيف لا ترحم من يحيا راغما ويلذ راغما ويألم راغما!»[1].

يمكن اختزال القضايا في القطعة السابقة إلى الشكل التالي :

(المقدمة الكبرى): من يحيا حياته كارها خليق بالرحمة.

(المقدمة الصغرى): أنصار القديم (صادقين) يحبون حياتهم كارهين.

(النتيجة): أنصار القديم خليقون بالرحمة.

بدهي أن كاتب الحجاج لا يعرض أقواله دائمًا في الصياغة والترتيب المباشرين كالنموذج القياسي التقليدي، بل كثيرًا ما يخالف في الترتيب ويزيد في العبارة بأحد الأقوال وربما توزعت أقوال القياس على مساحات شتى من النص. ولكن القارئ الذي ينبغي له أن يبذل مع النص الحجاجي جهدا خاصا، لن يعسر عليه معرفة الصلات بين تلك الأقوال وإن تنامت. من ذلك مثلا ما وقع في نص للمازني، وهو مقاله «القدماء والمحدثون». الجملة الأولى من الفقرة الأولى من النص هي: «البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر»[2].

والجملة الأولى من الفقرة الثالثة هي قوله: «كذلك عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة»[3]. العلاقة بين الجملتين تقدم لنا القياس المنطقي التالي :

(المقدمة الكبرى): البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر.

(المقدمة الصغرى): عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة.

(النتيجة): عظماء الدنيا يمتازون بمظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس

---

(١) من مقال القديم والجديد، من كتاب حديث الأربعاء ٣/ ٣١

(٢) مقال «القدماء والمحدثون» من كتاب حصاد الهشيم ص ٢٢٣

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢

والنظر.

١/٢ القياس المضمر :

القياس المضمر Enthymeme أحد أنواع القياس المنطقي. معيار القياس المضمر أنه قياس محذوف المقدمة، وهي عادة المقدمة الكبرى[1] عندما نقول: «الوطن جدير بالولاء لأنه يساعد على تربية المرء»، سوف يستلزم القياس المنطقي الكلي القياس المضمر التالي :

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: كل شيء يساعد على تربية المرء جدير بالولاء.

(المقدمة الصغرى): لمذكورة : وطن المرء يساعد على تربيته.

(النتيجة): وطن المرء جدير بالولاء.

غني عن البيان أن المقدمة المحذوفة سوف تبنى على القولين الآخرين وقد وصل أحدهما بالآخر على نحو مناسب.

من أمثلة القياس المضمر قول طه حسين في سياق احتجاجه لرأيه في الرافعي رمزًا لأنصار القديم: «فإذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يشفقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة، فهي أن يصدقوا حين يكتبون، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ومن هنا فهمنا القدماء»[2].

يمكن عرض القياس المضمر في القطعة السابقة على النحو التالي

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: يفهم الكاتب حين يكون صادقا فيما يكتب.

(المقدمة الصغرى): لمذكورة: كان القدماء صادقين حين يكتبون.

(النتيجة): لمذكورة: ومن هنا فهمنا القدماء.

أشير هنا إلى دور الاستنباط في القياس المضمر، حين يمتد الكلام شيئًا ولا يكون سبيل تقدير الطبقة الكبرى في المقدمة الكبرى إلا بالاستنباط. من ذلك ما نجده في قوله طه حسين عن الرافعي أيضًا من النص السابق

(1) Brandt, William, The rhetoric of Argumentation, [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] حتى [illegible] هذا لبعض عشرى الرافعي قد انتهى به الغرور بالعجب إلى حيث خيل إليه أنه أعصبني، وأني كنت أسمع كلامه فتبتلعني ثيابي [illegible] فقمت بعضي من المجلس اقتلاعا. إلى عرفت منه مرتين. تركته [illegible] عرضي [illegible] إلى الهيكل فتبعني، فتركت له السياسة كلها. وأحظ حتى فسر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه ولو فسره بشيء آخر يشبه استثقال الظل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب وأخطأ حين قرر أن ثيابي كانت تبتلعني، ومم تبتلعني ثيابي؟!

لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أني من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم وصبروا لهم واحتملوا منهم شرا كثيرًا لا ضجرين ولا متحرجين ولا مستخفين في ثيابهم»[1]

يمكن تصوير القياس المضمر في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): (مضمرة): السفهاء من فسروا اقتلاعي من المجلس بأنه أثر الخوف.

(المقدمة الصغرى)(مذكورة): فسر الرافعي اقتلاعي من المجلس بأنه أثر الخوف.

(النتيجة): (مضمرة): الرافعي سفيه (أو أحد هؤلاء السفهاء).

يبدو القياس المضمر في مثل هذه الحال آلية منطقية للوصول إلى نتيجة أو غرض يشبه ما يسمى بالتعريض للبقيا. والتعريض للبقيا آلية في الخطاب يمثل لها القدماء بتعريض الله بأوصاف المنافقين وإمساكه تسميتهم إبقاء عليهم وتألفا لهم»[2].

يستوجب القياس المضمر حضورا يقظا للقارئ مع النص. يستنبط له من سياق الحجاج مقدمته المحذوفة. نضرب مثالا آخر على ذلك قول المازني: «المذهب القديم لا يعول على حجة ولا يستند إلى عقل: فكان وما يزال حسبه من المقاومة الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس وعلى اعتياد الجماهير الطريقة القديمة»[3]

---

(1) المرجع السابق، ص ٢٦.

(2) [illegible]

(3) [illegible]

يمكن تصوير القياس المضمر في هذه القطعة على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): لمضمرنا: الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس ليس حجة ولا يستند إلى عقل.

(المقدمة الصغرى): لمذكورنا: المذهب القديم يعتمد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس.

(النتيجة): لمذكورنا: المذهب القديم لا يعول على حجة ولا يستند إلى عقل.

يتضح مما سبق وفرة إضمار المقدمة الكبرى، حتى صار ذلك معيار القياس المضمر المألوف. ولكن قد تضمر المقدمة الصغرى. نضرب مثالا على ذلك من عينات الدراسة قول طه حسين في سياق احتجاجه لرأيه في العلاقة بين «القديم والجديد»: «نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد. وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة ؟ فقد رأينا في فصل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية، وتلازمها لأنها حية؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطورًا وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال»[1].

ينبغي للقياس المضمر فيما سبق أن يبدو على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): لمذكورنا: القديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية.

(المقدمة الصغرى): لمضمرنا: مصر أمة حية.

(النتيجة): لمضمرنا: القديم والجديد مسألة تلازم مصر.

في القياس المنطقي لابد من قبول المخاطب للمقدمة الكبرى وإلا كان الحجاج عبثا، وفي القياس المضمر يسلم المخاطب جدلاً بتلك المقدمة. القياس المنطقي والقياس المضمر هما الشكلان المنطقيان الأعم في الخطاب الحجاجي العربي.

٣/أ القياس المتدرج :

القياس المتدرج Sorites – شأنه شأن القياس المنطقي – شكل من أشكال تحديد العلاقات المنطقية – الدلالية بين الأقوال وما تعبر عنه من قضايا. يعد القياس المتدرج امتدادا معقدا للتعليل القائم على القياس المنطقي؛

[1] [illegible] حديث الأربعاء، ٣: ١٠٣

وذلك بأن تتصل بعض مجموعات القياسات المنطقية ببعض، حتى تؤدي إلى نتيجة هي المقدمة الكبرى لنتيجة أخرى لاحقة[1].

يمكن أن نضرب مثالا توضيحيا على القياس المتدرج فيما يلي:

كل المسايرين للموضة متحررون من القيود.

كل المتحررين من القيود مزعزعون.

كل المزعزعين مرضى عقليا.

كل المرضى عقليا في حاجة إلى التعاطف.

كل المسايرين للموضة في حاجة إلى التعاطف.

يلاحظ فيما سبق أن المقدمتين الأوليين تقودان إلى نتيجة صالحة «كل المزعزعين مرضى عقليا»؛ وذلك أن التعبير «متحررون من القيود» موزع على المقدمة الصغرى: «كل المسايرين للموضة مزعزعون». وهذه هي المقدمة الكبرى غير المعبَّر عنها والتي تقود مع القول الثالث: «كل المزعزعين مرضى عقليا»، إلى نتيجة أخرى جديدة: «كل المسايرين للموضة مرضى عقليا»، وهي نتيجة ترجع بدورها إلى المقدمة الكبرى التي كان القول الرابع مقدمتها الصغرى، وكان القول الخامس نتيجة القياس المنطقي الضمني والاستنتاج المتدرج الكلي.

تبرهن العينات على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على القياس المتدرج من أحد النصين المختارين له، وهو «القديم والجديد» يقول في سياق عرضه للخلاف الدائر بين أنصار القديم والجديد في الأدب: «نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد – إنها مسألة تلازم الأمم الحية، وتلازمها لأنها حية؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطورا وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال، وكان هذا الانتقال نفسه موجودا للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل. فليس للجديد بدّ من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة، وليس للقديم بدٌّ من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس»[2].

يمكن تصوير القطعة السابقة في نسق القياس المنطقي المتدرج على النحو التالي:

(1) Brandt, William: The Rhetoric of Argumentation, p. 31

(2) [illegible]

- القديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية؛ لأنها حية.
- الحياة تطور.
- التطور انتقال.
- الانتقال موجود للخلاف بين جديد وقديم.
- الجديد لابد له من أن يجاهد (ليظهر). والقديم لابد له من أن يجاهد (قبل أن يزول).
- القديم والجديد مسألة جهاد بين الزوال والظهور.

غني عن البيان أن كاتب الحجاج لا يشغل نفسه دائمًا بأن يجعل أقواله مقيدة بقالب القياس المنطقي المتدرج التقليدي. ربما ظهرت أقواله على هذا النحو، وربما تحررت في نسق النظم بعض الشيء – على نحو ما رأينا في القطعة السابقة – من غير أن يفسد المحتوى الجوهري الذي تؤسس عليه البنية الأساسية لهذا النوع من القياس المنطقي.

يمتد القياس المتدرج غالبًا إلى عدة أقوال، ولكنه قد يبنى على عدد محدود من الأقوال أحيانًا على حسب ما يوصل إلى النتيجة التي يريدها المتكلم. القياس المتدرج التالي قياس غير ممتد؛ لأنه يقدم قولين اثنين فقط، ثم ينتهي بنتيجة القياس. يقول خالد محمد خالد في سياق دفاعه عن [illegible] «إن الأمة التي يزيف تاريخها تكون كأمة بلا تاريخ. وأمة بلا تاريخ كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»[1].

[illegible] القياس المتدرج فيما سبق على هذا النحو:

- أمة زائف تاريخها كأمة بلا تاريخ.
- أمة بلا تاريخ كشجرة اجتثت من فوق الأرض.
- أمة زيف تاريخها كأمة اجتثت من فوق الأرض.

من القياس المتدرج غير الممتد أيضًا قول محمد زكي [illegible] «[illegible] إذا دامت انقلبت إلى ما يشبه الإدمان. لا تختص [illegible] أو حركات. والإدمان يفسد الجسم والروح والعقل»[2].

[illegible] القطعة السابقة القياس المتدرج التالي:

---

[1] [illegible]
[2] [illegible]

- الرفاهية إدمان.
- الإدمان يفسد الجسم والروح والعقل.
- الرفاهية تفسد الجسم والروح والعقل.

يبنى القول اللاحق على جزء من القول السابق حتى ينتهي القياس المتدرج إلى نتيجته. في القياس المنطقي التقليدي تنتمي المقدمة الصغرى إلى الطبقة الأعلى في المقدمة الكبرى. وهذا تمييز واضح بين النوعين.

هذا ويشير وليم برانت W.Brandt إلى أن الاستنتاج المتدرج مهم جدًا للحجاج؛ وذلك أنه يسمح للكاتب بطرح خطوات واضحة تطبع حجاجه بطابع الهدوء، ولكنه الهدوء الذي لا يصل إلى الحركة البطيئة جدًا والتي تضيّع على القارئ انتباهه[1].

من الجائز توسيع ملحوظة برانت السابقة حتى تسرى على أشكال القياس المنطقي جميعا؛ وذلك أنها جميعا تسم الخطاب الحجاجي بسمة الهدوء الذي ينتج عن بنائها على التفصيل والتقسيم، واحتياجها في الربط بين الأقوال وصولا إلى النتيجة إلى الأناة والانتباه.

لعل ارتباط الأقيسة المنطقية بالهدوء متناسب تناسبا طرديا مع ميل النص الحجاجي في موضوع ديني أو فكري إلى توظيف القياس المنطقي والقياس المضمر والقياس المتدرج وسائل إقناعية، في مقابل ميل النص الحجاجي في موضوعات عامة أو اجتماعية إلى الاحتفاء بالقياس على النظير وضرب الأمثال والشواهد من الحياة والخبرات اليومية.

ومهما يكن من أمر، فإننا نرى فيما اشتمل عليه النص الحجاجي العربي من أشكال مختلفة للقياس المنطقي، ما يهدم زعم باربرا جونستون كوخ B.J.Koch[2] تزعم باربرا أن الحجاج الغربي يعتمد على قالب من البرهان قائم على القياس المنطقي Syllogism Model of Proof، في مقابل الحجاج العربي الذي يقنع عن طريق عرض دعاويه الحجاجية argumentative claims عرضا لغويا بالترديد وإعادة الصياغة. عرض الحجاج العربي دعاويه

---

(1) [illegible]

(2) Koch, Barbara Johnstone: Presentation as Proof: The Language of Arabic Rhetoric, Anthropological Linguistics, Vol. 25, No. 1 (1983), pp. 47-60, p. 4.

بين معان والأغراض ... المعنى ...
الوسائل اللغوية المسانعة ... يستخدم ... الإقناع ...
الوسائل المنطقية محسنة على نحو ...

(ب) الوسائل اللغوية :

الوسائل المنطقية واللغوية في كل نص حجاجي هي سداه ولحمته. كانت اللغة الأداة اللفظية لنقل المعنى أو النتيجة في كل قياس منطقي. ولما كانت اللغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبّر عنها وإقناعهم بمصداقيتها، وهو أمر يرغب في البحث عن بدائل لغوية لما نألفه في مواقف غير حجاجية، فإننا نقتصر هنا على استكشاف الوسائل اللغوية ذات الصلة الوثقى بالإقناع وتحليل أنماطها المختلفة. إن تحليل لغة النص الحجاجي من منظور الاختيار اللفظي، والتكثيف اللغوي، وخصوصية البنية المجازية، وكيفيات توزع الجمل البسيطة والمركبة والمعقدة والمركبة المعقدة، وطبيعة الإحالة الضميرية (كاستخدام نحن ونا للمعظم نفسه إزاء خصمه على نحو ما نجد مثلا في مكاتبة الإخشيد إلى أرمانوس)، فضلا عن بحث العلاقة بين اللغة والتقنيات الحجاجية الموقفية: كالاستدارج، والمناورة (لا سيما بالجمل الافتتاحية)، ومحاورة المخاطب المفترض، والتظاهر بالتلقائية ونحوها، لمن مجالات البحث اللغوي الاتصالي المهمة التي تزودنا بمعطيات مفيدة عن النص الحجاجي العربي، نمس إليها الحاجة في حقل تحليل النص العربي. ولكننا – كما أشرنا – سوف نقتصر هنا على تحليل البنى اللغوية التي يغلب وقوعها في النص الحجاجي العربي والتي تزوده بأدوات مهمة في الإقناع والاستمالة، بما يجعله متمايزا – إلى حد بعيد – عن غيره من أنواع النصوص الأخرى.

بناء على ما تقدم، يمكن أن نميز بين عدد من البنى اللغوية، من أهمها: بنية التكرير، وبنية التوازي، وبنية الازدواج أو التوازن.

ب/١ بنية التكرير :

يزودنا استقراء بعض المصادر البيانية بطائفة من المعطيات المهمة عن التكرير، نجملها فيما يلي:

١- التكرير (ويسمى أيضا بالترديد، والترداد) وظائف خطابية عديدة، ...

عنها بالإفهام والإفصاح والكشف[1]، وتوكيد الكلام والتشييد من أمره، وتقرير المعنى وإثباته[2].

٢- ليس التكرير محض وقوع للفظ في الكلام أكثر من مرة، أو صياغة المعنى الواحد أكثر من مرة. يخرج عن حكم التكرير مثلا إطالة الفصل من الكلام وافتقار أوله إلى تمام لا يفهم إلا به. يقتضي سبك الكلام – إذ ذاك – أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل. مثال هذا قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ آل عمران: ١٨٨.

٣- ترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب. يقول ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): «إذا صدر الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجردا من قرينة تخرجه عن وضعه، ولم يكن موقتا بوقت معين، كان ذلك حثا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور، فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام: «قم قم قم» فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة»[3].

٤- التكرير ظاهرة لغوية مقامية. من أهم ما يدل على هذا الفهم إشارة ابن الأثير إلى تكرير المعنى في مقام الاعتذار والتنصل قصدا إلى التوكيد والتقرير لما ينفي عن المتكلم ما رمي به[4].

٥- قدمت محاولات لتصنيف أنواع التكرير. من أشهر التصنيفات ما قدمه ابن الأثير :

(أ) التكرير في اللفظ والمعنى.

(ب) التكرير في المعنى دون اللفظ.

من النوع الأول قولك لمن تستدعيه: «أسرع أسرع». ومن النوع الثاني قولك:

---

(١) ابن الأثير [illegible] ٣/ ٤، ١، ٢٠، ٢٩.
(٢) المرجع السابق ٣/ ١٧.
(٣) [illegible] ٣/ ٣.
(٤) [illegible] ٣/ ٢٩.

نفسي ولا نعصي"، فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية"[1].

- ثمت محاولات أخرى لتصنيف التكرير في النص، ولكنها كانت محاولات جزئية للغاية. من ذلك التفات ابن الأثير إلى أن التكرير في المعنى يدل على معنيين: أحدهما خاص، والآخر عام: كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فإن الأمر بالمعروف خير، وليس كل خير أمرا بالمعروف وذاك أن الخير أنواع كثيرة، من جملتها الأمر بالمعروف"[2].

وكان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) قد قيد التكرير - ويسميه الترداد - بقدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص[3].

في اللسانيات النصية، عولج التكرير من منظور دوره في السبك المعجمي، وذلك أن يحيل اللفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف، أو مرادف قريب، يرتبط به بالإحالة المشتركة[1]. ومن أشهر الأطر المقترحة لوصف السبك المعجمي ما رأيناه عند هاليداي ورقية حسن[4].

ومهما يكن من أمر، فإن وظيفة التكرير التركيبية تخرج عن إطار غرضنا هنا، إنما نعني بتحليل بنية التكرير من منظور الوظيفة الاتصالية الإقناعية. نرى هنا للقدماء إشارات مهمة تفيد في إلقاء الضوء على تلك الوظيفة. يقرن أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) التكرير بتأكد الحجة[3]، ويجعل التكرير مدًا للقول، ومن ثم يربط بين مدّ القول وبلوغه الشفاء والإقناع[4].

شغلت البنية التكرارية للخطاب الحجاجي العربي بال عدد من المستشرقين: ترى شيرلي أوستلر Schirly Ostler - في دراسة تقابلية بين النثر

---

(1) المرجع السابق ٣/٣.

(2) المرجع السابق ٣/ ٢٧.

(3) البيان والتبيين ١/ ١٠٤.

(1) Halliday, M.A.K - Hasan, Ruqaiya: Cohesion in English, Longman 5th Impression (1983) pp. 278-282.

(2) المرجع السابق ص١٨٨.

(3) العسكري (أبو هلال): كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١ (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) ص١٥٦.

(4) المرجع السابق ص١٩٥.

الإنجليزي والنثر العربي أنه «على عكس التطور في الإنجليزية من لغة شفهية إلى لغة كتابية، تظل العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتقاليد شفاهية oral traditions» [1].

وترى باربرا جونستون كوتش B.J.Koch أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على العرض اللغوي للدعاوي الحجاجية بتكريرها وصياغتها صياغة موازية، وإلباسها إيقاعات نغمية بنائية متكررة. وترى أن هذا الطراز من الحجاج هو نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي. وتسمى باربرا هذه الاستراتيجية البلاغية: استراتيجية الإقناع بالتكريرrepeating وبالصياغة الموازية rephrasing وبإلباس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تسميها باسم «استراتيجية العرضPresentation (استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره)» [2].

أما ارتباط العربية بتقاليد شفاهية، فهو أمر تثبته البني اللغوية للنصوص ونرى له آثارا عدة على المستوى الصوتي - الصرفي والمستوى التركيبي معا. ووقوف القدماء من اللغويين والنحاة على تلك الآثار دليل تاريخي قديم على الوعي بوجوده وأما إطلاق كوتش القول بالتكرارية في الحجاج العربي، فأمر نريد هنا تقييده باستقراء النصوص.

تقبل أنماط التكرير في النصوص المختارة لهذه الدراسة أن تصنف بأي طريقة للتصنيف. نختار هنا أن نصنفها إلى صنفين رئيسين: تكرير الشكل، وتكرير المضمون . يشتمل تكرير الشكل على اللفظ المفرد والعبارة أو الجملة، وهو تكرير شكلي في مقابل تكرير المضمون الذي آثرته على ما أسماه بعض القدماء مثل ابن الأثير بتكرير المعنى؛ وذلك أن ما سمي بتكرير المعنى لا يكون المعنى فيه مكررا، بل يتغير بتخصيص أو تعميم أو اشتراك في جزء من المعنى. وإذن ما يجمع المعنى والمعنى هنا نقل مضمون عام واحد.

---

(1) Ostler,Schirley,E. English in Parallels. A Comparison of English and Arabic Prose South California Uni. Pp. 169- 185, p. 172

(2) Koch, B.J. Presentation, op. cit. p.4?

ب ١ ١- تكرير الشكل .

يبقى لنا أولا الإشارة إلى أن تكرير الشكل لا [illegible] إلا إذا وجدنا فيه قصدا إلى ذلك. في مثل قول العقاد [illegible] لا [illegible] شعر بروية [illegible] يقال إنه يعني [illegible] وحده لأن شعر [illegible] يعني كل [illegible]، تكررت الكلمتان الشعر والنصر مرتين. ولكننا لا نرى في هذا التكرير قصدا إلى إقناع لأنه لا سبيل في سلك ذلك المنطوق عن مثل هذا التكرير. وقد مرت إشارة من الأثير إلى حكمه التكرير. وأنه يخرج الحالات التي تطول فيها الفصل من الكلام حتى يفتقر أوله إلى تمام لا يفهم إلا به. تطول الجملة بحالات أخرى يقتضيها السبك ولا أثر فيها لقصد التقرير أو التوكيد أو الإقناع أو نحو ذلك. ولكننا نريد أن نذكر أمثلة للتوضيح من نصوص كاتب واحد هو العقاد.

- قوله «فتهيّج فيها (الأصوات) العاطفةُ العاطفة وتبعث الرغبة الرغبة»[1]
- وقوله «وكأنما ينزع نفسه من نفسه»[2].
- وقوله «لأن المدارك مدارك فرد واحد . والهوى هوى نوع بأسره»[3]
- وقوله «يخالجه الغضب كما يخالجه الطرب»[4].
- وقوله: «ولكنه (أي العشق) غريزة يراد بها بقاء النوع كله واتصال حبل الحياة جيلا بعد جيل»[5].

يمكن أن نرى لبعض هذه الاستخدامات وظائف خاصة، كأن تكون الوظيفة هي الوصف في نحو «جيلا بعد جيل» : أي أجيالا متتابعة، ولكننا لا نرى في غيرها إلا وظيفة سبكية خالصةCohesive Function يقتضيها التركيب. لا بلاغية يقتضيها المقام. مثل هذه الحالات لا موقع لها من الاهتمام في دراستنا.

---

(١) [illegible] ص ٩٠

(٢) [illegible] ص ٩٤

(٣) [illegible] ص ٩٦

(٤) [illegible] ص ٩٩

(٥) [illegible]

(٦) [illegible] ص ٩٩

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل، وفقا لما يتيحه لنا استقراء النصوص المختارة، وهي:

١- تكرير المكرر بذاته، سواء أكان لفظا مفردا أم غير ذلك، في منطوق واحد، أم غير ذلك.

٢- التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة.

٣- التكرير بإعادة الصياغة.

أما (النوع الأول)، وهو تكرير المكرر بذاته، فقد يكون لفظا مفردا؛ كقول طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «فإن كانوا كذلك، فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق. وكيف لا ترحم من يحيا راغما ويلد راغما ويألم راغما!» [1]. وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتغير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث، والطعام الملوث» [2]. وربما امتد تكرير اللفظ في النص الحجاجي العربي امتدادا أبعد كثيرًا حتى يبدو النواة الكبرى في تشييد دعواه الرئيسة. ومن ذلك مثلا كلمة «متعددة» في نص «التعدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظره إلى الأمور له وجوه متعددة، وهو من حيث إنه إنسان له عقل، تخطر عليه تساؤلات متعددة، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة ...» [3].

يريد الكاتب بالتكرير فيما سبق تثبيت تبريره دعواه، حيثما يكون استبقاء المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض ضده.

في حالات أخرى يجعل الكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى الهزء بالخصم وفضح جهله. نضرب مثالا على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرافعي: «فإذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة، فهي أن يصدقوا حين يكتبون، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ومن هنا فهمنا القدماء

---

(١) مقال «القديم وتقليده» من كتابه حديث الأربعاء ٣/ ٣١.

(٢) مقال «أسطورة الأطلال» من كتابه «قمة الهرم»، كتاب اليوم [illegible] (١٩٩٨) ص ١٥.

(٣) مقال «التعدد في حياة الإنسان» من [illegible] ص ١١.

ولم تفهم هؤلاء السادة «المتقادمين»!»[1].

في عبارة «هؤلاء السادة المتقادمين» سخرية واضحة بالخصوم الذين تكلفوا نهج القدماء على غير علم، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ «القدماء» قبلها.

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبنية التكرير قصد السخرية بالخصم. وتكشف مساهمة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كفاءة اتصالية حجاجية عالية. نؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أني من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم» ... ، وأن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحدا، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحدا» [2]. وقعت «السفهاء» في النص السابق أربع مرات يمكن في الموضوع الثاني استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب ويمكن في الموضعين الثالث والرابع الاستغناء عنها، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ تهييج خصمه – موصوفا بالسفه – مع كل مرة ! التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق دحض زعمه وكشف حقيقته.

من ناحية أخرى، قد يكون المكرر بذاته عبارة أو جملة. ويقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعا. يلفت الانتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج أم وقعت المقدمة والدعوى في مكانيهما المعتادين في مقدمة حجاجه ، نرى للكندي هذه الجملة: «إنما المال لمن حفظه». وفي نص دعواه يكرر هذه الجملة مع جمل أخرى برهن فيما سبق من خطابه على صحتها بالتبرير: «فالمال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه»[3]. ينكر طه حسين على أنصار القديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة ، فيقول: «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس

---

[1] طه حسين، من حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦
[2] المرجع السابق ٣/ ١٢٧
[3] البخلاء، ص ٧٨

والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسي رفضا، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة — أريد أن أرى هؤلاء، ولكنني يائس من رؤيتهم»[1]. التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صلاحية معتقده، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة: لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يضاد ذلك المعتقد.

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح، يكرر منطوقه تثبيتا لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى من ذلك مثلا العبارة «ليس من القديم الصالح في شيء» المكررة بصدر كل منطوق فيما يلي: «ليس من القديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلائم بينه وبين اللغة. وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي نصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة، فلا تستطيع أن تنطق باسمها إلا إذا وجدت لها اسما عربيا ورد في المعاجم اللغوية القديمة. ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء ... ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء في وصف الجمال، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا»[2].

وتكرر الجملة جزءًا من منطوق كامل في عجزه أيضًا: كقول محمد زكي عبد القادر في توكيده واحدية مصدر أشياء عدة: «الأدب العظيم جاء من المعاناة، والفن العظيم جاء من المعاناة، والحب العظيم جاء من المعاناة، ...»[3]

يهدف التكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات. إنه يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوما أكثر. إنه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقبل وامتلاكه.

أما (النوع الثاني)، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فتراه في غير نص من النصوص المختارة. يمكن أن نرى من ذلك قول

---

[1] مقال «المذنبون» [illegible] ص ٣٢
[2] [illegible] ص ٣٠
[3] [illegible] ص ١٥١

إخوان الصفا: «واعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس بمجبر لأحد منهم على فعل من الأفعال ولا عمل من الأعمال ولا تركه»[1].

أما مكاتبة الإخشيد، فهي من النصوص الحجاجية القليلة التي تعرض نموذجا يتسع فيه مدى هذا النوع حتى يصير آلية لغوية مهمة من آليات دفع دعوى الخصم وإقناعه بالإقلاع عنها. من هذه المكاتبة قوله مثلا مخاطبا أرمانوس: «وإن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدمك، فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا، ولا أغنى غناءنا، ولا ساس في الأمور سياستنا»[2]. في هذه المكاتبة نجد أمثلة أخرى عدة على هذا النوع، نحو «القدرة القادرة» و«نشر الناشرين» و«قول القائلين» و«يفوت عددها عدّ العادين» و«جبريّة الجبارين» و«شكر الشاكرين» و«سمى لها سميها» و«سلك مسلكها» و «قلت قولا» ... إلخ[3]. تعكس مثل هذه الهيئة من التكرير المبنية على: فعل + اسم فاعل، أو: فعل + مفعول مطلق، تعكس – في سياقها الحجاجي – حالة من حالات التأثير في سلوك الخصم – في منازعة محتدمة – باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس.

أما (النوع الثالث) من أنواع تكرير الشكل، فهو تكرير بتغيير في التركيب، يتسع فيه المدى عادة بين الشكل الأول والشكل الثاني. أضرب مثالا على ذلك قول المازني في سياق البرهنة على فوز المذهب الجديد في الأدب: «ولو شئنا، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب وتحريره، لباهينا بالمذهب الجديد فيه وبفوزه على صنوف الاستبداد»[4]. يبرهن الكاتب على دعواه حتى يخلص إلى قوله مكررا العبارة السابقة في تغيير التركيب: «فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف العنت وضروب الاستبداد»[5]. الترجيع في هذه الحال تشييد للمعنى ووجهة النظر.

---

(1) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٥
(2) كتب (الإخشيد إلى أرمانوس)، في كتاب: جمهرة رسائل العرب، جمع أحمد زكي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١ (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) ٤/ ٢١١
(3) نفسه ٤/ ١٢ - ٤٢٢
(4) ... الشعر المصري ... من كتاب ... ص ١٩
(5) ... ص ١٩

ب/١- ب - تكرير المضمون :

يبنى تكرير المضمون أو المحتوى على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى. وتتيح لنا النصوص المختارة تصنيف تكرير المضمون إلى الأنواع الأربعة التالية:

١- تكرير مفردتين متواليتين أو أكثر، في جملة واحدة أو منطوق واحد.
٢- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواليين.
٣- تكرير مفردتين في ثنائية.
٤- تكرير المضمون بين جملتين متواليتين.

وفيما يلي تفصيل هذه النوع :

(النوع الأول) وهو تكرير مفردتين او أكثر في جملة واحدة أو منطوق واحد لمعنى واحد، أو لمعنى عام واحد. وهذا النوع لم يخل منه نص من نصوص الدراسة، بل تظهر الإحصاءات انه النوع الأشيع؛ فهو يمثل حوالي ٥٤٪ من مجموع انواع تكرير المضمون؛ أي ما يربو على نصف كم الأنواع الأخرى مجتمعة.

يمكن ان نميز لهذا النوع بين أشكال فرعية عدة :

(أولها) يستخدم فيه الكاتب مفردتين أو أكثر على انها مترادفة وأن إحداها يمكن أن تحل محل الأخرى. وهذا الشكل هو أكثر أشكال هذا النوع وقوعا في النصوص الحجاجية العربية. إنه يمثل ما يقرب من ٧٥ ٪ من جملة الأشكال الأخرى.

من أمثلة هذا الشكل قول الكندي لعياله وأصحابه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله»[1].

يرى الكاتب في الجمع بين مفردتين أو أكثر لمعنى عام واحد آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملا، حيثما تقصر المفردة الواحدة – في ذلك السياق الحجاجي – عن أداء هذه الوظيفة. يعني هذا بالطبع أن الترادف لا يبلغ – مهما بدا قريبًا – أن يكون ترادفا كاملا.

و(ثانيها) ارتباط الثاني بالأول ارتباط السبب بالمسبِّب. وهذا الشكل يلي سابقه من حيث الشيوع. ومن أمثلته قول إخوان الصفا في مقدمة احتجاجهم

---

(١) البخلاء ص ٨٠

[illegible] لأمة، وبدرت بين المتخاصمين فيها العداوة البغضاء، وحرت بين [illegible] الحروب والقتال»[illegible].

و(ثالثها) ارتباط اللاحق بالسابق ارتباط التدرج من هيئة لحدث إلى هيئة أخرى. نرى مثالًا على ذلك قول محمد زكي عبد القادر: «لنوقن إذن أن الألم قرين الحياة: بل باعثها ومحركها ودافعها إلى الأمام»[?]. التدرج واضح من [illegible] مجرد إلى حركة مجردة ومن حركة مجردة إلى دفع إلى الأمام. نرى هذا توكيدًا لمقولة اقتران الحياة بالألم في شتى حالاته.

و(رابعها) أن تتضمن الكلمة الثانية الكلمة الأولى، وهو أن تكون علاقة الثانية بالأولى علاقة العام بالخاص. من ذلك مثلا قول العقاد في سياق [illegible] وهما شائعًا بين قراء الشعر: وهو أن شعر الغزل ينبغي له أن يكون مفرطًا في رقته بعيدًا عن العنف والقوة: «ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم [illegible] الكلام وينعقد الصوت ألفاظا وحروفا. فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقا قويا عارماء»[?]. العارم يتضمن القوى بالضرورة. وهو تضمن محدود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى أقوى. وهذا الشكل كثير الوقوع في النص الحجاجي العربي.

و(خامسها) وهو عكس الشكل السابق: أي أن الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى الثانية. ومن ذلك قول الإخشيد في سياق احتجاجه لحسن سياسته ممالكه ورعيته: «وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها، على عظمها وسعتها، بفضل الله علينا ... وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية»[?]. السعة متضمنة في العظم. والتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العام إلى الخاص.

(النوع الثاني) وهو تحرير المضمون المبني على مفردتين في جملتين [illegible] من خلال فحص النصوص المختارة على أنه أقل الأنواع وقوعًا؛ [illegible] من مجموع الأنواع الأخرى، ومن أمثلته قول السعدي في سياق [illegible] على [illegible] الفقر والحاجة [illegible] أو [illegible] على [illegible] على موالي؟»[?] ومنه أيضًا قول

مصطفى محمود في سياق تدعيمه دعواه أن الحب هو رأس القضية: "يوما كان الصليبيون الذين جاءوا غزاة طامعين على دين، أي دين. ولا كان سفاحو الصرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة"[1]. رادف الكندي بين (أوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى. ورادف مصطفى محمود في جملتين من القطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة). في الحال الأولى وقع المترادفان بصدر الجملتين، ووقعا بعجز الجملتين في الحال الأخيرة.

(النوع الثالث) وهو تكرار مفردتين في ثنائية. يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪ من مجموع الأنواع الأخرى، أي ما يقل كثيراً عن سدس تلك الأنواع، بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبيا في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها أن يقع تكرير المضمون على مستوى ثنائية لفظية من جملة واحدة. من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: "وزعمت أننا سمينا البخل إصلاحا والشح اقتصادا، كما سمى قوم الهزيمة انحيازا والبذاء عارضة ..."[2].

ومنه قول إخوان الصفا في سياق القياس على النظير دعما للدعوى: "وعلى هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة"[3]. ومنه أيضاً قول الإخشيد في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: "ويلي في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر، وشدة البأساء، على نعيم الدنيا وخيرها، لحسن منقلبه، وحميد عاقبته"[4].

تدلنا عينات الدراسة على أن تكرير المضمون من هذا النوع يميل غالبا إلى حمل الطرف الثاني في الثنائية اللفظية أعم وأقوى من الطرف الأول فيها.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تكرير المضمون من هذا النوع يبدو آلية أساسية من آليات تشهيد النص وإقناع المستقبل على وجه خاص في بعض نصوص هذه الدراسة، لا سيما مكاتبة الإخشيد. هذه المكاتبة هي الأكثر احتفاء بذلك النوع من سائر نصوص الدراسة.

وهكذا فتكرير المضمون على مستوى الثنائيات اللفظية في [illegible] الحكمية حوالي [illegible]٪ من هذه [illegible] في النصوص الأخرى عموما وهو يعجز وحده

... من تكرير المضمون في نص المكاتبة ذاتها بجميع أنواعه

تؤكد ثنائيات تلك المكاتبة فكرة المكاثرة أو المغالبة التي اقتضاها احتجاج الإخشيد لمنزلته. محور ذلك الاحتجاج، مثل: «عظم الشأن وفخامة الأمر، وكبر الأحلام وبعد المرامي» ... إلخ. وترتبط هذه الثنائيات من ناحية أخرى - على نحو ما سنفصل فيما بعد - باستراتيجية التوازن الغالبة على هذه المكاتبة غلبة قوية، بما يجعلها من النماذج المتميزة بين النصوص الحجاجية العربية على الجمع بين تكرير المضمون من ذلك النوع وبين التوازن.

(النوع الرابع) وهو تكرير المضمون على مستوى الجمل والعبارات. وهذا النوع - كما تثبت نصوص الدراسة - يمثل ما يقرب من ربع حالات تكرير المضمون في النص الحجاجي العربي، فهو يمثل ٢٤.٣٪ من جملة الأنواع.

من أمثلة هذا النوع قول الكندي: «فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه. وإنفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»[١]. - الجملتان الأخيرتان مستخدمتان لمضمون واحد. وربما عبرّ عن المعنى أو المعنيين بتكرير جمل عدة متوالية؛ كقوله أيضًا: «فإن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة. وللقادم حلاوة وفرحة، وللجديد بشاشة وغرة. فإنك متى رددتها ارتدت، ومتى ردعتها ارتدعت»[٢].

ومما يلاحظ هنا أن تكرير المضمون على مستوى الجملة وأشباهها في النصوص الحجاجية العربية الحديثة أقل بعامة منه في النصوص الحجاجية العربية القديمة. بينما النسبة الأعلى في النصوص القديمة هي ٤٠٪ تقريبًا (وذلك في حجاج الكندي لبخله) إذا بالنسبة الأعلى في النصوص الحديثة لا تجاوز ٣٣.٣٪ (عند طه حسين).

تبين المقارنة بين النسبتين - من ناحية أخرى - دنو طه حسين من الأسلوب العربي القديم في الحجاج؛ وهو أسلوب يحتفي احتفاء خاصا بإعادة صياغة المعنى وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيرا مطولا، تغلب فيه السلاسة والتهوء على الانتقالات المفاجئة أو السريعة.

ومن الملائم هنا الإشارة إلى ما لاحظه والتر أونج Walter Ong في قوله:

---

(١) [illegible] ص ١٨.

(٢) [illegible]

«ويميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي – حتى عندما لا يكون في شكل شعري- إلى أن يكون إيقاعيا بشكل ملحوظ؛ لأن الإيقاع – حتى من الناحية الفسيولوجية – يساعد على التذكر»[1].

ولعل طه حسين أدنى المحدثين إلى النمط الشفاهي؛ فهو متأثر أشد التأثر بالنمط التعبيري القديم، فضلاً عن اعتماده على التأثير الإيقاعي عند سبك جمله والربط بينها، كأنما جعل من ذلك كله تعويضا عن نقل كلامه بوساطة الإملاء.

ومهما يكن من أمر، فإن تأمل حالات ذلك النوع، يدلنا على أن الجملة الثانية تميل غالبًا إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشترك معها في الدلالة العامة. ولعل طه حسين والعقاد أحرص المحدثين – ممن اخترنا لهم في هذه الدراسة – على اطراد هذه العلاقة بين الجملتين، مما يجعل لذلك النوع عندهما أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب واستمالته. يقول طه حسين – في سياق رده على الرافعي دعواه أنه كان يحسن اللغة حتى خاف منه خصمه طه حسين: «لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أني يعلم أن من قوم قد بلوا السفهاء، فاحسنوا بلاءهم، وصبروا لهم واحتملوا منهم»[2].

التكرير في (صبروا لهم واحتملوا منهم). ويقول العقاد في سياق دفع دعوى بعض الناس بأن الرقة هي الصفة الأولى للشعر: «ويعلم (العاشق)حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت تصطرع للظهور، وتتاجج للسطوع»[3].

والتكرير في (تصطرع للظهور وتتاجج للسطوع). هذان مثالان للغالب في تكرير المضمون من ذلك النوع عند هذين الكاتبين، وهو الانتقال إلى الأعم والأقوى. وربما بدا تكرار المضمون على مستوى جملتين أو أكثر في هيئة إيضاح أو شرح الثانية للأولى.

---

[1] [illegible]: الشفاهية والكتابية، ترجمة د. [illegible]، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت (١٨٢) ١٩٩٤، ص ٩٤.

[2] [illegible]

[3] [illegible]

[illegible]

ونضرب مثلاً على ذلك قول العقاد في سياق تدعيمه دعواه بأن الرقة لا تستحب في الشعر كله. وإنما هي في غير موضعها. «فمن ذا الذي يسمع الأغاني الشائعة في أيامنا هذه من استقامت فطرتهم وسلمت من المسخ أذواقهم، فلا يحجله أن يكون هذا الطنين الخافت صدى نفوس آدمية ينسب إليهم وتنتسب إليه».

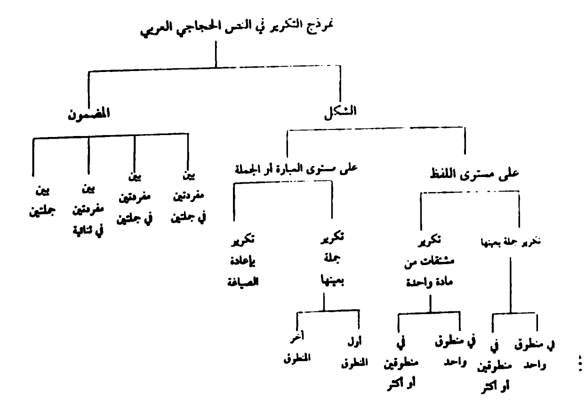
ويقول مصطفى محمود في سياق شرح دعواه بأن الدين هو الحب القديم والحنين الدائم إلى الوطن الأصل. وأنه ليس - كما يفهم الناس - مجموعة لأوامر والنواهي ونوائح العقاب. «ولا نفيق على هذا الحنين إلا لحظة يحبطنا القبح والظلم والعبث والفوضى والاضطراب في هذا العالم. فنشعر أننا غرباء عنه، وأننا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابري طريق» [1].

في كلام العقاد كانت «سلمت من المسخ أذواقهم» توضيحا لـ «استقامت فطرتهم»، وفي كلام مصطفى محمود كانت «أننا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابري طريق» توضيحًا لـ «أننا غرباء».

تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر أوسع من غيره مدى في هذا الخطاب. ولعله - من أجل ذلك - أبلغ أثرا في إقناع المخاطب بوجهة نظر المتكلم أو دعواه أو مصداقيته أو دحض دعوى الخصم مرة بعد أخرى.

مما سبق يمكن عرض نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي على النحو التالي :

[illegible]



نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي
الشكل
المضمون
على مستوى اللفظ
على مستوى العبارة أو الجملة
تكرير جملة بعينها
تكرير مشتقات من مادة واحدة
تكرير جملة بعينها
تكرير بإعادة الصياغة
في منطوق واحد
في منطوقين او اكثر
في منطوق واحد
في منطوقين او اكثر
اول المنطوق
آخر المنطوق
بين مفردتين في جملتين
بين مفردتين في جملتين
بين مفردتين في ثنائية
بين جملتين

وفيما يلي جداول تفصيلية بإحصاءات الأنواع المختلفة لتكرير المضمون:

- الكندي (العدد ١٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٤	٢٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	٣	٢٠٪
بين مفردتين في جملتين	٢	١٣,٣٪
بين جملتين أو أكثر	٦	٤٠٪

- إخوان الصفا (العدد ٣)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٦٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	١	٣٣,٣٪
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- مكاتبة الإخشيد (العدد ٢٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٤	٢٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	٣	٢٠٪
بين مفردتين في جملتين	٢	١٣,٣٪
بين جملتين أو أكثر	٦	٤٠٪

- طه حسين (العدد ١٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٦٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٥	٣٣,٣٪

• العقاد (العدد ٢٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٤٥,٤٪
بين مفردتين في ثنائية	٣	١٣,٦٪
بين مفردتين في جملتين	٣	١٣,٦٪
بين جملتين أو أكثر	٦	٢٧,٣٪

• المازني (العدد ٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١	٥٠٪
بين مفردتين في ثنائية	١	٥٠٪
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٦٦,١٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	١	٣٣,٣٪

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٥	١٠٠٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- [illegible]

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٤	٪٦٦.٦
بين مفردتين في ثنائية	١	٪٤.٨
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٦	٪٢٨.٦

- الإحصاء الإجمالي (العدد ١١١)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٦٠	٪٥٤
بين مفردتين في ثنائية	١٩	٪١٧.١
بين مفردتين في جملتين	٥	٪٤.٥
بين جملتين أو أكثر	٢٧	٪٢٤.٣

ب/٢ بنية التوازي :

قدم هاليدي M. A. K. Halliday في كتابه (مدخل إلى النحو الوظيفي An Introduction to Functional Grammar) منهجا لدراسة التوازي، هو الأدق والأوفى حتى الآن. وهو منهج يصلح تطبيقه على العربية، على نحو ما نثبت في هذه الدراسة. فصل هاليداي منهجه في التوازي تفصيلاً مبينا. نعرض منهجه هنا موجزين – قدر المستطاع – تيسيرًا لمتابعة معالجة التوازي في نصوص الدراسة. التوازي Parataxis عنده ربط بين عناصر متساوية الحال equal status. هناك عنصر سابق initiating وعنصر آخر متصل به أو لاحق Continuing. كل من هذين العنصرين حر: أي له كيانه الوظيفي الكامل. ويميز هنا بين التوازي على النحو السابق والتركيب Hypotaxis: فالتركيب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة: فهناك العنصر المتحكم: وهو عنصر حر، والعنصر المتحكم فيه: وهو غير حر. وكل منطوق خليط من السلاسل المتوازية والمتراكبة. مثال ذلك :

- سأفعل   إن استطعت   ولكني لن أستطيع

١   ١ ب   ٢

نرى هنا علاقة تواز بين «سأفعل إن استطعت» و«لكني لن أستطيع». وتبين هذه العلاقة هكذا: ١ ٢. ونرى أيضًا علاقة تراكب بين «سأفعل» و«إن استطعت». وتبين هذه العلاقة هكذا: أ ب.

يحدد هاليداي العلاقات الدلالية – المنطقية التي تقع بين العنصرين: السابق واللاحق – في بنية التوازي – في علاقتين رئيستين اثنتين:

(١) علاقة التمديد Expansion: وتعني تمديد الجملة الثانية للجملة الأولى بإحدى الطرق الثلاث التالية:

(الطريقة الأولى) الإحكام = (« مساو »): فالجملة الثانية تحكم الأولى كلية أو تحكم جزءا منها. وذلك بأن تقررها بعبارة أخرى، أو بأن تحددها على نحو أكثر تفصيلا، أو بأن تعقب عليها، أو بأن توضحها بمثال:

- فلان لم ينتظر: جرى بعيدا

١ = ٢

الجملة الثانية لا تدخل عنصرا جديدا إلى الصورة، بل تشخص عنصرا مذكورا بالفعل تشخيصا أكثر، بأن تقرره أو توضحه أو تنقحه، أو بإضافة خاصة أو تعليق وصفيين.

(الطريقة الثانية) الإطالة + (« يضاف إلى »): وذلك بأن تمد الجملة الثانية الجملة الأولى بإطالتها عن طريق إضافة عنصر جديد، أو بأن تستثني منها شيئًا، أو بأن تعرض بديلاً (الواو، أو):

- فلان جرى بعيدا، واختبأ فلان وراءه

١ + ٢

(الطريقة الثالثة) التعظيم " (« تكاثر بواسطة »): وذلك بأن تمد الجملة الثانية الجملة الأولى بتمييها بواسطة تكييفها مع ظرف زماني أو مكاني أو علة أو شرط (هكذا، كذلك، لهذا السبب، مع ذلك، مع أن، على أن، ولكن، إذن، من ثم، حينئذ، إذ ذاك ...):

- كان فلان مذعورا: ولهذا جرى بعيدًا.

١ " ٢

(٢) علاقة التصميم Projection: وتعني أن الجملة الثانية تصمم من خلال الجملة الأولى. والجملة المصممة حالتان:

الحالة الأولى أن تكون ملفوظا («يقول») (أي تصميص مزدوج):

[illegible] Locution [illegible] فعلي.

- قال فلان: «سأجرى بعيدًا»

  ١ " ٢

(الحالة الثانية) أن تكون فكرة (' يفكر) (أي تخصيص مفرد) : وذلك بأن تصمم الثانية على أنها فكرة أو بناء معنوي :

- فكر فلان في نفسه : ' سأجرى بعيدا '[1].

  ١ ' ٢

العلاقات المنطقية – الدلالية التي تحكم علاقة التوازي وطرق هذه العلاقات، هي ذاتها التي تحكم علاقة التراكب، ولكن طبيعة علاقة جزأى المنطوق أو المركب الجملي أو العباري أحدهما بالآخر تميز بين التوازي والتراكيب . الجدول التالي يبين هذا التمايز:

العلاقة	الطريقة	التوازي	التراكب
التمديد	الإحكام	س لم ينتظر ؛ جرى بعيدا	س جرى بعيدا ، كما قلنا الجميع
		١ = ٢	١ = ب
	الإطالة	س جرى بعيدا ، واختبأ ص وراءه	س جرى بعيدا ، بينما ص اختبأ وراءه
		١ + ٢	١ + ب
	التعظيم	كان س مذعورا ؛ ولهذا جرى بعيدا	س جرى بعيدا ؛ لأنه كان مذعورا
		١ × ٢	١ × ب
التصميم	التلفظ	قال س : «سأجرى بعيدا»	قال س بأنه كان يجرى بعيدا
		١ "٢	١ "ب
	الفكرة	فكر س في نفسه: ' سأجري بعيد '	فكر س أن يجرى بعيدا
		١ '٢	١ 'ب

[1] من أجل تفصيل ذلك: Halliday, M. A. K. : An Introduction to Functional Grammar. Edward Arnold London – Routledge, Chapman and Hall Inc. U.S.A. 2nd Edition (1994) pp. 215-225, pp. 23-235

يتضح من الأمثلة بالجدول السابق:

١- أن الرقم ١ يشير - في علاقة التوازي - إلى الجملة السابقة، وأن الرقم ٢ يشير إلى الجملة اللاحقة. وكل منهما يماثل الآخر.

٢- أن الحرف أ يشير - في علاقة التراكب - إلى الجملة الحاكمة، وأن الحرف ب يشير إلى الجملة المحكومة؛ أي أن الجملة الحاكمة تقوم على تكييف الجملة الأخرى المحكومة.

في تفصيل أنماط التمديد، يبدأ هاليداي بالإحكام Elaborating، فيجعل له ثلاث صور :

(الأولى) العرض Exposition: وفي العرض تربط الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بتعبير آخر، لتقديمها من وجهة نظر أخرى. وربما لا يكون ذلك إلا لتقوية الرسالة، نحو :

- تلك الساعة لا تمشي، إنها لا تعمل.
- ليست كلبة استعراض، لا أبيعها على أنها كلبة استعراض.
- تدحض إحدى الحجتين الأخرى، كلتاهما ليست صحيحة.

يمكن أن تكون العلاقة بين الجملتين صريحة، وذلك إذا استخدمت الروابط مثل: أو، بالأحرى، بعبارة أخرى، ويمكن أن يقال، أي.

(الثانية) الشرح بالتمثيل Exemplification: وذلك بأن تطور الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بأن تخصصها أو تحددها على نحو أشد. وغالبا ما يكون ذلك بالتمثيل الفعلي، نحو :

- دخلنا في سباق. دخلنا في سباق المجموعات.
- وجهك مثل وجه سائر الناس. هكذا العينان، وأنف في الوسط، وفم أسفل منه.

في هذه الصورة، تستخدم الروابط الصريحة: مثلا، على سبيل المثال، على سبيل الاستشهاد، نحو، مثل، بخاصة.

(الثالثة) التوضيح Clarification: في هذه الصورة توضح الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بإحدى أساليب التوضيح أو بتعقيب توضيحي:

- تنظر فلانة حائرة: كانت تفكر في البودينج.
- كانت حيوانات للاستعراض: اشتريناها فقط لأنها أليفة.
- لم يقل لها شيئا قط: الحق أن ملحوظتها السابقة كانت نحو الشجرة.

التي توسلت بها للإقناع والاستمالة .

وفيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية:

١- من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبخله (من قوله: تسمون من منع المال إلى قوله: بجعل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحابه) : (كتاب البخلاء للجاحظ ص ٧٨ – ٨١) :

الدعوى (مذكورة): المال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه ، وإنفاقه هو إتلافه .

شكل الحجاج:

مقدمات ———— دعوى ———— تبرير ————◄ تدعيم

٢- ٤ : ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا:

النص٢ : في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة (٤/٣٠-٣٤) .

الدعوى الرئيسية (مذكورة): جمع محمد × خصال النبوة وخصال الملك .

شكل الحجاج:

مقدمات ———— احتياط ———— دعوى ————◄ تبرير

النص (٣) : بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة (٣٤/٤) .

الدعوى الرئيسية (مذكورة): هي الدعوى السابقة .

شكل الحجاج:

مقدمات ودعوى ← تدعيم

تبرير

النص (٤): في مسألة الجبر (٤/٣٥-٣٦).

الدعوى الرئيسية (مذكورة): ليس أحد من المخلوقين بقادر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما أقدره الله عليه.

شكل الحجاج:

مقدمات ← تبرير

دعوى — احتياط

د- كتاب الإخشيد إلى أرمنوس ملك الروم (جمهرة رسائل العرب ٤/٤١٤-٤٢٥).

الدعوى (مضمنة): الإخشيد لا تقصر منزلته عن منزلة من يكاتبه: أرمانوس.

شكل الحجاج:

مقدمات ← تبرير

دعوى

٦- ٧: نصان لطه حسين من كتابه (حديث الأربعاء جـ ٣):

النص (٦): القديم والجديد (٣/٣١-٣٦).

الدعوى (مذكورة): ليس لتقديم أنصار ؛ أي أن أنصار القديم ليسوا

- الثورة عرض والانحطاط عرض . كلاهما يزول [1]

١   ٢-

فيما سبق استخدمت الروابط مثل الواو، أي. ولكن كثر إسقاطها في حالات أخرى.

(ثانياً) الإحكام في صورة الشرح: ومنه قول طه حسين :

- (أنصار القديم) يحيون حياتهم كارهين :

١

يأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأي" [2]

٢-

وقوله عن الرافعي :

- هو متكلف يعرض لما لا يعلم ويصف ما لا يحس" [3].

وقول محمد زكي عبد القادر :

- تستبد به النزوات، نزوات المال أو السلطان" [4].

١   ٢ -

(ثالثاً) الإحكام في صورة التوضيح: ومنه قول إخوان الصفا :

- (مسألة الإمامة) باقية إلى يومنا هذا، لم تنفصل ... " [5].

١   ٢ -

وقول طه حسين :

- لم ينكر الفرنسيون ذلك (أن يضيف غيرهم إلى لغتهم)، وإنما قبلوه" [6].

١   ٢-

وقوله :

---

(1) انظر: النقد والنقيد، من كتابه: حديث الأربعاء ٣/ ٣٥

(2) المرجع نفسه ٣/ ٣١

(3) انظر: أحمد أمين، من كتابه: حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦

(4) انظر: النقد في حياة الإنسان من كتابه: فلسفة الإنسان ص ١٥

(5) الرسائل، الجزء الأول صفحة ٣٠١

(6) انظر: نقد حديث، من كتابه: حديث الأربعاء ٣/ ...

- اللغة ليست من وحي السماء، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني[1].

٢٠ ١

ومما يلاحظ في التمديد بالإحكام أن النص الحجاجي العربي يميل إلى الإحكام بالتوضيح والإحكام بالعرض ميلا أقوى، وإن كان ميله إلى الإحكام بالتوضيح هو الأقوى على الإطلاق.

(ب) وأما التمديد بالإطالة، فترى له أيضًا نماذج مختلفة من صورتيه: الإطالة بالإضافة، والإطالة بالتنويع.

(أولا) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفى محمود :

- الابن يقتل أباه، والأم تقتل ابنها[2].

٢٠ ١

والإطالة بالإضافة نمط بارز جدًا عند مصطفى محمود بوجه خاص.

(ثانيا) ومن الإطالة بالتنويع: قول محمد زكي عبد القادر :

- من الألم ينبع كل شيء عظيم، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء عظيم[3]

٢٥ ١

يعبر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتنويع هكذا :

س ولكن ليس كل س؛ أي هي إطالة باستثناء شيء ما من العنصر السابق.

ومن الإطالة بالتنويع أيضًا قول إخوان الصفا :

- لم يضف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعا[4].

٢٠

(١) المرجع السابق ٢/ ٣٣

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) المرجع السابق ٤/ ٣٣

ويعبر عن هذه الصورة هكذا: ليس س ولكن ص.

(جـ) وأما التمديد بالتعظيم، فنرى له في نصوصنا الحجاجية المختارة صورا عدة، من أهمها ما يلي:

(أولا) التعظيم بالإشارة إلى الزمان، ومنه قول إخوان الصفا:

- أقام النبي بمكة نحوا من اثنتي عشرة سنة،

١

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة [1].

٢*

وتسمى هذه الصورة بالتعظيم الزماني المتقدم: أي: أ قبل ب.

(ثانيا) التعظيم بالطريقة، ومنه قول إخوان الصفا أيضًا:

- كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا،

١

وهكذا كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) [2].

٢*

ما سبق يمثل التوازي في علاقة التمديد بالتعظيم في هيئة الطريقة من النوع الثاني وهو المقارنة. «هكذا» فيما سبق تعني: «بهذه الطريقة»، ويقصد بها في هذه البنية من بنى التوازي المقارنة. هذه العلاقة نراها شائعة شيوعا خاصا في نصوص إخوان الصفا.

(ثالثا) التعظيم في هيئة العلاقة: سبب ← أثر، ومنه قول طه حسين:

- كان القدماء صادقين حين يكتبون، ومن هنا فهمنا القدماء [3].

١ ٢*

تبرهن نصوص الدراسة على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على هذه العلاقة.

(٢) علاقة التصميم:

كان الاعتماد الرئيس في بنية التوازي بالنصوص الحجاجية التي بين

(١) الرسائل ١/ ٣٣

(٢) [illegible] ١/ ٢٣

(٣) [illegible] حديث الأربعاء ٣/ ١٢٦

١٠٠

أيدينا على علاقة التمديد. أما حالات التصميم، فعددها بعدد حالات مقول القول، سواء أكانت لصاحب النص أم لغيره. وهي قليلة جداً إذا قورنت بعلاقة التمديد.

من التصميم بالقول قول إخوان الصفا :

- قال أزدشير: إن الملك والدين أخوان توأمان[1].

١ ٢و

ومنه قول الكندي :

- قال (صاحبنا لبني تغلب): إني والله كنت أجرى ما جرى هذا الخيل[2].

١ ٢و

ومن التصميم بالفكرة قول طه حسين :

- فدرته في نفسي (شيئًا آخر): لو أن للرافعي حظا من الإنصاف .. [3].

١ ٢'

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ندرة التصميم بالفكرة في النصوص الحجاجية العربية ندرة بالغة .

التوازي بالمفهوم الاصطلاحي عند هاليداى بنية تركيبية أثيرة في خطاب الحجاج العربي. في هذا الخطاب تعد تلك البنية استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإقناع بوجهة النظر. فضلا عن تقاطع بنية التوازي أحيانًا مع بنية التكرير المضموني، على نحو ما يمكن أن نرى في بعض نماذج طرائق التمديد: كقول الكندي: «فاحذروهم ... ولا تأمنوهم»، أو قول طه حسين: «الثورة عرض والانحطاط عرض، كلاهما يزول»، نرى كذلك إطنابا قصد به الإقناع في بعض حالات التمديد بالعرض والشرح والتوضيح. وعندما يقول محمد زكي عبدالقادر مثلا: «من الألم ينبع كل شيء عظيم ... ولكن ليس كل ألم ...»، فإنه يستعين بالنسق: س ولكن ليس كل س، على إقناع القارئ بمصداقيته: الكاتب يظهر استقصاءه الذي لا يشك في دقته، إذن

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٤/ ٣٢

(٢) البخلاء ص ٧٩

(٣) مقال: أحسن إليّ، من كتابه: حديث الأربعاء ٣/ ١٢٥

يطمئن إلى صدق دعواه.

كذلك الحال مع النسق الآخر: ليس س ولكن ص، الذي يقدم العنصر الأول من بنية التوازي بطريقة تفرض على المخاطب أن يستنتج العنصر الثاني: أي أنه يقدم العنصر الأول لمصلحة حصر المعنى في العنصر الثاني. المتكلم يقول للمخاطب: أهمل المعنى أو الفكرة في ١ واعتمد فقط على ٢٠ . بعبارة أخرى: ترسم ٢٠ حركة حجاجية معاكسة – أو على الأقل مخالفة – لوجهة النظر في ١.

ب/٣ بنية الازدواج :

من المعروف أن «المزدوج» من أقسام الشعر، وهو ما أتى على قافيتين قافيتين إلى آخر القصيدة. يمكن للوهلة الأولى النظر إلى «المزدوج» في النثر على أنه من باب حكايته بنية إيقاعية جوهرية في الشعر ذات تأثير سمعي وعاطفي في المستمع، ولكنا نحسبه أصيلا في نثر لغة ذات أصول شفاهية.

عولج المزدوج عند البيانيين مظهرًا من مظاهر الجودة في صناعة الكلام. يستخلص من جملة ما ذكره القدماء عن «الازدواج» وما اختاروا له من نماذج من كلام العرب :

١- أن الازدواج تكوينات كلامية متوازنة الأجزاء في عدد وحداتها اللغوية، وهيئات ترتيبها، وفواصلها.
٢- أن الازدواج يقع أيضًا، على رغم الاختلاف بين الأجزاء في أحد الاعتبارات الثلاثة السابقة، يقع في اعتبارين اثنين منها أحيانًا.
٣- إذا لم يقع التوازن بين الأجزاء في الطول، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير أطول، وإن كان ورد في كلام العرب الفصحاء ما كان فيه الجزء الأخير أقصر.
٤- توازن الأجزاء توازنا كليا أجمل وجوه التوازن.
٥- فضلاً عما للتوازن من أثر سمعي إيجابي في رونق الكلام، فإن له علاقته بتمكين معناه[1].

(1) يراجع: البيان والتبيين ٢/ ١١٦، كتاب الصناعتين ص ٢٦٠-٢٦٤، المثل السائر ١/ ٢٩١

ومهما يكن من أمر، فإن استقراء نصوص الدراسة من حيث الاعتبارات المختلفة التي توفر للعبارات المزدوجة توازنا، يدلنا على إمكان تصنيف التوازن في أنواع ثمانية، يعرضها الجدول التالي (العلامة + تعني توفر الخاصية) :

الاتفاق في الزنة		الاتفاق في الترتيب	الاتفاق في الفاصلة
تام	ناقص		
+		+	+
	+	+	+
		+	+
	+		+
			+
+		+	
	+	+	
		+	

وفيما يلي تفصيل تلك الأنواع :

(النوع الأول) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في زنة الوحدات وعددها وهيئة ترتيبها، وفي الفاصلة: ومن ذلك قول الكندي في سياق تبريره دعواه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله، وعن باكورات الفاكهة : فإن للنفس عند كل طارف نزوة وعند كل هاجم بدوة » [1].

(النوع الثاني) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في زنة وحداتها اتفاقا ناقصا، فضلا عن الاتفاق في الترتيب والفاصلة: ومن ذلك قول الإخشيد مخاطبا أرمانوس: «والذي تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير، لأمر عظيم خطير» [2].

(النوع الثالث) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب والفاصلة دون زنة الوحدات: ومن ذلك قول العقاد: «كانت تسمع أكثر الأصوات تنوع نبرات، وتفاوت مقاماته» [3].

---

(١) البخلاء ص ٨٠

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤/٢٠٦

(٣) مقال الغزل الطبيعي، من كتاب ... حصون ص ٩٥

(النوع الرابع) التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقا ناقصا مع الاتفاق في خصيصة دون الترتيب ومن ذلك قول نعمة في سياق سخريته من تكلف الرقة في الشعر: «فقد بنة هذا التكلف على رأيه دجين، ويضعف عن قبول في الطباع غير جميل».

(النوع الخامس) التوازن بالاتفاق في الفاصلة دون سائر الملامح الأخرى: ومن ذلك قول الكعكي في سياق تبريره دعواه: «ورسول الله ﷺ لم يرحم عيالنا لا يحمل رحمة لنا».

(النوع السادس) التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقا تاما وفي الترتيب دون الفاصلة. ومن ذلك قول طه حسين في سياق تقرير معطياته للجدال في مسألة القديم والجديد: «فكان هذا الانفصال نفسه موجودا للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل».

(النوع السابع) التوازن بالاتفاق الناقص في زنة الوحدات، والاتفاق في الترتيب دون الفاصلة. ومن ذلك قول الخضندي مفوراً دعواه عن المال: «وإنفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب». ومنه قوله أيضا في سياق حججه على من أنفق ماله: «فصدهم عن مدح صنوف الخطأ، وصدهم من جميع صنوف الصواب».

(النوع الثامن) التوازن بالاتفاق في ترتيب الوحدات فقط، ومن ذلك قول خالد محمد خالد في سياق تبرير دعواه: «فالديمقراطية حركة مجتمع، وسبيل أمة، ومنهج دستور». وقد يبدو هذا النوع في هيئة التقسيم الحسن الذي تتكرر فيه بعض الوحدات، كقول محمد زكي عبد القادر في سياق احتياطه لدعواه: «ولا تصور للسعادة من غير خطوة تصاحبها، ولا تصور للعاجز من غير فشل يصحبه». وقد يبدو في أحوال أخرى أقل في هيئة التقسيم

[illegible]

الحمس الذي يتكرر فيه بعض الوحدات مع تقفية قبل نهاية الجزء. من ذلك مثلا قول طه حسين في سياق نقده شريره: «وثق انهم ليسوا أقل الناس استمتاعا بلذات الحياة ، وليسوا أقل الناس استيطانا لما فيها من بشع»[1].

مما يلاحظ هنا أن الأنواع السابقة من ١- ٢ أكثر وقوعا في النص الصحفي العربي القديم منه في النص الصحفي الحديث يرتبط هذا بالطبع بسمات النسق الكتابي العامة أو الغالبة بين كلا العهدين. ويلاحظ – من ناحية أخرى – أن الأنواع من ٤- ٨ أكثر من سابقاتها وقوعا في النصوص الصحفية العربية بعامة، وإن كان النص الصحفي العربي الحديث يبدي ناحيتها ميلا أقوى.

ينبغي الإشارة أيضًا إلى أن نصوص الصحاح الحديثة تتفاوت فيما بينها احتفاء ببنية الازدواج. يقل الازدواج عند العقاد، ويندر عند المازني وخالد محمد خالد ومحمد زكي عبد القادر ومصطفى محمود. ولكنه أكثر من ذلك وقوعا في صوره الأربعة الأخيرة مما سبق عند طه حسين. وإذا نظرنا إلى الازدواج من منظور الوحدة التركيبية التي يقع فيها، فكان يكون ازدواجا بين عبارات من جملة واحدة، أو ازدواجا بين جمل تامة قائمة بذواتها، لرأينا طه حسين أكثر ميلا إلى استخدام الازدواج بين الجمل.

وإذا قارنا بين نصوص اثنين من القدماء هما السعدي والإخشيد (الذي يكتب له كتابه في رسالته إلى أرمانوس طاراز العصر في الصناعة الصحافية) واثنين من المحدثين هما طه حسين والعقاد، لرأينا أن الازدواج في النصوص الصحافية القديمة يكاد يكون قسمة بين وقوعه في العبارات ووقوعه في الجمل، ولكن الغلبة في النصوص الصحافية الحديثة تبدو للازدواج بين جمل تامة. والجدول الإحصائي التالي يبين ذلك:

	بين عبارات من جملة	بين جمل تامة
طه حسين	٪٢٨,٦	٪٧١,٤
العقاد	١٦,٦	٪٨٣,٢

من الناحية الدلالية، تتقاطع حالات التوازن مع حالات ينتظمها تكرير المضمون أو التقابل أو التخالف. تجمع الجملتان: «خارت عزائمها ومارت دعائمها» في كلام العقاد بين التوازن والتكرير المضموني. ويجمع الجزآن في جملتين: «فمدحتم من مدح صنوف الخطأ، وذممتم من جمع صنوف الصواب» في كلام الكندي بين التوازن والمقابلة. وتجمع الجملتان: «يقرءون مثل هذا الشر ويحتملون مثل هذا المنكر» في كلام طه حسين بين التوازن والمخالفة في المعنى.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن حالات تقاطع التوازن بالتكرير المضموني يمثل ما يقرب من ثلاثة أرباع حالات تقاطعه مع العلاقات الدلالية الأخرى بين الأجزاء المتوازنة. وهذه مسألة مهمة للغاية لكل من التوازن والتكرير المضموني. نحن أمام مثل هذا القدر من العبارات والجمل المتوازنة على مستوى الشكل والمترادفة أو شبه المترادفة على مستوى المضمون. وهذه هي المنطقة المركزية الأهم التي تتفاعل فيها البنية والدلالة وتشتغلان معا في النص الحجاجي العربي وقد تهيأت له مكوناته الحجاجية المختلفة قصدا إلى تثبيت تشير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الحجاج.

إذا كان التوازي - بمفهومه الاصطلاحي الذي رأيناه آنفا - بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات دلالية منطقية، فإن التوازن على نحو ما نرى بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات سمعية من طول وزنة وفاصلة تعكس فكرا مرتبا متزنا مقنعا.

والحق أن بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين قد خلط خلطا ذريعا بين التوازي والتوازن. أولى بما ذكره عدنان جبوري وباربرا جونستون كوتش من حالات للتوازي أن تعد من حالات التوازن:

حلل عدنان جبوري نصا حجاجيا لمصطفى أمين في عموده الذي كان معنونا تحت عنوان «فكرة». من أمثلة جبوري على التوازي في هذا النص قول مصطفى أمين: «وكم من أحزاب حكمت ثم حوكمت. وتولت ثم اندثرت. وارتفعت ثم سقطت»[1]

[1] Al-Jubouri, A.J.R. The Role of Repetition in Arabic Argumentative Discourse. In Swales, J. and H. Mustafa (eds.), English for Specific Purposes in the Arab World. Birmingham: Language Services Unit, Aston [illegible]

وحللت باربرا جونستون عدداً من النصوص الحجاجية تقع في النصف الثاني من القرن العشرين. من أمثلة باربرا على التوازي النصان التاليان:

(١) «ظل الألمان منقسمين بين عشرات الدول والدويلات المستقلة، وظل الطليان موزعين على ثماني وحدات سياسية، والبولونيون مقسومين بين ثلاث دول قوية، واليوغوسلافيون خاضعين إلى حكم دولتين عظيمتين».

وتسمى باربرا هذا النوع باسم التوازي الكاشف Listing parallelism، وهو – كما تقول – نوع من التوازي الضيق المحكم بين عبارات كاملة، تتميز بأنها أجزاء من النص، تكشف عن أمثلة وتفاصيل.

(٢) «فكان من الطبيعي أن تنشأ الفكرة القومية، وتترعرع وتقوى بسرعة كبيرة في البلاد الألمانية بعد النكبات التي توالت عليها خلال تلك الحروب. وكان من الطبيعي أن ينتشر فيه الإيمان بوحدة الأمة الألمانية. وكان من الطبيعي أن يدفع هذا الإيمان مفكري ألمانيا وساستها إلى مكافحة النزعات الإقليمية بكل قوة وحماسة».

وتسمى هذا النوع باسم «التوازي التراكمي Cumulative parallelism». وتعرفه بأنه نوع من التوازي غير التام على نحو ما كان في المثال الأول. وهو تراكمي لأن العناصر الثلاثة «كان من الطبيعي» من نوع التأثير التراكمي؛ وذلك أن كل عنصر يبنى على العنصر الذي يسبقه"[١].

نرى أن حالات التوازي عند هذين الباحثين ينبغي لها أن تدرج في حالات التوازن. هي ليست من التوازي بمفهومه الاصطلاحي في شيء، إلا إذا التمسنا لها وجها من كلام القدماء. أورد أبو هلال العسكري أمثلة عدة على المزدوج من كلام الأعراب، حوفظ فيها غالبا على الطول والترتيب والفاصلة، ثم علق عليها قائلاً: «فهذه الفصول متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض بل في القليل منها، وقليل ذلك مغتفر لا يعتد به»[٢]. قصد بالتوازي هنا – فيما يفهم السياق – سوق كل جزء بإزاء الآخر وعلى شاكلته في الطول والفصل والترتيب. ولكننا الآن، وقد صار التوازي يعني في المفهوم الاصطلاحي شيئا

(1) Koch, Barbara Johnstone. Presentation as Proof, op. cit., p. 56.

(٢) [illegible]

أمر مختلفًا، لا نرى للخلط بينهما وتسمية أحدهما باسم الآخر وجها سائغا.

وعلى عكس جبوري وباربرا، فهمت شيرلي أوستلر Schirley Ostler التوازن على حقيقته من الناحية النحوية، تبدو العربية – وفقا لشيرلي – مجاهدة من أجل تحقيق التوازن Balance، على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر مترابطة وهي ترى هذا التوافق (أو السيمترية) على مستوى نظم الجملة، وبه تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والعبارات[1].

●●● ●●● ●●●

[1] Ostler: Schirley, F. English in Parallels, [illegible]

الفصل الرابع

تعديل القوة الإنجازية

دراسة في التحليل التداولي للخطاب

١- توطئة :

على رغم تواصل الخطاب النقدي العربي المعاصر مع نظريات النقد الأدبي في الغرب الأوروبي والأمريكي تواصلاً حاراً، تبدّى في محاولات عدة للإفادة من مبادئ الاتجاهات الشكلانية والبنيوية والأسلوبية والسيميائية والشعرية وغيرها من الاتجاهات ذات الأصول اللسانية في مجالات النقد النظري والتطبيقي، فإن التداولية Pragmatics باتجاهاتها المختلفة ما زالت على هامش النقد العربي، في الوقت الذي تبدو فيه تحولاً كبيراً في مسيرة النظرية الأدبية المعاصرة، يقترب يوماً بعد يوم من مركز الاهتمام في نظريات الخطاب والتأويل الأدبي. قامت اللسانيات التداولية على تحليل مقاصد الخطاب ومقاصده: إذ عنيت بدراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمتكلم، ودراسة الاستلزام الحواري، ودراسة كيفية كون الاتصال شيئاً أوسع من مجرد القول، ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية. نهضت اللسانيات التداولية على مكونات ثلاثة: فضلاً عن تحليل المحادثات، وتحليل الفروق الحضارية والتفاعلات اللغوية من منظور العلوم الاجتماعية، نهضت اللسانيات التداولية على فلسفة اللغة، وعلى تداولية أفعال الكلام بوجه خاص. إذا كانت نظرية تحليل الخطاب ونظرية التأويل الأدبي ركيزتين قويتين في النظرية الأدبية المعاصرة، فقد كانت تداولية أفعال الكلام من أهم الدعائم اللسانية التي ساعدت هاتين النظريتين على النمو والازدهار.

لقد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه "فعلاً لغوياً" Speech Act " يدل عليه قصد المتكلم، ومن حيث إنها برهنت على أن إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية. من ثم أفسحت أدبيات النظرية الأدبية المعاصرة المعتبرة مجالا واسعا للتعريف بتداولية أفعال الكلام وتكييف بعض مفاهيمها لأهداف التحليل الأولى الخاصة، ورأتها ضرورية لاكتمال دائرة فهم المنطوقات والنصوص مرتبطة بوظائفها وسياقاتها الحقيقية. لقد عولت دراسات سيميائية عدة على

منهجية تداولية أفعال الكلام، من أهمها "سيمياء المسرح والدراما ١٩٨٠" الذي أفاد فيه كير إيلام Keir Elam من بعض الأسس المنهجية التي قامت عليها تداولية أفعال الكلام. انتهى إيلام إلى أن قدرة اللغة الاجتماعية والتواصلية والأدائية- أو تداولية فعل الأشياء بالكلمات هي التي تسيطر في الدراما: وذلك أن الخطاب الدرامي كناية عن شبكة من الأقوال والأفعال الإنجازية، وهذا يعني أن التفاعل اللغوي ليس تفاعلاً وصفياً بقدر ما هو ذاتي وأن الحوار ضرب من الفعل الذي يؤدي إلى تضارب قوى العالم الدرامي الشخصية والاجتماعية والأخلاقية"[1] ومن أهم ما عني به إيلام كذلك هو بيان كيفية انبثاق الصراع الدرامي من خلال تصادم استراتيجيات الأفعال اللفظية Locutionary Acts باستراتيجيات الأفعال الإنجازية Illocutionary Acts"[2]

كان ديتر فوندرليش Dieter Wunderlich قد عني ببيان ما تقدمه النصوص- أو مقاطع منها - من مساعدة في تحديد الأفعال الكلامية المقصودة. بين فوندرليش أن الفعل الكلامي يمكن أن يشغل وظائف عدة في وقت واحد. يمكن للمنطوق أن يكون إقراراً من الناحية الدلالية (وفقاً لشروط النجاح المحددة للمنطوق) ولكنه من الناحية التداولية (أي وفقاً لوظيفته في الخطاب) استنكار شرح فوندرليش هذه الفكرة من خلال الحوار التالي:

١- الأم: كلاوس! ألا تأتي إليّ؟
٢- الابن: لماذا؟
٣- الأم: آه، ما زلت هناك، لتناولني الوسادة!
٤- الأم: عندما تفرغ مما بيدك، تعال إليّ، نعم.
٥- الابن: لماذا؟
٦- الأم: لنتطف أسناننا.
٧- الابن: (...) هذا ما يفعله أبي
٨- الأم: نعم، يفعله

٩- الابن: أبي! ساعدني في حسابي!

١٠- الأب: تستطيع أن تعمل هذا وحدك.

١١- الابن: لا. اعمل هذا أبي.

١٢- الأب: طيب!

١٣- الابن: تعال يا أبي.

لاحظ فوندرليش أن المنطوق رقم ٧ في المحادثة السابقة يعد من الناحية الدلالية إثباتاً أو إقراراً، ولكنه رفض أو استنكار من الناحية الاتصالية التداولية(١).

وفي كتابه المعروف "النص والسياق ١٩٨٠" عني فان دايك Van Dijk بتطوير تداولية أفعال الكلام عن طريق توجيهها من مجال الجملة (أو المنطوق) عند مؤسسها جون أوستين John Austin إلى طريق النص. وكان من أهم ما صنعه في ذلك الكتاب تحليله ما أسماه "أفعال الكلام الكبرى Marco-Speech Acts". الفعل الكلامي الأكبر عند فان دايك هو فعل الكلام الإجمالي الذي يؤديه منطوق الخطاب الكلي والذي تتجزء سلسلة من أفعال الكلام المختلفة. انتهى فان دايك هنا إلى أن سلسلة الأفعال الكلامية تفسر بأنها فعل كلامي واحد. إذا كانت تشير إلى مقصد إجمالي واحد. ويمكن لهذا الفعل الكلامي – على مستوى أعلى- أن يكون بدوره شرطاً أو نتيجة لأفعال كلامية أخرى(٢). أطلق فان دايك على أفعال الكلام المفردة (أو البنية الطولية لسلاسل أفعال الكلام) اسم "التداولية الصغرى"، وأطلق على دراسة التنظيم الكلي للتفاعل الاتصالي: أي التنظيم الكلي لمتواليات الأفعال الكلامية والسياقات وعلاقتها ببنية الخطاب، اسم "التداولية الكبرى". الفعل الكلامي الذي تؤديه متوالية من الأفعال الكلامية هو إذن فعل كلامي إجمالي Global Speech Act أو فعل كلامي أكبرMarco-Speech Act تفسر متوالية الأفعال الكلامية فيما يلي مثلاً بأنها فعل إجمالي واحد هو

---

(١) Wunderlich, Dieter: Was ist das für ein Sprechakt? In: Günther Grewendorf (Hrsg.): Sprechakttheorie und Semantik. Suhrkamp Verlag. Frankfurt (1979) SS. 275-324, SS.290-291

(٢) Van Dijk, Teun A.: Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse. Longman. London and New York (1980) P.215

بعد ذلك يتأمل ما رسمه ولده الصغير:

ولكن هذا رسمه جميل جداً! هل أنت الذي رسم هذا؟

ـ بالطبع، أنا الذي رسمه

ـ مثلاً، جميل. لكنني أرى أنك بحاجة إلى ألوان أكثر

ـ نعم، لقد كاد الأزرق أن ينفد

إذن سأشتري لك بعض الألوان الجديدة

ـ لا تنسها ثانية.

ـ كلا! لن أنساها أبداً!

يبدو من ذلك أن هذه المحادثة قد اشتملت على أفعال كلامية عدة كالمدح والسؤال والتصريح والاقتراح والتوكيد والوعد. ولكن الوظيفة الإجمالية هي الوعد، وربما كانت الوعد في شاء[1]

أسهم كثير من محللي الخطاب في توظيف تداولية أفعال الكلام في تحليل خطاب محادثة. وصنع ميخائيل ستوبس Michael Stubbs [illegible] أفعال الكلام التعاونية Cooperative Speech Acts [illegible] [illegible] في ذات أكثر من [illegible] بين ستوبس أن [illegible] [illegible] تلك الأفعال [illegible] في مجموعة في [illegible] [illegible] في [illegible] حل الخطاب ذاته.

في كتابه المعروف النظرية الأدبية ١٩٩٧ يورد جوناثان كلر Jonathan Culler فصلاً كاملاً لمفهوم المنطوقات الأدائية Performatives [illegible] كيف رحبت النظرية الأدبية المعاصرة بذلك المفهوم، وكيف [illegible] [illegible] الأدائية بوصفها شيئاً يساعد على [illegible] [illegible] [illegible] وكيف [illegible] المنظرون طويلاً أنه يجب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأدائية [illegible] [illegible] [illegible] وكيف [illegible] الأدائية [illegible] في الأدب بوصفه [illegible] أو حدثاً [illegible] [illegible] الأدب [illegible]

[illegible]

[illegible] ولكنه
[illegible]

مع تطور موقعية النص على خريطة النظرية الأدبية المعاصرة، والنظر إلى النص في نظريات النص والتأويل بوصفه - كما يقول راسل جاكوبي Russell Jacoby - نتاج اشتباك بين نص وقارئ أو مجموعة من القراء(). صار للسيميائيات التداولية عامة وتداولية أفعال الكلام بخاصة دور مهم في منهجية التأويل وفلسفته العامة، فيما يسمى تداولية التأويل Pragmatics of Interpretation ضربت جذور التداولية في حقل نظرية الاستقبال الألمانية Rezeptionstheorie ممثلة في مدرسة كونستانس عند ياوس وايزر، تلك النظرية التي تعاملت مع موضوع التأويل الأدبي، وفهمت التأويل داخل نموذج اتصالي تداولي، وسلمت بمرجعيات تشارلز موريس Ch. Morris - وهو من جعل للتداولية معناها المعروف - والتي سلمت بتحليلات جون أوستين.

بناء على ما تقدم، تأمل هذه الدراسة - من منطلق الاقتناع بأن كل تطور في النظرية اللسانية يؤدي بالضرورة إلى تطور في النظرية الأدبية مساو له في القوة والاتجاه - تأمل في أن تكون فاتحة اتصال بتداولية أفعال الكلام وتطبيقها على العربية من خلال أحد مفاهيمها المركزية الفاعلة في حقل تحليل الخطاب، وهو مفهوم "تعديل القوة الإنجازية Modifying Illocutionary Force"، الذي أراه جديراً بأن تفتح له دراساتنا اللسانية والأدبية أبواب الاهتمام والرعاية.

٢- القوة الإنجازية :

وضع الفيلسوف اللغوي البريطاني جون أوستين John Austin (١٩١١-١٩٦٠) معالم نظرية أفعال الكلام بكتابه الذي صدر في عام ١٩٦٢م؛ أي بعد وفاته بعامين. كان أوستين قد جعل الفعل الكلامي Speech Act أنواعاً ثلاثة: الفعل اللفظي Locutionary Act، والفعل الإنجازي Illocutionary Act،

[illegible]

الفعل التأثيري Perlocutionary Act في المنطوق: "أعرض عن الجاهلين" مثلاً، فالفعل اللفظي في الفعل الصوتي، وفي فعل التلفظ بمفردات تنتمي إلى معجم بعينه وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، وفي فعل استعمال تلك المفردات والقواعد لإبلاغ معنى ينتج عن المفهوم Sense والمرجع Reference في أن معاً. أما الفعل الإنجازي، فهو: أمرني (أو نصحني أو نحو ذلك) أن أعرض عن الجاهلين. وأما الفعل التأثيري، فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع المخاطب بأن يعرض: أي: أقنعني – مثلاً – بأن أعرض عن الجاهلين"[١].

من ناحية أخرى، جعل أوستين المنطوقات اللغوية نوعين: الأدائيات Performatives والتبليغات Statments. الأدائيات منطوقات تؤدي أفعالاً كالوعد والتحذير والأمر...إلخ. والتبليغات منطوقات تعرض أقوالاً كالإثبات والتقرير والإعلان...إلخ. للمنطوقات الأدائية بدورها نوعان: منطوقات أدائية أولية (أو ضمنية)، وهي التي تخلو من الأفعال الأدائية في اللغة (كالمنطوق السابق: "أعرض عن الجاهلين")، ومنطوقات أدائية ثانوية (أو صريحة) وهي التي تشتمل على فعل أدائي في صيغة المضارع المبني للمعلوم المسند إلى المفرد المتكلم (كقولك: "آمرك أن تعرض عن الجاهلين"). والأفعال الأدائية في اللغة لا حصر لها، منها مثلاً: وعد، أنذر، أكد، شكر، أوصى...إلخ.

ما يعنينا هنا الآن هو الإشارة إلى أن الفعل الإنجازي هو الشاغل الأهم في تداولية أفعال الكلام منذ تأسيسها حتى الآن. عندما رغب جون سيرل John Searle – خليفة أوستين وأحد رواد هذه النظرية البارزين – في تعريف الفعل الكلامي، أشار إلى أن بحثه (ما الفعل الكلامي؟ What is a speech Act?) ينبغي له أن يسمى (ما الفعل الإنجازي؟)"[٢].

ويرى سيرل أيضاً أن الفعل الكلامي من النوع المسمى بالفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة"[٣]. وكذلك الرأي عند دانيال فاندرفيكن

(١) نقلاً عن: ...

Austin, John. How to do Things with Words, Oxford Uni. Press (1962) PP ...

(٢) Searle, John. What is a Speech Act? In: Pier Paolo Giglioli (ed.) Language and Social Context, Penguin Books, London (1990) PP 136-154, P 136.

(٣) Searle, John. Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech ..., Cambridge Uni. Press (1985) P ...

Daniel Vanderveken فالفعل الإنجازي - في رأيه - هو الوحدة الأولية لمعنى الجملة، وهو الوحدة الأولية للاتصال[1].

حقيقة الأمر إذن أن تداولية أفعال الكلام هي تداولية الفعل الكلامي الإنجازي. بالفعل الكلامي الإنجازي تؤدي أفعالاً لغوية كالإخبار وتوجيه الأسئلة وإعطاء الأوامر وعمل الوعود والاعتذارات. إلخ. كل من الأفعال اللغوية السابقة كالإخبار والطلب ونحوهما يسمى باسم الغرض الإنجازي Illoc Purpose أو المقصد الإنجازي Illoc. Point وكل فعل إنجازي له محتوى قضوي Propositional Content عبارة عن القضية التي يعبر عنها ذلك الفعل. في كتابه (أفعال الكلام Speech Acts ١٩٦٩) يذكر جون سيرل أن المحتوى القضوي قاسم مشترك بين أفعال إنجازية مختلفة في أشكالها ووظائفها مثل :

- هل يترك س الغرفة؟ (سؤال).
- س سيترك الغرفة. (إخبار).
- س اترك الغرفة! (أمر) ....إلخ[2].

المحتوى القضوي سمة مشتركة بين المنطوقات الثلاثة السابقة: وهو أن يترك س الغرفة.

ما يعنينا هنا – بعد تلك التمهيدات - هو بيان مفهوم القوة الإنجازية، وعلاقة القوة الإنجازية بالمقصد والسياق، والفرق بين القوة الإنجازية والغرض الإنجازي، وعلامات القوة الإنجازية، ونسبية القوة الإنجازية. لا يمكن بحث مشكل " تعديل القوة الإنجازية "، وهو موضوع هذه الدراسة الرئيس، إلا ببيان المفاهيم والفروق والعلاقات السابقة.

(أ) مفهوم القوة :

قوة المنطوق الإنجازية جزء من بنيته الدلالية. منذ أوائل الثمانينات كانت قوة المنطوق هدفاً لهجوم عنيف متزايد قاده أصحاب نظرية تحليل الخطاب كانت حجتهم أن معظم المنطوقات لا يمكن أن ندرك حقيقتها إدراكاً

---

(١) Vanderveken, Daniel Meaning and Speech Acts Vol.1 Principles of Language Use. Cambridge Uni. Press (1990) P 7.

(٢) Searle, John Speech Acts An Essay in the Philosophy of Language Cambridge Uni. Press Cambridge-New York (1969) pp 141 142

... اللبس: وذلك لأن لكل منطوق ملابسات استعمال مختلفة. قولك مثلاً:
... ما زالت في جيبي " يمكن أن يكون إخباراً بحقيقة، ولكنه
... – في سياق مناسب – أن يكون تحذيراً أو تهديداً.
... هذه المسألة في تداولية أفعال الكلام، ولكنها كانت معالجة
... شجعت على الهجوم والانتقاد.

على أي حال، فإن قراءة أدبيات تداولية أفعال الكلام تدلنا على أن
... الكلامي يمتلك أغراضاً إنجازية متباينة بتباين ملابسات استعماله.
... غرض الطلب الإنجازي قوى تعبيرية عدة، تمتد من الأمر المباشر حتى
... أضرب مثالا على ذلك ما حكاه أبو عثمان بن بحر الجاحظ
... في كتابه المعروف (البخلاء) قائلا: " وحدثني عمرو بن نهيوي قال:
... يوما عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جارا، وكان من أبخل
... الله! قال: فاستحييت منه، فقلت: سبحان الله! لو دنوت، فاصبت معنا
... أكل! قال: قد والله فعلت! فقال الكندي: ما بعد الله شيء! "[1]. في
... السابق، نرى أن المنطوق :

- لو دنوت، فاصبت معنا مما نأكل!

يمكن أن يعرض محتواه القضوي بقوى إنجازية عدة، نحو :

- ادن، فاصب معنا مما نأكل!
- هل تدنو، فتصيب معنا مما نأكل؟
- ألا تدنو، فتصيب معنا مما نأكل؟
- لو دنوت، فاصبت معنا مما نأكل؟

تختلف هذه الأفعال الكلامية الإنجازية الأربعة في القوة التي يعرض بها
... إنجازي واحد، هو الطلب؛ عرض الأول بقوة الأمر، وعرض الثاني بقوة
... التمني أو الدعوة، وعرض الثالث بقوة العرض، وعرض الرابع بقوة التمني.
... هذا أن القوة الإنجازية خاصية المنطوقات لا الجمل؛ فالمنطوق الواحد
... أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة، في ملابسات استعمال مختلفة. القوة

---

(1) ... أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء. حققه وعلق عليه يسري عبد الغني البشري. مكتبة ابن سينا للنشر
... القاهرة (١٩٨٩) ص ٢٣

الإنجازية إذن هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد، في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق.

(ب) القوة والمقصد والسياق :

إذا كان الأمر ينتمي إلى أحد الأغراض الإنجازية الكبرى: وهو الغرض الإنجازي التوجيهي directional illocutionary point، فإنه – كما رأينا آنفاً - يتوزع إلى أغراض إنجازية فرعية، تعكس اختلافاً في القوى الإنجازية، بين غرض فرعي وآخر، وفقاً للمقصد والسياق.

كان أوستين جعل لمقصد المتكلم أهمية كبرى ، ورغب بعض محللي الخطاب - مثل ساكس Sacks وزملائه - في أن يبرهنوا على أن قوة المنطوق الإنجازية، هي ما يعمد إليه المستمع، لا ما يقصد إليه المتكلم: وذلك أن أحداً من المستمعين أو محللي الخطاب، لا يمكنه أبداً أن يتأكد من مقصد المتكلم: لأنه لا يقبل الفحص. أما تفسير المستمع، فإنه يتجلى في استجابته، وهذا ما يحدد تقدم التفاعل اللغوي أو نجاحه[1]. غني عن البيان أن فكرة تفسير المستمع واستجابته قد صار لها الآن امتدادات قوية في نظرية التأويل الأدبي.

في تداولية أفعال الكلام كان توليد قوة المنطوق الإنجازية مظهراً من مظاهر الاختلاف بين اثنين من مؤسسيها وهما: أوستين وسيرل. يرى أوستين أن قوة المنطوق الإنجازية تحقيق لمقصد المتكلم تحقيقاً ناجحاً، ولكن سيرل يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق.

يرتبط مقصد المتكلم بالسياق. يوضح السياق ما يفعله المتكلم على نحو أفضل: أي إن كان يريد بمنطوقه التهديد أو التحذير أو نحوهما. ومن الضروري أن يكون السياق – كما يقول هولدكروفت Holdcroft - على النحو الذي يراه فيه المتكلم: فمثلاً ينبغي للمتكلم أن يكون في موقع السلطة حتى يصبح منطوقه طلباً حقيقياً. وينبغي له أن يمتلك موقع الملاحظة حتى يصبح منطوقه تبليغاً حقيقياً.... وهكذا[2]. يستنبط من ذلك أن دراسة

---

(1) Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis. Longman Group Ltd 6th Impression (1983) P.20

(2) Holdcroft, David: Words and Deeds: Problems in the Theory of Speech Acts. Clarendon Press. Oxford (1978) P.155

أفعال الكلام ينبغي لها أن تكون عملاً لغوياً اجتماعياً: وذلك أن هنالك دائماً صلة وثيقة بين الفعل الكلامي ودور المتكلم الاجتماعي. وهذا يدعونا بدوره إلى القول بأن تفسير كل من الغرض والقوة الإنجازيتين تفسيراً صحيحاً، يعتمد على صيغة المنطوق اللغوية وعلى فهم الشبكة الاجتماعية في آن معاً.

من الإشكاليات المركزية في تداولية أفعال الكلام إشكالية " أفعال الكلام غير المباشرة Indirect Speech Acts ". جوهر هذه الإشكالية المسافة بين القول والمقصد وطبقات المعنى المتعددة، بين معنى قضوي حرفي Literal Propositional Meaning والفعل الذي ينجزه المتكلم في السياق. المتكلم لا يقول ما يعنيه في كل مناسبات المنطوق على نحو مباشر. إذا كانت الأفعال الإنجازية الإعلانية والاستفهامية والأمرية تستعمل عادة -على الترتيب- لتبليغ والسؤال والطلب، فإن هذا لا يعني وجود تناظر كلي بين الفعل ووظيفته. مثال ذلك أن الفعل الإنجازي الإعلاني: " انت آت غداً "، يمكن - إذا لم يقيد السياق الخاص: اللغوي وغير اللغوي - يمكن ان يفسر بانه تبليغ: "أنت آت غداً"، أو استفهام: " أنت آت غداً؟ " أو طلب: " انت آت غداً! ".

وإذا كان العرف اعتباراً تداولياً، فإن منطوقاً مثل: " هل يمكنك أن تفتح الباب؟ " أو " هل يمكنني أن ادخل؟ "، سوف يدلل على ارتباط التمييز بين أفعال الكلام المباشرة وأفعال الكلام غير المباشرة بالعرف ارتباطاً قوياً. إذا كان الاستفهام يستعمل فعلاً كلامياً مباشراً للسؤال، فإنه يستعمل أيضاً فعلاً كلامياً غير مباشر للطلب. من اليسير أن نلاحظ أن المنطوقين الأخيرين لا يتماثلان تماثلاً تاماً مع الاستفهام العادي. يبين العرف أن الإجابة عن أحد المنطوقين ليست بـ " نعم " ولا بـ " لا ". ويبين العرف أن الصيغة الدالة على الإمكان (وهي فيها الفعل المساعد " يمكن ") لا تسأل عادة عن معلومة. إنها علامة على الالتماس بالفعل في المنطوق الأول (ولهذا تصحب غالباً بالعبارة " من فضلك ") وعلامة على الالتماس بالإذن في المنطوق الثاني. من أجل ذلك، لا يمكن أن يفسر المنطوق الثاني مثلاً بأنه يعني: " هل هذه هي الحال التي تملك فيها إذناً بالدخول؟ " ولكنه يفسر بأنه يعني: " أسألك أن تعطيني إذناً بالدخول ".

أبلى جون سيرل بلاء حسناً في تحليل أفعال الكلام غير المباشرة. كل من جاء بعده عالة عليه في ذلك الباب، سواء من كان منهم من أصحاب تداولية أفعال الكلام أم من أصحاب تحليل الخطاب تحليلاً عاماً أو تحليلاً تقابلياً. في باب " أفعال الكلام غير المباشرة " أدخل جون سيرل الإلماع Hint، والتلميح Insinuation، والمفارقة Irony، والاستعارة Metaphor. في تلك الصور جميعاً ينفك معني منطوق المتكلم Speaker's Utterance Meaning عن معنى الجملة Sentence Meaning. هنالك حالات ينطق فيها المتكلم جملة ويعني ما يقوله، ولكنه يعني في الوقت نفسه فعلاً إنجازياً آخر ذا محتوىً قضوي مختلف. مثال ذلك أن ينطق المتكلم الجملة: " هل يمكنك أن تناولني الملح؟ " وهو لا يعني سؤالاً مجرداً، بل يعني التماس مناولته الملح[1].

انتهى سيرل في تحليل أفعال الكلام غير المباشرة إلى عدد من الملحوظات والنتائج المهمة التي صار لها صدى واسع في أدبيات نظرية التأويل، نوجزها فيما يلي:

١- يمتلك المنطوق الواحد - في مثل تلك الحالات السابقة - قوتين إنجازيتين اثنتين. إذ يؤدي فعل إنجازي أداء غير مباشر عن طريق أداء فعل آخر.

٢- تبدو بعض الجمل من النوع السابق مستعملة غالبًا استعمالاً عرفيًا Conventionally Used على أنها التماسات غير مباشرة.

٣- في أفعال الكلام غير المباشرة يبلغ المتكلم المستمع أكثر مما يقوله عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بينهما: لغوية وغير لغوية، بالإضافة إلى اعتماده على قوى الإدراك والاستدلال العامة عند المستمع.

٤- بناء على ذلك، فإن الجهاز الضروري لشرح الجانب غير المباشر من أفعال الكلام غير المباشرة سوف يشتمل على نظرية أفعال الكلام، وعلى بعض الأسس العامة للمخاطبة، وعلى خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بين المتكلم والمستمع، فضلاً عن مقدرة المستمع على الاستدلال.

(1) Searle, John: Expression, op. cit., p. 30

من خلال الأفعال الإنجازية غير المباشرة. كانت التوجيهيات Directives.
بكثير من ... وذلك أن متطلبات الكياسة أو التأدب في
مواقف متنوعة تجعلها ثقيلة ومحيرة في إنتاج جمل أمرية بسيطة (مثل
اترك الغرفة) على أو أدائيات صريحة (مثل " آمرك أن تترك الغرفة ").
من ثم يسعى الناس إلى إيجاد وسائل غير مباشرة لأداء أفعالهم
الإنجازية.

- يلعب العرف في بعض الحالات دوراً خاصاً. هناك بعض الصيغ اللغوية
التي تميل إلى أن تصبح مؤسسة تأسيساً عرفياً على أنها الصيغ اللغوية
الغالبة المعيارية لأفعال الكلام غير المباشرة. تحتفظ تلك الصيغ
بمعانيها الحرفية، ولكنها تكتسب أيضاً استعمالات عرفية. مثل صيغ
التأدب التي تستخدم للالتماس.

- في ضوء ما سبق، يسلم جون سيرل بالتمييز بين المعنى والاستعمال،
ولكنه يرى التسليم بالتمييز بين أعراف الاستعمال وأعراف المعنى على
درجة أقل. بيان ذلك أن (" هل بمكنك " و " أريدك أن " ونظائرها من
الأشكال اللغوية الأخرى، ليست – في رأيه – إلا وسائل عرفية لعمل
التماسات. ومعروف أن الدافع الأظهر إلى تجنب المباشرة في الالتماسات
هو التأدب. تميل بعض الصيغ هنا إلى أن تصير وسائل التأدب العرفية
لعمل الالتماسات غير المباشرة"[1].

- لقد احتلّ جون سيرل منزلة متميزة في تداولية أفعال الكلام؛ لأنه انفرد
بمحاولة إعادة بناء الخطوات الضرورية لإنتاج فعل إنجازي أولي من فعل
إنجازي حرفي، وهي إعادة بناء مؤسسة على حقائق عن المخاطبات،
وأسس التعاون الخطابي، ونظرية أفعال الكلام، وخلفية المعلومات
المشتركة بين المتخاطبين، ومبدأ الاستدلال"[2].

(ج) القوة والغرض :

هناك خلط بين مفهومي: القوة والغرض عند بعض رواد تداولية أفعال

---

(1) [illegible]
(2) [illegible]

الكلام ومنظريها منذ أوستين حتى اليوم. في مواضع عدة من كتابه المشار إليه آنفاً استخدم جون أوستين مصطلح "القوة Force" وهو يعني ما ينبغي أن يعنيه مصطلح "الغرض" أو الغاية من الفعل الكلامي Purpose[1]. وقد وقع في هذا الخلط نفسه آخرون منهم هارولد سادوك Harold Sadock[2]، وأنا ويرزبيكا Anna Wierzbicka[3]، وغيرهما. انتقلت عدوى الخلط بين هذين المفهومين إلى الدكتور/أحمد المتوكل، في محاولته الإفادة من بعض معطيات تداولية أفعال الكلام في دراسة بعض أبواب النحو العربي دراسة وظيفية[4].

ميز آخرون بين القوة والغرض، على رأسهم جون سيرل، وفاندرفيكن، وجانيت هولمز وغيرهم. الغرض الإنجازي عند سيرل مثلاً جزء من القوة الإنجازية. الغرض الإنجازي للالتماس هو ذاته الغرض الإنجازي لأنواع الطلب Commands؛ لأن كلاً منهما محاولة لجعل المستمعين يفعلون أشياء محددة، ولكن القوى الإنجازية بينهما مختلفة اختلافاً بيناً. بناء على ذلك، يرى سيرل أن القوة الإنجازية حصيلة عناصر عدة، الغرض الإنجازي عنصر واحد فقط منها، وإن كان – كما يعتقد – أهم هذه العناصر[5].

جدير بالإشارة هنا أن سيرل كان يري القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأفعال الإنجازية[6]. ولكنني أرى الأحرى أن تكون القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأغراض الإنجازية الفرعية لغرض إنجازي أكبر واحد: فالاقتراح والإصرار فعلان إنجازيان يمثلان غرضاً إنجازياً واحداً، هو الغرض الإخباري ولكن درجات القوة بينهما مختلفة.

من ناحية أخرى يرى سيرل أن القوة جزء من المعنى، وأن المعنى يعين قوة

(1) انظر مثلاً: أوستين ص٩٩، ١٤٥، ١٤٨، ١٥١ وغيرها.

(2) Sadock, Harold, M_ Toward a Linguistic Theory of Speech Acts. Academic Press New York- San Francisco- London (1974) P 10

(3) Wierzbicka, Anna A Semantic Meta Language for the Description and Comparison of Illocutionary Meanings In Journal of Pragmatics 10 (1986) pp 67-107, P 67

(4) انظر: أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1 (1986)، ص [illegible]

(5) Searle, John, Expression, op. cit. P [illegible]

...مما نتفق معه فيه. ومما يتفق معه فيه باحثون آخرون كثيرون. قوله بأن المعنى والقوة تسميتان مختلفتان لفعل واحد، وليسا فعلين منفصلين. مما نأخذه عليه: وذلك أن تعيين المعنى للقوة، يعني أن المعني ليس هو نفسه القوة، إنما هو أحد محدداتها. لا يمكن أن ننتهي إلى تعيين قوة الأمر مثلاً، دون فهم المعنى الدلالي والمعنى الوظيفي للمنطوق. ولا يمكن أن ننتهي إلى فصل بين درجة من درجات قوة الأمر، دون فهم المعنيين السابقين مرتبطين بالسياق اللغوي والسياق الموقفي. إن قوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لمعناه، بالمفهوم الدلالي. وهذا يعني أن المعنى أوسع من القوة؛ لأنه يضم القوة والمحتوى القضوي في آن معاً. استعمالات اللغة غير محدودة من جهة القوة الإنجازية، ولكنها محدودة بحدود ما نفعله بواسطة اللغة من جهة الغرض الإنجازي. وكان سيرل قد حصر استعمالات اللغة في أغراض رئيسية خمسة، هي: الإخبار، والتوجيه، والالتزام، والتعبير، والإعلان [1].

خلاصة القول أن القوة والغرض عنصران مكملان للمعنى. القوة درجة والغرض وظيفة. لكل غرض رئيسي أغراض فرعية: فالتوجيه مثلاً أحد الأغراض الرئيسية الخمسة في تصنيف جون سيرل، وله أغراض فرعية كالأمر والالتماس والعرض والتحضيض وغيرها. ولكل غرض درجات مختلفة من القوة وفقاً لسياقات الاتصال.

(د) علامات القوة:

جعل أوستين للقوة علامات ستا هي: الصيغة (" أغلق الباب ") تضاهي أمرك. و(" أغلق الباب إذا أردت " تضاهي أذن لك) ونغمة الصوت (تختلف نغمة التعبير عن السؤال أو الاعتراض...إلخ) وأشباه الجمل (التي يقصد بها تكييف قوة المنطوق مثل: تكييف قوة: "سوف أفعل " بإضافة " من المحتمل"، أو تكييف قوة النهي بالظرف مثل: "لا تنس أبداً...") وأدوات الربط (مثل " من أجل ذلك ") التي تستخدم في قوة "استنتج " و " على رغم ذلك " التي تستخدم في قوة " أسلم بأن ") ومصاحبات المنطوق (كأن تجعل منطوقك مصحوباً بحركة جسمية كإشارة الإصبع، أو غمزة العين....إلخ) وملابسات المنطوق

[1] فصلت القول في ذلك في موضع آخر. انظر: نظرية الحدث الكلامي، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل، مجلة علمية نصف سنوية، المجلد ٣ العدد ١ (١٤٢١-٢٠٠١) ص ص ١١-٥٢ ص٢٢

(وهي تساعد مساعدة مهمة للغاية في تحديد الغرض: فالأمر يمكن أن يكون أمراً، أو إذناً، أو عرضاً، أو التماساً، أو توسلاً، أو اقتراحاً، أو توصية أو تحذيرا...إلخ)[1].

في دراسات أخرى لاحقة امتدت علامات القوة إلى مستويات التحليل اللغوي كافة، لا سيما العلامات الصوتية والتركيبية والخطابية.

أشرنا إلى أن القوة الإنجازية بعد من أبعاد التمييز بين أغراض فرعية لغرض إنجازي أكبر واحد، تنتج بتفاوت درجات القوى. يعني هذا أن الغرض الواحد تعرف منطوقاته قوى إنجازية عدة. في الغرض الإنجازي الإخباري مثلاً يمكن أن نقول: "ضاع" و" أظنه ضاع " و " وا أسفاه، ضاع! ". وفي الغرض الإنجازي التوجيهي، يمكن أن نقول: "توقف عن الكلام! " و " توقف عن الكلام، من فضلك! " و" توقف عن الكلام راضياً أو غير راض! ". في كل من " ضاع " و" توقف عن الكلام " نحصل على القوة الإنجازية الأبسط ذات الغرض الإخباري أو التوجيهي. وفي " أظنه ضاع " و " توقف عن الكلام، من فضلك " تدخل علامة من علامات القوة هي فيهما علامة إنقاص في درجة القوة: لأنها تضعف قوة التبليغ في الغرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأدب، في تحقيقها الغرض الإنجازي التوجيهي (فالمتكلم باستخدامه " من فضلك " يمنح المستمع حق الاختيار في عمل محاولته بجعله يفعل شيئاً ما)[2].

وفي المنطوقين الأخيرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تعلن "وا أسفاه " عن أسف المتكلم الذي ينقله المحتوى القضوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن، وتلغي " راضياً أو غير راض " حق المستمع في الاختيار، فيصبح للمنطوق قوة الجبر أو الإرغام على الفعل.

---

(١) راجع في تفصيل ذلك: أوستين ص٧٣ وما بعدها.

(٢) مضمون التأدب -بوجه عام- مراعاة مشاعر الآخرين. وكما تقول جانيت هولمز، فإن التأدب يعني لغوياً أن تلاطف الآخرين على صورة ملائمتهم لك. أما الخيارات اللغوية غير المناسبة فيمكن أن تعد خشونة أو قلة أدب. وتشير جانيت إلى أننا نحتاج إلى أن نفهم القيم الاجتماعية لمجتمع ما حتى نتكلم على نحو مؤدب. ولعل جانيت تقارب للتأدب نمطين اثنين: سمته التأدب الإيجابي Positive Politeness الذي يتجه إلى تحقيق التضامن (Solidarity) وذلك أنه يدعم السلوكيات والقيم المشتركة. والنمط الثاني هو التأدب السلبي negative politeness الذي يدفع الناس إلى أن يحترموا بعضهم بعضاً وألا يتعدى أحدهم على الآخر.

Holmes, Janet. An Introduction to Sociolinguistics. Longman, London and New York (199[illegible]) pp. 296, 297

يلزمت القوة نسبقة، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبية في مناهج لغوية تقود إلى تعيين القوى الإنجازية والتمييز بين درجتها. يضاف إلى ذلك المفاتيح اللغوية اعتبارات تداولية (بما في ذلك أعراف الاستعمال حسب كما شرحها سيرل[1]. والاستلزامات الحوارية Conversational ويتضمنها بما في ذلك المبادئ الخمسة التي قدمها جرايس والتي يتبعها المشاركون في التخاطب)[2].

... نسبية القوة:

... كانت القوة الإنجازية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين ... عن غرض إنجازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، أياً كان ... أو العلامة الدالة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف ... متفاوتة، فإن القوة الإنجازية ينبغي لها أن توصف بأنها نسبية. بيان ... أن الأمر – مثلاً – يوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الغرض ... التوجيهي، وأنه الأشد تحققاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، في ... الاستعمال الفعلي المرتبط بالواقعة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك ... على التسليم. إذا قارنا مثلاً "الأمر" بالصيغة ذات الفعل المساعد ... " أو " ينبغي " سيبدو "الأمر" من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون ... في كامل سلطته in full authority (كالقائد في الجيش) للتأكد من ... أمراً " قد صدر (في حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين "يجب" أو "ينبغي") ومن ناحية أخرى، سيبدو " الأمر " أضعف كثيراً عندما يستعمل ... " ادخل! " (في إجابة عن طرقة باب). إنه في الحال الأخيرة، يعطي إذناً. ... حال لا يناسبها أبداً استخدام " يجب " أو " ينبغي ".

... يشرح ف. ر. بالمر F.R.Palmer المسألة السابقة بأن المستمع يمكنه أن يرد– ... ذلك – رداً فيه إهانة: " من أنت حتى تعطيني أوامر؟ ". ستبدو الأفعال

---

(1) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(2) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds.) Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp 44-45

... [illegible] دار الفكر العربي ط1 (1416-1995)

المساعدة ذاتها (نحو: " تقدر " و" تستطيع " و" بمكنك ") المستخدمة للإذن، اقل تأدباً – في هذه الملابسة – من الأمر. يستطيع المستمع هنا أيضاً أن يرد في إهانة: " من أنت حتى تعطيني إذناً؟ ". نتفق مع بالمر في رؤيته أن " الأمر " هنا لا عمل له إلا بالتعبير عن فكرة قصد المتكلم – في رضا – إلى الفعل action، على نحو أشد حيادية. إنه يعرض قضية فحسب. كما هي الحال تماماً في الإعلان Declaration: ولكنه يعرضها من أجل الفعل، لا من أجل أن تكون مقبولة عند المستمع فحسب، لصدقها"[1].

الأمر إذن اصطلاح حيادي داخل النظام الفرعي لأفعال الكلام التوجيهية. يقول بالمر: " ليس الأمر بالضرورة أقوى من صيغة الفعل المساعد "يجب " أو " ينبغي ". الأمر قضية واجبة الوجود فحسب deontic proposition وهو يترك للمستمع الحكم بقوة إلزامه بالفعل من خلال الملابسات. إذا قال قائد لجنوده: " قفوا! ". فلن يكون هنا المنطوق إلا أمراً. ولكنه محض تعبير عن إذن بالدخول في " ادخل! " حيثما لا يكون استعمال " يجب " في هذه الملابسة مناسباً. من ثم يتبين أن الأمر ليس أقوى من " يجب " ولا أضعف. كما أنه ليس أكثر تأدباً من " يجب " ولا أقل"[2]

٣- تعديل القوة الإنجازية :

يعدّل المتكلم منطوقه أو يكيّفه لمقصده في سياق اتصالي بعينه بحض مبدأ تعديل القوة الانجازية من البداية مبدأ معروفاً عند جرايس ، هو: " كن مقتصداً Be Brief " وذلك أن المتكلمين – كما يقول ميخائيل ستوبس – لا يستعملون كلمات زائدة دون سبب لست هنالك تعبيرات أسلوبية[3].

يعد مبحث التعديل (أو التكييف) من أثرى حقول البحث وأكثرها فائدة في تداولية أفعال الكلام في النظرية اللسانية المعاصرة بعامة.

صار مبحث التعديل دعامة لسانية تداولية أساسية في نظرية النص

---

(1) Palmer, F.R., Mood and Modality, Cambridge Uni. Press (1993) P.29

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ ويستعمل بالمر مصطلح deontic بمعنى [illegible] Jespersen [illegible] Containing an element of will [illegible] (المرجع نفسه ص ٩٠)

(٣) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, op. cit. P.157

... تحليل الخطاب وصار تبعا لذلك من الدعامات اللسانية التداولية ... في النظرية الأدبية المعاصرة بأسرها. إذا كنا نريد فهمها حقيقتها ... الأدبية المعاصرة ومعطياتها في التحليل العلمي للنصوص الأدبية ... بالأسس اللسانية التي اعتمدت عليها في بناء برامجها وآلياتها في ... تلك التحليل.

... تنصرف غايتنا هنا إلى بحث تأثيرات الاستراتيجيات التي توظف في ... القوة في المنطوقات المؤثرة تأثيراً إيجابيا والمنطوقات المؤثرة تأثيرا ... معولين على ما تزود به النصوص، لاسيما النصوص الأدبية - من ... ونحاول هنا أيضاً أن نفيد من أحدث الدراسات في مجال تعديل ... الإنجازية لبيان الدوافع والأسباب التي تحدو المتكلمين إلى توظيف مثل ... الاستراتيجيات. أما دأبنا الأكبر، فهو وصف الوسائل اللغوية المختلفة ... يكيف بها المتكلمون قوة المنطوق الإنجازية على نحو أو آخر.

(أ) استراتيجيات التعديل :

من المسلم به أن تعديل قوة المنطوق الإنجازية يرتبط باستراتيجيات ... العامة. إذا تأملنا دوافع السلوك الاتصالي، فسوف يتبين لنا أنها تتنوع ... حالة إلى أخرى. يضع المتكلم عرضا أو التماسا، تهديدا أو احتجاجا، ... أو قدحا، حثا على فعل أو نهياً عنه، إعلاء شئ أو إبطاله .... وهكذا. ... أن غرض المتكلم هو الذي يحدد الطريقة التي يتكلم بها، فالشخص ... يستطيع - كما يقول ز. سالزمان Z.Salzmann - أن يتكلم في ... واحترام، عندما يوقفه شرطي عن عجلته آملا أن يترك هذا السلوك ... الاعتذاري المهذب أثره في ذلك الشرطي، بأن يكتفي - مثلا - ... ، وإن كان مستحقا الغرامة[1].

... كل سلوك اتصالي موجه إلى هدف، والأهداف مختلفة. والقضية التي ... طالما بال الباحثين في شتى أنواع الاتصال اللغوي هي- كما يقول ... ياكوبسون Roman Jacobson - مطابقة الوسائل المستخدمة للأثر

(1) Salzmann, Z. Language, Culture and Society. An Introduction to Linguistic Anthropology. Westview Press. Boulder-San Francisco Oxford (1993) P.188.

المستهدف"[1].

إن من الحقائق الجوهرية فى الاستعمال اللغوى ارتباط الصيغة بالمقصد ومن المسلم به فى كل تفاعل لغوى، أن الكيفية التي يقال بها الشئ تعد جزءاً مما يقال. حينما يعدل المتكلم قوة منطوقة الإنجازية، فإنه يدلل بذلك على وعيه بالمقصد وتقديره مقتضيات السياق. وهما يرتبطان- في تقديرنا- بكفاءة المتكلم وأدائه معاً. ولعل خير تفسير سوسيولوجي لهذين الاصطلاحين، ما نجده عند بـ برنشتاين B. Bernstein تشير الكفاءة عنده إلى المتكلم مستخلصاً من المحددات والقيود السياقية، ويشير الأداء إلى المتكلم في قبضة تلك القيود السياقية التي تحدد منطوقاته. تشير الكفاءة إلى المثال Ideal، ويشير الأداء إلى الحال الله Fall[2].

في السبعينيات، كان الباحثون قد اعتادوا البحث فيما سمي بـ" ثقافات التأدب السلبي Negative-politeness cultures" وكانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بأثر ظاهرة التأدب في الاستعمال اللغوي، منصرفين – في حالات كثيرة - إلى علاقة السؤال بمظاهر التأدب في الخطاب.

وفي عام ١٩٨٠ أصدر كل من فريزر Fraser وريتتل Rintell وولترز Walters بحثاً مشتركاً عن اكتساب " الكفاءة التداولية " في اللغة الثانية Second language في هذا البحث عرض هؤلاء للاستراتيجيات والقوالب الدلالية التي تتخذها اللغة لأداء فعل كلامي بعينه: فإذا استطاع المتكلم مثلاً أن يلتمس – في إحدى اللغات - عن طريق سؤال المستمع عن قدرته على فعل كلامي (هل تستطيع أن تفعل هذا؟) أو عن طريق التعبير عن رغبته في أن يفعل المستمع ذلك الفعل الكلامي (مثل: سأكون ممتناً حقاً إذا فعلت هذا) فإن هذه الاستراتيجيات ذاتها، تعد نافعة للمتكلم في أية لغة أخرى[3].

(1) Jakobson, Roman. Linguistics and Poetics. In: Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.) Introducing Semiotics. Canadian Scholars Press. Toronto (1992) PP.47-72, P.48.

(2) Bernstein, B.: Social Class, Language and Socialization In: Pier Paolo Giglioli (ed.) Language and Social Context. Selected Readings. Penguin Books. Clays Ltd England (1990) PP 157-178, P.160

(3) Fraser, Bruce- Rintell, Ellen- Walters, Joel: An Approach to Conducting Research on the Acquisition of Pragmatic Competence in a Second Language. In: D. Larsen-Freeman (ed.). Discourse Analysis in Second Language Research. Newbury House. Rowley (1980) pp.75-91, P.79

في ذلك العام ذاته عرض فريزر في بحث له منفرد، مفهوماً تداولياً مبهما يلفز عليه اسم "تلطيف الخطاب" Conversational Mitigation، بيّن فريزر أن التلطيف استراتيجية يعتمدها المتكلم لتخفيف قوة الفعل الكلامي أو يضعفه. ويقع هذا التخفيف (أو الإضعاف) - كما لاحظ فريزر - في التحقيق الذي تبدو تأثيراته غير مرحب بها عند المستمع"[1].

وفي عام ١٩٨٤م ظهر أثر بحث فريزر في محاولة جديدة، قدمتها جانيت هولمز Janet Holmes لدراسة تعديل القوة الإنجازية على نحو أشد عمقاً وإحاطة[2]. اجتهدت جانيت في تأمل مفهوم التلطيف في علاقته باستراتيجيات الاتصال لتعديل قوة المنطوق. إذا كان التلطيف يعني تخفيف قوة المنطوق أو إضعافها Attenuation، فقد كشفت جانيت عن استراتيجية مضادة: هي زيادة قوة المنطوق أو تعزيزها boosting or emphasizing the illoc force.

تعبر المنطوقات عن أغراض عدة، ويمكن للغرض الإنجازي الواحد أن يقدم في درجات مختلفة من القوة. لنقارن مثلاً بين المنطوقات التالية: " أنت خبيث " و" (يا إلهي) أنت (هكذا) خبيث " وعندك (شيء) من الخبث ". تعبر هذه المنطوقات جميعاً عن غرض إنجازي واحد: هو الانتقاد. ولكن هذا الغرض الواحد، قد قدم بدرجات متفاوتة من القوة. استخدمت " يا إلهي " و"هكذا " لتقوية قوة الانتقاد، على حين استخدمت " شيء " لتخفيف هذه القوة وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق؛ لأن الانتقاد فعل كلامي سلبي التأثير.

في حالات أخرى، يبدو الفعل الكلامي فعلاً إيجابي التأثير، نحو: " أنت ظريف " و" (حقاً) أنت ظريف " و" أنت ظريف (نوعاً ما) ". في هذه المنطوقات يستخدم العنصر المعجمي " حقاً " لزيادة القوة الإنجازية التي قدم بها غرض المدح أما العنصر المعجمي "نوعاً ما " فقد استخدم لتخفيف هذه القوة. ولما كان التأثير المتوقع لمثل هذا الفعل الكلامي تأثيراً غير مرفوض، فإن استراتيجية من تلك الاستراتيجيات لا يمكن أن تعدّل حتى تصبح تلطيفاً"[3].

(١) Fraser, Bruce: Conversational Mitigation. In Journal of Pragmatics 4 [illegible] PP 341-350, P.342

(٢) [illegible]

Holmes, Janet: Modifying Illocutionary Force. Journal of Pragmatics [illegible] PP 345-365

(٣) [illegible] ٣٤٠٠ [illegible] ٣٤٤.

من الوسائل الأخرى التي تعتمدها استراتيجيات التعديل بزيادة شدة الغرض الإنجازي أو إنقاصها ما يسمى باسم " الإشارة الصريحة explicit reference " إلى شروط الصدق التي تحكم أنواعاً مختلفة من أفعال الكلام. من هذه الأفعال الكلامية ما أسماه جون سيرل بـ " أفعال الكلام العرضية representative speech acts "[1].

هذا النوع مما يمكن تقوية قوته أو إضعافها إلى درجة اعتقاد المتكلم، أو مدى التزامه بالقضية التي يعبر عنها المنطوق؛ كقولنا: " (أظن) أنه يوم دراسي " في مقابل: " أنا (متأكد) تماماً أنه يوم دراسي ". يسري الإضعاف والتقوية على المنطوقات بجميع أنواعها في تصنيف سيرل المعروف: تعبيرية، أو توجيهية، أو التزامية.....إلخ.

(ب) أسباب تعديل القوة :

لماذا يعدل المتكلم قوة المنطوق الإنجازية؟ وما انعكاسات هذا التعديل على العلاقات بين المتكلم والمخاطب، أو بين المتكلم ومحتوى القضية التي يعبر عنها؟ تمس هذه التساؤلات جوهر إجرائية التعديل في علاقتها باستراتيجيات الاتصال. ترى جانيت هولمز سببين رئيسيين اثنين يدفعان المتكلم إلى تعديل القوة المعتمدة في التعبير عن فعل كلامي بعينه :

(أولهما) التعديل من أجل نقل المعنى المرتبط بسلوك المتكلم وتصرفاته تجاه القضية التي يعبر عنها Modal Meaning.

و(الآخر) التعديل من أجل التعبير عن معنى تأثيري Affective meaning، أو عن سلوك المتكلم إزاء المخاطب في سياق المنطوق[2].

يمكن أن ندرج هذين المعنيين اللذين ذكرتهما جانيت فيما يسمى Modality. يجمع هذا المصطلح طائفة الوسائل التي تدل على سلوكيات المتكلمين وتصرفاتهم تجاه ما يعبرون عنه من قضايا، وتجاه مخاطبيهم إلى حد ما. تتوزع هذه السلوكيات والتصرفات إلى: ميادين الصلاحية Areas of Validity (حيث يعبر المتكلم في ثقة أعظم أو أقل عن صدق قضاياه)، والقدرة

---

(1) Searle, John Expression op. cit P.23

(2) Holmes, Janet Modifying op. cit. P.348

بحالات أخرى يقتضيها السبك ولا أثر فيها لقصد التقرير أو التوكيد أو الإقناع أو نحو ذلك ، ولكننا نريد لنذكر أمثلة للتوضيح من نصوص كاتب واحد هو العقاد:

- قوله: فتهيّج فيها (الأصوات) العاطفة العاطفة ، وتبعث الرغبة الرغبة»[1].
- وقوله: «وكأنما ينزع نفسه من نفسه» [2].
- وقوله: «لأن المدارك مدارك فرد واحد ، والهوى هوى نوع بأسره» [3].
- وقوله: « يخالجه الغضب كما يخالجه الطرب» [4].
- وقوله: «ولكنه (أي العشق) غريزة يراد بها بقاء النوع كله واتصال حبل الحياة جيلا بعد جيل» [5].

يمكن أن نرى لبعض هذه الاستخدامات وظائف خاصة ، كأن تكون الوظيفة هي الوصف في نحو «جيلا بعد جيل» ؛ أي أجيالا متتابعة ، ولكننا لا نرى في غيرها إلا وظيفة سبكية خالصة Chohesive Function يقتضيها التركيب ، لا بلاغية يقتضيها المقام . مثل هذه الحالات لا موقع لها من الاهتمام في دراستنا .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل ، وفقا لما يتيحه لنا استقراء النصوص المختارة ، وهي:

---

(١) الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص٩٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٩٩ .

(٤) المرجع نفسه ١٠٢ .

(٥) المرجع نفسه ص٩٩ .

١- تكرير المكرر بذاته ، سواء أكان لفظا مفردا أم غير ذلك ، في منطوق واحد ، أم غير ذلك .

٢- التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة .

٣- التكرير بإعادة الصياغة .

أما (النوع الأول) ، وهو تكرير المكرر بذاته ، فقد يكون لفظا مفردا ؛ كقول طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «فإن كانوا كذلك ، فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راغما ويلذ راغما ويألم راغما!» [1]. وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتغير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث ، والطعام الملوث» [2]. وربما امتد تكرير اللفظ في النص الحجاجي العربي امتدادا أبعد كثيرًا حتى يبدو النواة الكبرى في تشييد دعواه الرئيسة . ومن ذلك مثلا كلمة «متعددة» في نص «التعدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر ، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة ، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظره إلى الأمور له وجوه متعددة ، وهو من حيث إنه إنسان له عقل ، تخطر عليه تساؤلات متعددة ، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة ...» [3].

يريد الكاتب بالتكرير فيما سبق تثبيت تبريره دعواه ، حيثما يكون استبقاء

---

(١) مقال «القديم والجديد» من كتابه : حديث الأربعاء ٣١/٣ .

(٢) مقال «أنشودة الأمل» من كتابه: كلمة السر ، كتاب اليوم – دار أخبار اليوم (١٩٩٨) ص١٥ .

(٣) مقال «التعدد في حياة الإنسان» من كتابه: الله في الإنسان ، مرجع سابق ص١١ .

المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض ضده .

في حالات أخرى يجعل الكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى الهزء بالخصم وفضح جهله . نضرب مثالا على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرافعي: «فإذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القدماء ، ولم نفهم هؤلاء السادة «المتقادمين» !» [1] .

في عبارة «هؤلاء السادة المتقادمين» سخرية واضحة بالخصوم الذين تكلفوا نهج القدماء على غير علم ، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ «القدماء» قبلها .

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبنية التكرير قصد السخرية بالخصم . وتكشف سياسة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كفاءة اتصالية حجاجية عالية . نؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أني من قوم قد بلوا السفهاء فأحصنوا بلاءهم ، .... ، وإن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحدا ، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحدا» [2]. وقعت «السفهاء» في النص السابق أربع مرات . يمكن في الموضوع الثاني استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب . ويمكن في الموضعين الثالث والرابع الاستغناء عنها ، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ

---

(١) مقال أحسن إليّ ، من : حديث الأربعاء ١٢٦/٣ .

(٢) المرجع السابق ١٢٧/٣ .

تهييج خصمه - موصوفا بالسفه - مع كل مرة ! التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق دحض زعمه وكشف حقيقته .

من ناحية أخرى ، قد يكونُ المكرر بذاته عبارة أو جملة . ويقع ذلك في مقدمات لتقرير المعطيات ، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعا . يلفت الانتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى ، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج أم ولمت المقدمة والدعوى في مكانيهما المعتادين . في مقدمة حجاجه ، نرى للكندي هذه الجملة: «إنما المال لمن حفظه» . وفي نص دعواه يكرر هذه الجملة مع جمل أخرى برهن فيما سبق من خطابه على صحتها بالتبرير: «المال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه» (١). ينكر طه حسين على أنصار القديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة ، فيقول: «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسي رفضا ، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة - أريد أن أرى هؤلاء ، ولكنني يائس من رؤيتهم»(٢). التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صلاحية معتقده ، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة ؛ لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يضاد ذلك المعتقد .

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح ، يكرر منطوقه تثبيتا لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى . من ذلك مثلا

(١) البخلاء ص ٧٨ .
(٢) مقال «القديم والجديد» من كتابه : حديث الأربعاء ٣٢/٣ .

العبارة «ليس من القديم الصالح في شيء» المكررة بصدر كل منطوق فيما يلي: «ليس من القديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلائم بينه وبين اللغة . وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تنطق باسمها إلا إذا وجدت لها اسما عربيا ورد في المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء ... ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء في وصف الجمال ، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا» [1].

وتكرر الجملة جزءًا من منطوق كامل في عجزه أيضًا ؛ كقول محمد زكي عبد القادر في توكيده لحدية مصدر أشياء عدة: «الأدب العظيم جاء من المعاناة ، والفن العظيم جاء من المعاناة ، والحب العظيم جاء من المعاناة ، ...» [2].

يهدف التكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات . إنه يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوما أكثر . إنه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقبل وامتلاكه .

أما (النوع الثاني) ، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فنراه في غير نص من النصوص المختارة . يمكن أن نرى من ذلك قول إخوان الصفا: «واعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس

---

(١) المرجع السابق ص ٣/٣٥ .

(٢) مقال: من الألم ينبع كل شيء عظيم ، من كتابه : الله في الإنسان ص١٥١ .

رضيهد يستعصي عليها هنا حصر، حصراً وتقييده تقييداً؛ ما نعالجه في هذه الدراسة قدر مستل من المصادر الإنجازية للعربية. وإن كان كافياً لعرض صورة مناسبة عن تعديل القوة الإنجازية في الخطاب العربي

(أولاً) وسائل التقوية :

يمكن أن نميز - في العربية - بين أربعة أنواع من الوسائل اللغوية المستخدمة لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، وهي: وسائل التشكيل الصوتي Prosodic Devices، والوسائل التركيبية Syntactic devices، والوسائل المعجمية Lexical Devices، والوسائل الخطابية Discoursal Devices.

جـ/١ وسائل التشكيل الصوتي :

وتسمى أيضاً باسم الوسائل التطريزية. ويقصد بها نوع النغمة، والنبر، وجهارة الصوت، والنغمات التقابلية Contrastive Pitches (وهي النغمات الأدنى أو الأعلى من نغمة المتكلم العادية)، وجهارة الصوت التقابلية Contrastive Volume. هذه الوسائل جميعاً وسائل فونولوجية توظف في تقوية قوة المنطوق؛ كأن تقول: "غبي! " في جهارة الصوت الأقصى). وقد تستخدم جهارة الصوت الأدنى مع النغمة الأشد انخفاضاً لتعزيز القوة الإنجازية لمنطوقات سلبية التأثير، مثل: "مغرور! ". وقد تستخدم النغمة الأشد انخفاضاً لتعزيز قوة المنطوق إيجابي التأثير أيضاً، كقولك: "ظريف! " أو "عظيم! " ونحو ذلك.

المعوّل عليه في كل حال، هو سياق الموقف الذي يعين كنه المعنى التأثيري للنموذج التشكيلي. بيان ذلك أن المنطوق الأخير مثلاً "عظيم! " يمكن أن يدل على معنى تأثيري يضاد الحقيقة، وهو- إذ ذاك- تعبير عن المعنى على سبيل المفارقة Ironic Meaning. في مثل هذه الحال، سيدل المنطوق على ضد معناه الحقيقي أو الحرفي من أجل ذلك سيستلزم المنطوق نغمة هابطة ساخرة وجهارة صوت منخفضة.

والنبر التعبيري من النماذج الفونولوجية التشكيلية الدائرة في خطاب المواجهة. يستخدم النبر القوي لتعزيز قوة المنطوق الإنجازية، كقولك: "فظيع! " (وذلك بنبر المقطع الأخير نبراً قوياً، تمطل معه الحركة الطويلة مطلاً زائداً يناسب تعزيز معنى الاستحسان أو الاستهجان وفقاً لإيجابية المنطوق أو سلبيته).

جدير بالإشارة أن الوسائل الفونولوجية التشكيلية ليست من بنية [الـ]منطوقات في الشفرة المكتوبة. وعندما ينص عليها الكاتب، فإنه يدل بذلك [عـ]لى أهميتها ولزومها من حيث هي محددات صوتية سياقية مهمة في تفسير [الـ]معنى. يكثر ذلك في لغة القص وفي الحوار المسرحي الذي يحاكي الحوار [الـ]منطوق في الواقع. من أمثلة ذلك في لغة القص ما يرويه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) [عـ]ن احد بخلائه: وهو ابن أبي المؤمل، قال: "فلما حضر وقت الغداء، صوت [بغـ]ـلامه —وكان ضخماً، جهير الصوت، صاحب تقعير وتفخيم وتشديد وهمز [و]جزم- يا مبشرا هات من الخبز تمام عدد الرءوس "[1] جهارة الصوت [و]التقعير ونحوهما وسائل فونولوجية تشكيلية اتخذها ابن أبي المؤمل في [كـ]ـلامه، من أجل تعزيز قوة المنطوق التوجيهي الإنجازية.

جـ/٢ الوسائل المعجمية :

يقصد بالوسائل المعجمية ما قد يستخدمه المتكلم – في بعض السياقات الاتصالية - من عناصر معجمية تضيف قوة إلى قوة المنطوق الإنجازية. [و]تتنوع صور التقوية هنا وفقاً لما توجه إليه هذه العناصر؛ فقد توجه إلى [الـ]متكلم، أو إلى المستمع، أو إلى المحتوى القضوي.

جـ/٢/١ المقويات الموجهة إلى المتكلم :

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المتكلم Speaker-oriented boosters العنا[صـ]ـر المعجمية التي تشير إلى صدق المتكلم أو ثقته بما يعلم الأمثلة ال[آتـ]ـية من [نـ]ـصوص مكتوبة أدبية :

- " لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة؛ لأنني (أعلم على التحقيق) أن [الـ]ـفتاة شاهدت المكتبات في المدرسة، وشاهدتها في ال[بيـ]ـت "[2].

- " على أنني (أعتقد) يا صاحبي أن الطر[يـ]ـق الوحيد الذي فتح لنا من هذه المتاهات، هو طريق كتبت عليه كلمة واحدة، لا تتبدل في مشكلة من المشكلات وهي كلمة " التعاون "[3].

---

[1] [الجاحظ]، البخلاء، مرجع سابق، ص ٨٥.
[2] [illegible]
[3] [illegible]
[illegible]

- وإنني (لأؤكد لك) أنني لو ملكت الفصل قولاً وعملاً في قضية المذاهب الاجتماعية، لأوجزت الحكم وحسمت الخلاف[1].
- إني (واثقة) أنك لن تفعلي شيئا[2].

مما ينبغي لنا ملاحظته هنا أن هذه العناصر المعجمية المقوية الموجهة إلى المتكلم تشيع في الشفرة المنطوقة بخاصة: لقيام الموقف الاتصالي على التفاعل المباشر، ومن ثم يكثر أن يدور في المحاورات ما يسمى باسم "القواطع الأسلوبية Style Disjuncts"، نحو: بأمانة، صراحة (بصراحة)، بصدق .... وغيرها :

- (بصراحة) هذه عيشة مضنية[3].

جـ/٢/٢ المقويات الموجهة إلى المستمع :

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المستمع hearer-oriented boosters العناصر المعجمية التي تشير إشارة ضمنية أو صريحة إلى معرفة المستمع، أو إلى المعلومة التي تصنع خلفية مشتركة بينه وبين المتكلم. المثالان التاليان من بخلاء الجاحظ يوضحان ما سبق :

- اعلم أني منذ يوم ولدتها، إلى أن زوجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة، وكنا (قد علمت) نخبز في كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته "[4]. لمن كلام مريم الصناع، وكانت زوجت ابنتها، فحلتها الذهب والفضة، فسألها زوجها: أنى هذا يا مريم؟

- والنبيذ - (ما علمت) - والله يذهب بالحفظ أجمع[5]. لمن كلام لابن غزوان – أحد بخلاء الجاحظ - وكان المكي قد ضبطه متلبساً بسرقة مخدته، فزعم ابن غزوان أنه جاء إليه ليسوّي رأسه، فلما صارت المخدة في يده نسي ما جاء له!!

في الشفرة المنطوقة تكثر عناصر معجمية خاصة، مثل: طبعاً، (أوفق

---

(١) المرجع نفسه ص٥٢
(٢) الحكيم، توفيق: الطعام لكل فم، مكتبة الآداب، د.ت ص٣٧
(٣) [illegible]، عبد اللطيف: عشاق فوق العادة، سلسلة المسرح العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٥) ص٤٨
(٤) البخلاء ص٣٤
(٥) المرجع السابق ص١١٩

توكيدا لمقولة اقتران الحياة بالألم في شتى حالاته .

و(رابعها) أن تتضمن الكلمة الثانية الكلمة الأولى ، وهو أن تكون علاقة الثانية بالأولى علاقة العام بالخاص . من ذلك مثلا قول العقاد في سياق دحضه وهما شائعًا بين قراء الشعر ؛ وهو أن شعر الغزل ينبغي له أن يكون مفرطا في رقته بعيدًا عن العنف والقوة: «ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت ألفاظا وحروفا . فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقا قويا عارما» [1]. العارم يتضمن القوى بالضرورة . وهو تضمن محدود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى أقوى . وهذا الشكل كثير الوقوع في النص الحجاجي العربي.

و(خامسها) وهو عكس الشكل السابق؛ أي أن الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى الثانية . ومن ذلك قول الإخشيد في سياق احتجاجه لحسن سياسته ممالكه ورعيته: «وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها ، على عظمها وسعتها ، بفضل الله علينا ... وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية»[2]. السعة مضمنة في العظم . والتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العام إلى الخاص.

(النوع الثاني) وهو تكرير المضمون المبني على مفردتين في جملتين . ويستدلّ – من خلال فحص النصوص المختارة- على أنه أقل الأنواع وقوعًا ؛ فهو يمثل ٤,٥٪ من مجموع الأنواع الأخرى . ومن أمثلته قول الكندي في سياق احتجاجه لحرصه على دراهمه تجنبا للفقر والحاجة: «فكيف تأمروني أن

---

(١) مقال: الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص٩٦ .

(٢) كتاب الإخشيد ، من كتاب : جمهرة رسائل العرب ٤/٤١٩ – ٤٢ .

وأثر أنفسكم على نفسي ، وأقدم عيالكم على عيالي؟» [1]. ومنه أيضًا قول مصطفى محمود في سياق تدعيم دعواه أن الحب هو رأس القضية: «وما كان الصليبيون الذين جاءونا غزاةً طامعين على دين ، أي دين ، ولا كان سفاحو الحرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة» [2] ، رادف الكندي بين (أوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى ، ورادف مصطفى محمود في جملتين من القطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة) . في الحال الأولى وقع المترادفان بصدر الجملتين ، ووقعا بعجز الجملتين في الحال الأخيرة .

(النوع الثالث) وهو تكرار مفردتين في ثنائية . يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪ من مجموع الأنواع الأخرى ، أي ما يقل كثيرًا عن سدس تلك الأنواع ، بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبيا في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها أن يقع تكرير المضمون على مستوى ثنائية لفظية من جملة واحدة . من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعمت أنما سمينا البخل إصلاحا والشح اقتصادا ، كما سمى قوم الهزيمة تحيازا والبذاء عارضة ...» [3].

ومنه قول إخوان الصفا في سياق القياس على النظير دعما للدعوى: «وعلى هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة » [4]. ومنه أيضا قول الإخشيد في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: «وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر ، وشدة البأساء ، على نعيم الدنيا

---

(١) البخلاء ص٨٠ .

(٢) مقال : الحب القديم ، من كتاب: الإسلام في خندق ص٨ .

(٣) البخلاء ص٧٩ .

(٤) رسائل إخوان الصفا ٣٦/٤ .

لا تعني قوة التزام المتكلم هنا التقرير قدر ما تعني التعجب من المحتوى القضوي الذي أودع المنطوق؛ وذلك أن المستمع – كما المحنا- يدرك أن المتكلم يجاوز ذلك إلى تزويد منطوقه بقوة تعجبية، فجعله في الاستفهام البلاغي. وقد وقف غير واحد من الباحثين في نظرية أفعال الكلام على منطوقات الاستفهامية من هذا النوع، وأبانوا عن أنه مفترض من قبل، وانه التعجب الذي يكتسب المنطوق قوة[1]. والتفت ر.أ هدسون R.A. Hudson إلى الأسئلة البلاغية (أو المجازية) Rhetorical Questions معرفاً إياها بأنها صيغ استفهامية ذات قوة تعجبية[2]. والتفت ج. ليتش G. Leech و ج. سفارتفيك J. Svartvik إلى الفرق بين الأسئلة التعجبية التي تجر المتكلم إلى الموافقة في قوة، وبين الأسئلة المجازية الأخرى التي تبدو تبليغات قوية أو مؤثرة[3].

أرى أن نجعل من الأبنية الاستفهامية المعززة لقوة المنطوق الإنجازية، البنية: (لم لا تستطيع أن تفعل س؟). نرى أن هذا النمط يرتبط ارتباطاً وثيقاً حداً في قوته بالأمر المتلو بـ (لم لا تستطيع؟). التركيبان: " لم لا تستطيع أن تتركها وحدها؟! " و "اتركها وحدها، لم لا تستطيع؟! " يمتلك كل منهما القوة الإنجازية ذاتها. وهما ينطلقان من بنية عميقة واحدة. ولا يمنع هذا من تفاوت أحدهما عن الآخر في شئ من خواصه: فالتركيب الأمري مقيد بمخاطب، وغرضه محاولة التأثير فيه. أما التركيب الاستفهامي فغرضه بالأحرى التعبير عن أفكار أحدهم تجاه موقف بعينه. من أجل ذلك، نوافق أنا وريرزبيكا Anna Weirzbicka الرأي بأن التركيب الاستفهامي، يعد في جوهره نوعاً من الانتقاد. وهو انتقاد مهيّج، ولكنه فاقد التأثير. أما التركيب الأمري فهو في جوهره نوع من التوجيه الذي يهدف إلى تصحيح موقف غير

(1) Kempson, R. M.. Presupposition and the Delimination of Semantics. London- New York- Cambridge Uni Press 1975) P.172

(2) Hudson, R.A : The Meaning of Question. Language 51 (1975) pp 1-31, P 9

[illegible] Huddleston بين الاستفهام والسؤال، فالاستفهام مقرونة من [illegible]

[illegible] declarative ، و imperative [illegible]

Huddleston, Rodney: The Contrast between interrogatives and questions. Journal of Linguistics 4, Cambridge Uni Press (1968) pp [illegible] P [illegible]

(3) [illegible] Svartvik [illegible] Communicative Grammar of English. Longman, London, 1975, pp [illegible]

مما سبق يمكن عرض نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي على النحو التالي:

(١) مثل: الأدب المصري، من كتابه: الفصول ص ١٠١.

(٢) مثل: الحب القديم، من كتابه: الإسلام في خلاق ص ٧.

جـ/٢ الو

يقصد بـ... الخطابية الوسائل الخارجة عن النص ... textual devices

أو ما بعد النص، ووسائل ما وراء العملية التداولية meta pragmatic devices. وما يتفرع عن ذلك من وسائل لغوية فرعية، تضيف قوة إلى قوة المنطوقات الإنجازية. وقد كان لعلم اللغة النصي تقدمه إلى العناية بموقفية النص من خلال سلكه في سياقات اتصالية. كذلك تفهم مقصدية النص في إطار تداولية نصية، اهتمت بها نظرية التعامل اللغوي Sprechhandlungstheorie ونظرية أفعال الكلام Sprechakttheorie[1].

من أهم الوسائل الخطابية التي تتضافر في النص أو الخطاب تحقيقاً لوظيفة التقوية تعيين الفعل الأدائي والتكرار والعلامات الرابطة ووسائل ما وراء الخطاب.

جـ/٢/١ تعيين الفعل الأدائي:

تعيين الفعل الأدائي وسيلة صريحة دالة على غرض المنطوق الإنجازي؛ نحو: أسألك، أخبرك، أعذرك...إلخ يخلو المنطوق غالباً من الفعل الأدائي اعتماداً على دور السياق، مثل: "زواجاً موفقاً إن شاء الله" (أي: "أرجو").

وحينما يعين المتكلم غرض المنطوق الإنجازي بفعل أدائي صريح، فإنه يريد أن يجعل ذلك نوع توكيد أو تقرير للقوة الإنجازية. كان أوستين يرى التصريح بالأفعال الأدائية مما يجعل قوة المنطوقات أوضح[2]. وكان ليتش يرى أن المتكلم يستخدم مثل تلك الأفعال عندما يريد أن يوقع نبراً خاصاً على قوة المنطوق الإنجازية[4].

(١) Wierzbick, Anna: A Semantic op. cit. P 89

(٢) Sowinski, Bernhard: Textlinguistik Eine Einfuehrung. Verlag W. Kohlhammer Stuttgart Berlin Koeln- Mainz (1983) S. 66

(٣) [illegible]

(٤) Leech, G. N.: Explorations in Semantics and Pragmatics. John Benjamins Amsterdam (1980) p 69

يزيل تمام بن جعفر – أحد بخلاء الجاحظ المعروفين - (في رده على شكوى أحدهم إليه ضرسه) يزيل غموض الغرض الإنجازي لمنطوقه الاستفهامي قائلاً : "(عجبت) كيف اشتكيت واحداً ولم تشتك الجميع "[1].

جـ/٢/٣ التكرار :

وهو وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية. يقولون: الشئ إذا تكرر تقرر. والتكرار تعرفه الشفرتان: المنطوقة والمكتوبة كلتاهما ، وإن كان تأثيره في بنية الشفرة المنطوقة التلقائية أقوى. فضلاً عن تكرار المنطوق بتركيبه، قد يكرر بتغيير طفيف في هذا التركيب. ويمثل للحالة الأخيرة بالمنطوق التالي من كلام لأبي مازن – أحد بخلاء الجاحظ - لجبل العمر الذي لجأ إليه، فتساكر ابو مازن، وقال لجبل: " سكران والله، (أنا والله سكران!) " [2].

جـ/٣/٣ العلامات الرابطة :

العلامات الرابطة Linking Signals من الوسائل الخطابية الأساسية التي تعزز قوة المنطوق الإنجازية. تعرف العربية كثيراً من تلك العلامات نحو: إلى جانب ذلك، فضلاً عن ذلك، علاوة على ذلك، أكثر من ذلك...إلخ. هذه العلامات نوع من الحشو الخطابي الذي تستخدمه العربية – فيما يثبته البحث اللغوي التقابلي - أقل مما تستخدمه لغات أخرى كالإنجليزية[3].

تدخل تلك العلامات فيما يسميه هاليداي ورقية حسن باسم " روابط الإضافة Additive Conjunctions " من النوع الأول الذي يؤدي هذه الوظيفة العامة ذاتها: وهي وظيفة الإضافة: أي إضافة معلومة، أو تكملة كلام سابق[4].

وقد تستخدم روابط من نوع آخر لوظيفة التقوية أيضاً، نحو: مع هذا، مع أن، على رغم هذا ونحوها. الرابط الأخير مثلاً يستخدم بقوة " أسلم بأن .

---

(1) البخلاء ص١٠٦

(2) مرجع السابق ص١٠.

(3) Williams, M. P. A Problem of Cohesion, In J. Swales and H. Mustafa (ed.) English for specific purposes in the Arab World. Birmingham: Language Studies Unit Aston Uni Press (1984) pp. 118-128, pp.124-125.

(4) Halliday-Hasan Cohesion op. cit: pp. 242-243.

وهذه الروابط جميعاً مما يسميه هاليداي ورقية حسن باسم "روابط المخالفة adversative conjunctions" من النوع الأول الدال على هذه الوظيفة العامة ذاتها[1]. النموذجان التاليان يوضحان ما سبق :

- "طارق: تريدين أن تتركي هذا البيت؟

نادية: هذا ما فكرت فيه من زمن طويل.

السيدة: وأين كنت ستذهبين؟

نادية: هذا شأني وحدي.

طارق: دعيها يا أمي تتخذ القرار الذي يريحها.. وسيدهشك أن أقول: إني أوافقها على هذا القرار كل الموافقة.

السيدة: توافقها؟

طارق: (أكثر من ذلك) أقول: إني فكرت فيه منذ لحظات.... " [2].

- "قيل للحارث لمن بخلاء الجاحظ: والله إنك لتصنع الطعام فتجيده، وتعظم عليك النفقة، وتكثر منه، وإنك لتغالي بالخباز والطباخ...، ثم أنت – (مع هذا كله)– لا تشهده عدوا لتغمّه، ولا وليا فتسرّه، ولا جاهلا لتعرفه، ولا زائراً لتعظمه " [3].

ولاشك أن الروابط من النوعين السابقين ذات علاقة مباشرة بالموقف Situation، والوسط Medium، والتأثير المقصود Intended effect. ولا ينفصل الحشو والترابط أحدهما عن الآخر انفصالاً كلياً، ولا يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً كلياً في الوقت نفسه. كلما زاد الحشو زاد الترابط، ولكن زيادة الترابط لا تؤدي دائماً إلى زيادة الحشو[1].

يمكن أن نجمل لوظيفة التقوية روابط من نوع آخر، نحو: "إذن" التي تدخل في الروابط السببية Causal Conjunction من النوع الثالث المسمى باسم "الروابط السببية الدالة على الحال أو الملابسة Condition / Circumstance".
من هذه الروابط "هكذا" التي تدخل في النوع الفرعي الأول من الروابط

---

(1) المرجع السابق ص٢٤٢-٢٤٣
(٢) الطعام لكل فم ص٨٩.
(٣) البخلاء ص٦١

(1) Halliday-Hasan Cohesion op cit on 242-24?

السببية أيضاً، هذا النوع الذي يدل على السبب والنتيجة reason /consequence النموذجان التاليان يوضحان ما سبق:

- الشاب: ولماذا لم تكتبي لي بذلك قبل عودتي؟

السيدة: ربما..

الشاب: هو (إذن) عمل تخجلين منه؟[1].

- (توطئة ودورات ذاتية) "(وهكذا)" انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة[2].

جـ/4 وسائل ما وراء الخطاب:

تعرف العربية وسائل أخرى، ترتبط – من حيث الوظيفة - بالوسائل الخطابية ارتباطاً قوياً: هي المفردات والعبارات التي تعد وسيلة لغوية صريحة لإبراز وعي المتكلم الذاتي بمجرى الخطاب وحالته، وإن لم تكن من بنية النص المنطوق أو المكتوب، نحو: أشدد، أكرر، أعود فأكرر، أقول ثانية، قلت أكثر من مرة، دعني أشدد ... إلخ.

- "السيدة: (قلت لك أكثر من مرة) دعيني أنا أتصرف"[3].

ومن وسائل ما وراء الخطاب ما يتجه إلى تقوية إسهام المشارك في التفاعل، نحو: كما تقول، كما قال فلان لتوه، كما ذكرت، كما ذكر فلان من قبل ... إلخ. هذا نوع آخر من مصادقة المتكلم على إسهام المستمع. والمصادقة نوع تقوية للمنطوق. نلحظ هنا أن مثل تلك الإقحامات Interjections تتردد في العربية تردداً أقوى من لغات أخرى من غير فصيلتها كالألمانية والإنجليزية والفرنسية. لعل ذلك يرجع إلى أن العربية تنطلق من ثقافة شفهية تركت آثارها في خصائص السبك وهيئاته.

(ثانياً) وسائل الإضعاف:

من سياقات الاتصال ما يحتاج إلى إضعاف المتكلم لقوة المنطوق الإنجازية. تعرف استراتيجية الإضعاف من الوسائل ما عرفته استراتيجية التقوية من حيث النوع، ولكنها مختلفة من حيث الكيفية.

---

(1) [illegible] ص ٤٦

(2) السابق ص ٤٩

(3) [illegible] ص ٨٠

جـ/١ وسائل التشكيل الصوتي :

من أهم هذه الوسائل: منسوب التنغيم، والنبر الضعيف، وجهارة الصوت المنخفضة، والنغمة العالية في سياق مناسب :

لعب منسوب التنغيم دوراً كبيراً في حقل القوى الإنجازية في العربية هنالك نمط من التنغيم الهابط – الصاعد الذي يعبر عن السلوك المعرفي عند المتكلم، وهو وسيلة فونولوجية مهمة لتخفيف قوة المنطوق الإنجازية. في مثل قولنا: " أنت أ هـ ٧ و ج! " يخفض ذلك التنغيم حدة النقد، كما يخفّض قوة المنطوق التوجيهي من الأمر إلى الالتماس في مثل: " املأ الفراغ ٧ أعلى! ".

من ناحية أخرى، فإن تخفيف النبر على مقطع بالكلمة، وما يصحبه من انخفاض جهارة الصوت، مما يؤدي إلى إضعاف قوة المنطوق. نبر المقطع الأول من الفعل "اكتب" نبراً ضعيفاً يجعل الأمر إذناً بالكتابة فحسب في سياق مناسب.

أما النغمة العالية، فتستخدم – في سياقات خاصة – علامة على تجرد المتكلم أو تنصله من مسئولية التصديق بصحة منطوقه. نطق المنطوق: " أنت فيلسوف! " في نغمة عالية يضعف من التصديق بصحة محتواه. يستنبط من هذا أن النغمة العالية ليست دائماً علامة على تعزيز قوة المنطوق. في سياقات مناسبة تبدو النغمة العالية وسيلة صوتية تشكيلية لإضعاف القوة أيضاً. ولننظر الآن مثلاً إلى كلام ابن أبي المؤمل –أحد بخلاء الجاحظ– رافعاً صوته فيه بالتنويه والتشنيع حيلتين من حيله لإخجال ضيفه: " هات يا مبشر لفلان شيئاً يطعم منه، هات له شيئاً! " [١].

سياق رواية الكلام يؤدي بنا إلى القول بأن النغمة التي استخدمها ابن أبي المؤمل كانت نغمة اصطناعية متكلفة ناشزة Falsetto. التنويه والتشنيع في كلام ابن أبي المؤمل وسائل صوتية تشكيلية يحدد المقام مغزاها، وأنها من احتياله الماكر لإضعاف قوة الأمر انتظاراً لأن يرد الضيف– وقد اعتراه الخجل– " قد فعلت ": أي " قد أكلت! ".

---

(١) البخلاء ص ٨١

- طه حسين (العدد ١٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٦٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٥	٣٣,٣٪

- العقاد (العدد ٢٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٤٥,٤٪
بين مفردتين في ثنائية	٣	١٣,٦٪
بين مفردتين في جملتين	٣	١٣,٦٪
بين جملتين أو أكثر	٦	٢٧,٣٪

- المازني (العدد ٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١	٥٠٪
بين مفردتين في ثنائية	١	٥٠٪
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٦٦,١٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	١	٣٣,٣٪

- خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٥	١٠٠٪
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

- خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٤	٦٦,٦٪
بين مفردتين في ثنائية	١	٤,٨٪
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٦	٢٨,٦٪

والتلطيف بأنماط خاصة من الاستفهام، ونفي الصيغة، والعدول.

أما الأسئلة التذييلية، فهي الأكثر استعمالاً لهذا الغرض. في تداولية أعمال الكلام، نظر إلى الأسئلة التذييلية من حيث هي مضمنات لأعمال الكلام غير المرحب بها Unwelcome Speech Acts. من ذلك قولك: "أنت كنت معه، ألم تكن أنت؟" أو "أنا كنت على حق، ألم أكن كذلك؟". وذلك عندما يؤدي كل منهما في تنغيم استفهامي صاعد، ينظر إليه على أنه طريقة ألطف للإخبار بأنك "كنت معه" وبأنني "كنت على حق"، على التوالي دون تذييل. جعلت أنا ويرزبيكا وصفها للبنية الإنجازية للجمل الإعلانية declarative sentences على النحو التالي :

- أرى أن س.
- لا أريد أن أقول بأنني أعرف أن هذا صواب.
- أريدك أن تقول بأنه صواب، أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب.

وإذا كانت الجملة الإعلانية متعلقة برأي بعينه، لا بمسألة حقيقية، فإن القوة الإنجازية سوف تضم أكثر من مكون واحد. نحو ذلك المثال الذي تضربه وتصفه لنا أنا ويرزبيكا :

- ماريا لطيفة، أليست كذلك؟
- أرى أن س.
- أزعم أنك ترى الرأي نفسه.
- لا أريد أن أقول بأنني أعرف أن هذا صواب (أي أنك ترى الرأي نفسه).
- أريدك أن تقول بأنه صواب أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب[1]".

النمط السابق من الاستفهام التذييلي هو ما يطلق عليه فريزر Fraser اسم "التذييل ذو الاستقطاب المتناظر Contrastive Polarity Tags". أما النمط الآخر فهو ما يطلق عليه اسم "التذييل ذو الاستقطاب المتماثل Matching Polarity Tag"، مثل: "الجو حار، حار؟"[2]. يتراوح هذا النمط الأخير بين وظيفتين

(1) Wierzbicka, Anna. A Semantic Meta Language. Op. cit. pp. 85-86.

(2) Fraser, B. Conversational Mitigation. op. cit. P. 32.

[illegible] التوظيفة التوبيخية والوظيفة التعبيرية أما الأولى [illegible] منطوق [illegible] يوجه (أ) سؤالاً إلى (ب) عن معنى [illegible] (ب) [illegible] يمكن [illegible] أن يرد (أ) شرح (ب) فمثلاً: "تعني "الحاجة أم الاختراع" - ألا تعني هذا؟". ولكنه لا يمكن أن يرد عليه فمثلاً "تعني: الحاجة أم الاختراع - تعني هذا؟". أما الوظيفة التعبيرية، فكأن يفهم (أ) من كلام (ب) أنه مفلس تماماً مثلاً، فيرد (أ): "أنت مفلس تماماً، أنت كذلك؟"[1]

لا يعد النمط الأخير من استراتيجيات الإضعاف، ولكنه يبين أن المتكلم لم يتحقق من سماع المنطوق، إن كان سمع صواباً (وهو ما لا يشك فيه غالباً). المتكلم يريد هنا أن يتحقق من أنه فسّر ما سمعه تفسيراً صائباً.

استطاع فريزر أن يحدد نمطين تنغيميين شائعين للسؤال التذييلي:

(أحدهما) التنغيم النهائي الصاعد، وهو يدل عنده على رضا المتكلم عن الحال الراهنة، ويتضمن استجابة إيجابية.

و(الآخر) التنغيم هابط المنسوب، وهو يدل عنده على الاستياء والضجر، ويتضمن طلب المعذرة، والتماس الإقرار بصحة القضية"[2].

أما جانيت هولمز، فقد استطاعت أن تثبت من تحليلها مادة مستقاة من الإنجليزية أن التنغيم ذا المنسوب الهابط Falling Contour، يوظف أيضاً وسيلة من وسائل تخفيف قوة المنطوق الإنجازية، وليس التنغيم الاستفهامي الصاعد وحده، كما زعم فريزر"[3].

وتقودنا المادة اللغوية المتأملة في العربية، إلى الاتفاق مع جانيت هولمز فيما ذهبت إليه. في بعض السياقات، يهدف المتكلم بتنغيم تذييلات الأفعال الكلامية تنغيماً هابطاً، إلى إدخال المستمع إلى دائرة التفاعل وتشجيعه على الإسهام في المحادثة. بعبارة أخرى، يهدف إلى تشجيعه على أن يكون طرفاً في تقدير صدق القضية المعبّر عنها. المتكلم في قوله مثلاً: "هذا كتابك، أليس هو؟" و"كانت حزينة وقلقة، ألم تكن هكذا؟" يعبر عن مشاعر إيجابية تجاه المستمع؛ لأنه يتغيا تشجيعه واستدراجه إلى المشاركة في التفاعل.

---

(1) Wierzbicka, Anna: A Semantic, P.86

(2) Fraser, B: Conversational, op. cit P.349

(3) Holmes, Janet, op. cit P.357

...حده هنا يبدي موقفه عن الجزم بصحة القضية المعبر عنها بالمنطوق. وهنا ... ضعف لقوته الإخبارية.

ومن ما لاحظه هريرر، من تعبير منسوب التنغيم الهابط في التذييلات، ... الاستياء والضجر، مما يناسب حالة بعينها: هي أداء التذييل في منسوب ... بنمط هجومي، لا ينتظر معه إسهام المستمع في التفاعل. من ناحية أخرى، فإن زعم هريرر بأن التذييلات الصاعدة تعبر دائماً عن رضا المتكلم، يصطدم بمنطوقات مثل: " هذا كتابي، أليس هو؟ " حيث ينطق التذييل هنا في نغمة صاعدة، ولكنه - مع ذلك - يرمي إلى تلطيف قوة الاتهام. والاتهام لا يعبر بداهة عن رضا المتكلم.

هناك نمط آخر للتذييل، هو تذييل الأمر بجملة استفهامية. يكشف هذا النمط عن مجال واسع من القوى الإنجازية المشفرة فيه، وهي قوى إنجازية لا يمكن أن نعبر عنها بوساطة أفعال أدائية، مثل: " اجلس، ألا تريد؟ ": فالتذييل هنا يعكس الرغبة في أن يكون المتكلم مهذباً مع زائر مميز. التذييل " ألا تريد؟ " يستلزم رؤية الفعل الكلامي شيئاً يتوقع معه رغبة المخاطب في فعله. وهو يختلف عن مثل قولنا: " اجلس. هل ستجلس؟ " الذي يستلزم النظر إلى الفعل الكلامي على أنه شئ يريده المتكلم. استخدام " ألا تريد؟ " في موقف ينظر فيه إلى الفعل الكلامي على أنه من مصلحة المخاطب لا من مصلحة المتكلم، وتوظيف هذا التذييل في تلطيف قوة الأمر السابق عليه، وجعل الخطاب مهذباً، مما يجعل الاستفهام التذييلي الملحق بالأمر وسيلة تركيبية فعالة من وسائل تلطيف القوة الإنجازية في سياقات اجتماعية خاصة. وإذا كان للتقوية درجاتها ، فللإضعاف تبدو درجات الإضعاف مع التذييل: " ألا تريد؟ " في إنزال الأمر إلى العرض . وهذا يتوائم مع تقديم " ألا تريد؟ " الفعل الكلامي على أنه شيء يرى المتكلم أن مخاطبه يريده أو يرغب في فعله. كذلك لا ينبغي أن ننظر إلى التذييل " هل ستجلس؟ " على أنه يعبر عن مشاعر سلبية تجاه المستمع. نلحظ استعمال هذا التذييل غالباً لإنزال قوة الأمر إلى قوة الالتماس. ويتوائم هذا مع تقديم " هل ستجلس؟ " الفعل الكلامي على أنه مرغوب فيه من جانب المتكلم.

كان صادوك Sadock ممن نظروا إلى الأمر الملحق بسؤال على أنه وسيلة من وسائل تلطيف قوة الأمر المباشر أو الالتماس الخشن. اجتهد صادوك في أن يبرز إلى حقل البحث الخلفية الحضارية لاستعمال الأمر في اللغة، يقول: "يبدو لي أن المسألة أعظم من كون الأوامر الملحقة بأسئلة تأدباً، وأعظم من كون الأوامر المجردة منها غير تأدب. أنا لا أرى فظاظة الأوامر جزءاً من معناها".

أحسب – على رغم ذلك – أن هنالك قوانين محددة حضارياً لاستعمال اللغة، هذه القوانين التي تبين لنا أن من الفظاظة أو قلة الأدب أن نلتمس شيئاً التماساً مباشراً ممن هو ندّ لنا، أو ممن هو أرفع منا اجتماعياً "[1].

وأما التلطيف بأنماط خاصة من الاستفهام، فمنه الجملة الاستفهامية من النمط: "لماذا لا تفعل س؟ ". في سياقات مناسبة، يتضح لنا أن جملة من هذا النمط، يقصد بها الدعوة إلى فعل شيء، أو عرض فعله، أو اقتراح فعله، أو التماس فعله، مثل: " لماذا لا تزورنا الليلة وتتناول معنا العشاء؟ " (دعوة)، أو " لماذا لا تجرب شيئاً من هذا الكعك؟" (عرض) أو " لماذا لا تتصل به، إنه يستطيع مساعدتك " (اقتراح) أو " لماذا لا تكف عن هذا اللغو " (التماس أو انتقاد)

" غني عن البيان أن التعبير بالأسلوب الاستفهامي المضمّن معنى العرض أو الاقتراح ونحوهما، يعني أن المتكلم لا يحاول أن يفرض رغبته على المستمع، بل يحاول أن يوجه اهتمامه إلى شيء يستحسن فعله فحسب. وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق الإنجازية.

وكانت ويرزبيكا ممن عنوا ببحث هذا النمط من الاستفهام ووصفه دلالياً. جرى وصفها له على النحو التالي :

(قول أريدك أن تقول- إن استطعت - لماذا لا يفعل س؟

- أزعم أنك لن تستطيع (قوله).
- أرى أنه شيء طيب إذا فعل.
- أقول هذا، لأنني أريدك أن تفكر فيه وأن تقول إذا كنت تريده أن

(1) Sadock, Harrold. M. Toward a Linguistic Theory of Speech Acts. op. cit. P 114

ي.. إلا ...ومه بالطبع؛ وذلك أن الاحتراس والتحفظ ونحوهما فيما يتفاوت فيه الناس من جنس واحد على حسب تقديرهم للمواقف الاتصالية واختلافهم في السمات الشخصية والخواص التعبيرية. في حقل الخطاب الأدبي يصدر العقاد ..مثلاً عن ..رغبة ظاهرة إلى الأسلوب الفوقي الذي تتضاءل معه وسائل الاحتراس المموهة. العقاد احتراساته بالطبع، ولكنه في تقويته لمنطوقاته يبالغ مبالغة تميزه من سائر معاصريه، حتى صارت له أساليبه المعروفة. في سيرته الذاتية (أنا) تنتشر عبارات وأساليب مثل: " والحق الذي لا مرية فيه عندي " و" أعرف حق المعرفة "، و" أعلم علم اليقين " و" أقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف " و" أقرر... نعم أقرر"...إلخ. والعقاد في احتراساته يعلو بها كثيراً إلى ما يداني التأكد من صدق القضية التي يعبر عنها، نحو: " لا أدري على التحقيق " و" ومع هذا يجوز لي أن أقول " و"أوشكت مع هذا أن أومن بأن.... " و" والظاهر، لا بل المحقق أنني... " ....إلخ. في عمل مناظر هو " الأيام " لطه حسين نراه قد صنع لنفسه أسلوباً خاصاً في الاحتراس مثل " قل- أو قل.. " و" إن شئت ... "، أو تعبيره المخاطب بين شيئين كثيراً بالحرف " أو " مثل: " وذهل عن نفسه أو ذهلت نفسه عنه " و" قلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت عنه التجارة " و" لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً "... إلخ. يمكن أن نتخذ من طبيعة الاحتراسات في نص السيرة الذاتية بين العقاد وطه حسين مؤشراً على موقعية كل منهما من نصه السيري وموقفه تجاه القضايا التي يعبر عنها فيه.

إذا كان الخطاب الأدبي – كما يقول فرديناند هالين- كطائر العنقاء، يمارس قوته في عدد غير محدود من السياقات[1]، فإن ذلك أدعى إلى زيادة توسيع مجالات استثمار مفاهيم تداولية أفعال الكلام وأسسها اللغوية لبيان كيف يكون الخطاب الأدبي فعلاً لغوياً، وكيف يتحقق إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية في الخطاب الأدبي من خلال سياقاته الاتصالية الحقيقية.

●●● ●●● ●●●

---

(1) [illegible] ترجمة الدكتور محمد [illegible]، مجلة [illegible] الأدبي [illegible] ١٩٩٨، ص١١.

الفصل الخامس

الصورة والثقافة والاتصال

١- توطئة :

الزيادة السريعة في رقعة الصورة على خارطة الثقافة الإنسانية تقف وراء وصف عصرنا بأنه " عصر الصورة "، كما أن الطبيعة الرمزية للصورة بأجناسها كافة، هي التي دفعت إلى القول بأن صورة واحدة تساوي ألف كلمة. الصورة – كما يقول ريجيس دوبري Régis Debray في كتابه القيم (حياة الصورة وموتها Vie et Mort de L'image) رمزية، غير أنها لا تملك الخصائص الدلالية للغة: إنها طفولة العلامة. ولا يخفى أن هذه الأصالة تمنحها قدرة على الإيصال لا مثيل لها: فالصورة ذات فضل لأنها أداة ربط، لكن بدون مجموعة بشرية متماسكة، تنتفي الحيوية الرمزية"[1].

يمكن أن نضيف إلى الحيوية الرمزية التي أشار إليها ريجيس دوبري الطبيعة الاختزالية للصورة بعامة، بما في ذلك الصورة الشعرية. ما تقوله الصورة الشعرية غالباً في كلمات قليلة يحتاج لمعادلته وتأويله إلى كثير من الكلمات. وما تقوله رواية في صفحات عديدات يمكن للصورة السينمائية أن تقوله في صورة واحدة: وذلك اعتماداً على طبيعتها الخاصة: فهي صورة مرئية يحكمها قانون "أن ترى يعني أن تختصر".

بينما ربط الصورة بالوعي والثقافة من مجالات الدراسة المعروفة في نظرية الصورة غير الأدبية، إذا به كالأرض المجهولة التي لم تستكشف بعد في نظرية الصورة الأدبية. ما أكثر العلوم وما أشد تنوع المناهج التي درست بها الصورة الأدبية من حيث هي بنية لغوية ذات غايات جمالية، ولكن ما أندر الإسهامات التي وضعت الصورة الأدبية في منظور الثقافة والوعي والاتصال.

ليست الصورة أثراً خلفه الإحساس فحسب، وليست نتاجاً جمالياً خالصاً لخيال مطلق أو واقع تصوره مهما وصفت الصورة بواقعيتها: فهناك دائماً شئ ما تبنيه الصورة بطريقتها. إذا كان اختيار الكلمات يتضمن اختيار الموقف، اختيار نوع من التركيب الذهني الذي يشاهد الشئ من خلاله، أو يستوعب

(١) دوبري، ريجيس. حياة الصورة وموتها. ترجمة دكتور فريد الزاهي. أفريقيا الشرق- الدار البيضاء ٢٠٠٢م ص٣٥

الإطالة بالإضافة ، والإطالة بالتنويع .

(أولا) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفى محمود:

- الابن يقتل أباه ، والأم تقتل ابنها [1].

٢+ ١

والإطالة بالإضافة نمط بارز جدًا عند مصطفى محمود بوجه خاص .

(ثانيا) ومن الإطالة بالتنويع: قول محمد زكي عبد القادر:

- من الألم ينبع كل شيء عظيم ، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء عظيم[2].

٢+ ١

يعبر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتنويع هكذا:

س ولكن ليس كل س ؛ أي هي إطالة باستثناء شيء ما من العنصر السابق

ومن الإطالة بالتنويع أيضًا قول إخوان الصفا:

- لم يضف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا ،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعا [3].

---

(١) مقال : أنشودة الأمل ، من كتابه : كلمة السر ص١٥ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٣٣/٤ .

(٣) المرجع السابق ٣٣/٤ .

٢+

ويعبر عن هذه الصورة هكذا: ليس س ولكن ص .

(جـ) ولما التمديد بالتعظيم ، فنرى له في نصوصنا الحجاجية المختارة صورا عدة ، من أهمها ما يلي:

(أولا) التعظيم بالإشارة إلى الزمان ، ومنه قول إخوان الصفا:

- فقام النبي بمكة نحوا من اثنتي عشرة سنة ،

١

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة [1].

٢×

وتسمى هذه الصورة بالتعظيم الزماني المتقدم ؛ أي: أ قبل ب .

(ثانيا) التعظيم بالطريقة ، ومنه قول إخوان الصفا أيضًا:

- كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا ،

١

وهكذا كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) [2].

٢×

ما سبق يمثل التوازي في علاقة التمديد بالتعظيم في هيئة الطريقة من النوع الثاني وهو المقارنة . «هكذا» فيما سبق تعني: «بهذه الطريقة» ، ويقصد

(١) المرجع نفسه ٣٣/٤ .

(٢) المرجع نفسه ٢٣/٤ .

[illegible]

... استعمال عدد محدود من الاستعارات ... ملاحظته ... النقدية في بعض أنماط الخطاب، لاسيما الخطاب الفلسفي والخطاب ... يبحث أولهما عن الحقيقة ويتحرى الأخذ بالدقة والوضوح في ... والإخبار) يقابله الاستحسان والترحيب في الخطاب الشعري الذي يجعل ... الصورة الاستعارية آلية أساسية للتواصل والتأثير. نمط الخطاب وطبيعة ... الموقف عملان حاسمان في توسيع رقعة التصوير الاستعاري وتشعبه.

٢. الصورة والثقافة :

إن وقف دراسة الصورة الأدبية على جمالياتها وفعاليتها في القارئ يعكس تصوراً للدراسة الأدبية تختزل فيه إلى دراسة اللغة، في الوقت الذي يسعى فيه أن يتسع فضاء النظر إلى النص الأدبي بوصفه نصاً ثقافياً، ينتمي في إنتاجه بالضرورة إلى مجتمع تحكمه أعراف ومعتقدات وتوجهات وقيم خاصة، ويسعى إلى أن يضيف أو يبصر أو يعدل أو يبني معتقدات وتوجهات جديدة يراها الأجدر بروح العصر.

بينما دراسة العلاقة بين اللغة والثقافة قد أنشأت فرعاً جديداً تتنامى فيه الإسهامات يوماً بعد يوم، وهو ما يسمى بـ " إثنو جرافيا الاتصال Ethnography of Communication "، إذا بدراسة العلاقة بين الصورة والثقافة تبدو حتى الآن أرضاً جديدة لم تحدد حدودها ولم تعلم معالمها بعد. ولا نكاد نرى في دائرة النقد العربي المعاصر إلا اهتماماً ضعيفاً، وله بالطبع أهميته وجدواه، بشكل العلاقة بين الشعر بعامة والثقافة. يمكن أن أشير هنا مثلاً إلى دراستين نقديتين أكاديميتين صدرتا في عام واحد، وهو عام ٢٠٠٠م في مسعى مخلص إلى النظر في النص الشعري من منظور ثقافي. أما الدراسة الأولى فهي " النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية " للدكتور عبد الله الغذامي، وأما الثانية فهي " ثقافتنا والشعر المعاصر " للدكتور مصطفى ناصف. صدور هاتين الدراستين في عام واحد يعكس رغبة مشتركة عند نقادنا في تحديث الفكر النقدي العربي، يؤرخ له ببداية الألفية الثالثة. تطرح الدراسة الأولى في

... خليل مصطفى، معروفت، خطاب العلمي بين الاستعمال الفاصحي للغة والاستعمال الاستعاري، مجلة ... الفكر العربي المعاصر، (مركز الإنماء القومي، بيروت، ... عدد ١٠٠–١٠١، ١٩٩٣) ص ص ١٩–٢٨، ص ٢١.

مقدمتها السؤال التالي: "هل في ديوان العرب أشياء أخرى غير الجماليات التي وقفنا عليها - وحق لنا - لمدة قرون؟"[1].

الإجابة عن هذا السؤال المحوري في دعوة الغذامي إلي تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغض النظر عن عيوب النسقية، إلي أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه الثقافية[2]. ولأن الهدف من الدراسة التأسيس لنظرية نقدية ثقافية، فقد كان النص الشعري في بنيته اللغوية وإشكالياته الأيديولوجية الاهتمام الرئيسي.

ولعل في مناقشة الغذامي مفهوم "المجاز" من حيث هو قيمة ثقافية وليس قيمة بلاغية – جمالية كما هو ظاهر الأمر، ما يفيد في التمهيد النظري لدراسات الصورة بعامة من المنظور الثقافي.

أما دراسة الدكتور مصطفي ناصف، فهي تشترك مع دراسة الدكتور الغذامي في النقد الثقافي للشعر، ولكنها عبارة عن قراءات شتى لنصوص مختلفة من الشعر العربي المعاصر، كأنما قدر لدعوى النقد الثقافي أن تتكامل تنظيراً وتطبيقاً. وقد وضع الدكتور ناصف في مقدمة هذه الدراسة مقولات نظرية أساسية: كالقول بأن إسهام الشعر في الثقافة يعتمد على طبيعته، وأن هذا الإسهام هو غالباً من قبيل الحفاظ على حيوية الحساسية وإثارة الخيال، وأن الغاية من قراءة الشعر إفساح السبيل لتصور أفضل لثقافتنا[3].

هذه المقولات الأساسية هي الخيوط التي ربطت كل القراءات في هذه الدراسة بخيط واحد، هو استجلاء الجدل القوي بين الشعر ومجموع الثقافة. غير أن هذه الدراسة لم تول اهتماماً لما تنطوي عليه الصور الكلية في النصوص المقروءة من دلالات ثقافية، ولكن انشغالها بالكنايات الثقافية والرموز لا يستكثر معه كثير من الثناء والإعجاب.

ينبغي لنا أن نجعل لثقافة الصورة وجهاً آخر، هو ثقافة الصورة الشعرية

---

(1) الغذامي، عبد الله: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 (2000م) ص7.

(2) المرجع السابق، ص8.

(3) ناصف، مصطفى: الثقافة والشعر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (2000م) ص4.

وعلى عكس جبوري وباربرا ، فهمت شيرلى أوستلر Schirley Ostler التوازن على حقيقته . من الناحية النحوية ، تبدو العربية – وفقا لشيرلى – مجاهدة من أجل تحقيق التوازن Balance ، على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر مترابطة . وهي ترى هذا التوافق (أو السيمترية) على مستوى نظم الجملة ، وفي تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والعبارات [١].

(١) راجع في تفصيل ذلك:

Ostler, Schirley. E. English in Parallels, op. cit., pp. 173-175.

الفصل الرابع
تعديل القوة الإنجازية
دراسة في التحليل التداولي للخطاب

كان يوري لوتمان - في دراسته سيميوطيقا السينما - قد حصر الثقافة على طول التاريخ البشري - في نوعين مستقلين ومتمائلين ثقافيا. ويرى لوتمان أن وجود كل من هذين النظامين أمر ضروري لتطور الثقافة"⁽¹⁾.

- إذا انتقلنا إلي مفهوم الثقافة، رأيناه يضيق تارة حتى يقتصر على الأنشطة والنتاجات الفكرية والأدبية والفنية، ويتسع تارة أخرى حتى تعرف الثقافة بأنها ما يجعل الحياة تستحق أن تحيا. مصطلح "الثقافة" - كما يقول سالزمان (Salzmann) - مصطلح شامل "all- inclusive". يفهم هذا المصطلح على أنه يشير إلي النموذج الكلي للسلوك الإنساني المكتسب الذي يرثه جيل عن جيل. وعندما نتحدث عن الثقافة فإن ذكرها ذكراً صريحاً هو من نافلة القول، وذلك أن أي لغة ليست إلا شكلاً من أشكال السلوك المكتسب ومن ثم، فهي جانب من جوانب الثقافة⁽²⁾. ويرى منظرو مدرسة فرانكفورت في علم الاجتماع -كما يقول إيان كريب Ian Craib - أن الثقافة هي السبل التي تتبعها المجتمعات والأفراد لوضع تصور عن العالم، وأنها العامل الوحيد لدمج الأفراد بالمجتمع دمجاً ناجحاً"⁽³⁾. والثقافة – في مفهوم إدموند ليتش Edmund Leach - عبارة عن تقاليد السلوك المرعية التي تقبل الانتقال⁽⁴⁾.

ويذكر ت. س. إليوت – في ملاحظاته نحو تعريف الثقافة - أن ثقافة المجتمع هي الأساس؛ وذلك أن ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة، وأن ثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع⁽⁵⁾. ولا ينبغي – من وجهة

---

(1) يوري لوتمان: سيميوطيقا السينما. مقال ترجمه دكتور/ نصر حامد أبو زيد. دار إلياس العصرية – القاهرة (١٩٨٦م) ص ص٢٦٥ -٢٨١ ص٢٦٩.

(2) Salzmann, Z.. Language, Culture and Society. Op. Cit. p. 156

(3) كريب إيان: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس. ترجمة دكتور/ محمد حسين غلوم. مراجعة دكتور/ محمد عصفور. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. العدد ٢٤٤ (ذو الحجة ١٤١٩ هـ- أبريل ١٩٩٩م) ص٣٢٢.

(4) Leach, Edmund: The Influence of Cultural Context on Non- Verbal Communication in Man in. R.H. Hinde (ed.): Non-Verbal Communication. Cambridge (1972) pp. 315-347, p. 315.

(5) إليوت ت. س: ملاحظات نحو تعريف الثقافة. ترجمة وتقديم دكتور/ شكري محمد عياد. الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠١م) ص٤٤

نظر إليوت - اعتبار المستويات العليا على خط من الثقافة أصعب من خط المستويات الدنيا، ولكن ممثلة لثقافة أكثر وعياً وأكثر تخصصاً.

كان سالزمان قد ميز بين الثقافة غير اللغوية واللغة المناظرة: تنقسم الثقافة غير اللغوية عنده إلي ما يلي:

٧- الثقافة العقلية (Mental Culture): وذلك كالنظر إلي العالم "world view" وتوجهات القيم "value orientation".

٨- الثقافة السلوكية (Behavioral Culture)؛ وذلك مثل مسح الأقدام قبل الدخول إلي المنزل أو القيام بعملية نقل قلب.

٩- الثقافة المادية(Material Culture): وذلك وفقاً لبعض علماء الأنثروبولوجيا. وهي عبارة عن النتاجات المادية للسلوك، وذلك أن مواد الثقافة المادية هي عادة حصيلة تطبيق سلوك بعينه (كالمهارات اليدوية)، أما الثقافة العقلية، فهي المعرفة[2].

تدعونا صفة الجمع أو الشمولية في مفهوم الثقافة إلي القول بأن الصورة ظاهرة ثقافية بالضرورة. وبديهي أن العلاقة بينها وبين الثقافة هي علاقة الخاص بالعام، من حيث إن الصورة إحدى تجليات الثقافة العقلية. الصورة إنتاج لنظام من المعاني يخضع لثقافة المجتمع الذي تتوجه إليه، وإن كانت ذات دور طليعي في استشراف المستقبل، فضلاً عن خصوصياتها في إنتاج ذلك النظام. وبديهي أيضاً أن صفة الثقافة التي تقدمها الصورة مرتبطة بطبيعة الوسيط التعبيري الذي تظهر فيه، وبالغاية التي تتغياها: فالصورة الأدبية فكرة معبر عنها بالكلمات. والصورة الأدبية طريقة فنية لوضع تصور عن العالم لا تمسك به إلا بالتفاعل والتأويل.

ولا ينبغي المبالغة في أهمية العنصر الفكري في الشعر، كما يقول ريتشاردز: لأن ذلك سوف يؤدي إلي إساءة فهم الشعر والتقليل من أهميته[3]. إن الشاعر لا يكتب- كما يقول ريتشاردز - باعتباره عالماً، وإنما هو يستخدم هذه الكلمات لأن النزعات التي يثيرها الوضع الذي يوجد فيه تتألف

(١) المرجع السابق ص٦٨

(٢) Salzmann, Z.: Language, Culture and Society, Op. Cit. P. 156

(٣) ريتشاردز، أ. أ.: العلم والشعر، ترجمة دكتور محمد مصطفى بدوي، هيئة الكتاب (٢٠٠١م) ص١٩

على إيجاد هذه الصورة دون غيرها في وعيه وسيلة لتنظيم "التجربة التي يعبر عنها ولتفسيرها وللسيطرة عليها"[1].

ويبين "لتوسير أن الفن لا يمنحنا معرفة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولذلك فإنه لا يحل محل المعرفة (بالمعنى والمفهوم الحديثين: المعرفة العلمية). لكن ما يمنحنا إياه يظل برغم ذلك محتفظاً بعلاقة محددة: خاصة مع المعرفة. خصوصية الفن وفرادته هي أنه "يجعلنا نري "، " يجعلنا ندرك "، " يجعلنا نحس " بشيء ما يلمح ويشير مداورة إلى الواقع. إن ما يجعلنا الفن نراه – بتعبير ألتوسير – هو الأيديولوجية التي ولد الفن منها، ويستحم في مياهها، الأيديولوجية التي يحرر الفن نفسه منها بوصفه فناً ويلمح في الوقت نفسه إليها"[2].

ويرى يوري لوتمان أن مطلب الشعر – وينبغي بالتالي أن يكون مطلب الصورة بما هي بنية دلالية فيه – يتفق مع مطلب الثقافة بوجه عام: فالهدف من الشعر معرفة العالم، والعلاقات التي تربط بين الناس، ومعرفة الذات، وتطور الشخصية الإنسانية في عملية التقدم والاتصال الاجتماعي. عبر أن الشعر – كما يقول لوتمان – يحقق هذا المطلب بصورة نوعية، ويستحيل فهم طبيعته الخاصة، إذا تجاهل المرء آليته وبنيته الداخلية"[3].

ويشير جاستون باشلار Gaston Bashelard إلى حاجة دراسة الصور إلى منظومة هائلة من المعارف. كما يشير إلى أن النقد المستند إلى الفكر والموجه من الشعر لن يقود إلى المركز، حيث تتشكل الصور الشعرية"[4].

لعل ما تقدم يؤكد حقيقة مهمة هي أنه مهما استطعنا أن ندرس الصورة دراسة موضوعية، فإن إمكانية تقديم الصورة وجهاً موضوعياً للثقافة السائدة أمر صعب ومحفوف بالحذر؛ وذلك أن الحقيقة التي تقدمها الصورة

---

[1] المرجع السابق ص ١١ - ١٣
[2] [illegible] ذلك
[3] [illegible] ١٤٢٢ هـ [illegible] ٢٠٠١م، ص ٢٩
[4] [illegible] ١٩٩٣م، ص ٩٣ - ١١٩، ص ١٠٨
[illegible]

الفن عامة حقيقة تجيبنه في مقابل الحقيقة التصويرية في الحضارات السمعية والبصرية.

نريد أن نخلص إلى أن هذا المفهوم المركب لثقافة الصورة ينبغي له أن يتسع لدراسة مضمون الصورة والطريقة التي يقدم بها هذا المضمون معاً. نرى لذلك المفهوم وجهين اثنين.

إذا كانت الصورة نتاجاً فنياً، فإن الوجه الأول لذلك النتاج هو كل ألوان الثقافة التي تدخل في عملية الإنتاج ذاتها؛ نعني بذلك تقنيات إنتاج الصورة. ويمكن أن نطلق على ذلك الوجه اسم " نص الصورة " لأنه مرتبط بالبنية أو الشكل.

أما الوجه الآخر، فهو ما يمكن أن يستنبط من منظورات إلى العالم وتوجهات القيم من مضمون الصورة. ويمكن أن نطلق على ذلك الوجه " خطاب الصورة "؛ لأنه مرتبط بالتوجه أو المضمون. والعلاقة بين " نص الصورة " و" خطاب الصورة " هي دائماً علاقة تبادلية، علاقة تأثر وتأثير. يبني نص الصورة بالتقنيات التي تدفع خطابها على النحو الذي تريده إلى المتلقي. ويبني نص الصورة بتقنية داخلية حيناً وبتقنية خارجية حيناً آخر، وقد يجمع بين النوعين حيناً ثالثاً.

يقصد بالتقنية الداخلية أن تكون من بين الوسائل التي يتيحها النمط التصويري ذاته: كالصورة الاستعارية في الصورة الشعرية. ويقصد بالتقنية الخارجية أو المستعارة دخول وسيلة أو أكثر من نمط تصويري آخر، عن وعي أو غير وعي: كإدخال بعض الوسائل من النمط التصويري التشكيلي أو السينمائي إلى الصورة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه – قياساً على "تراسل الحواس" – اسم " تراسل الفنون ".

إذا كانت الصورة العامة تنتمي إلى نمط بعينه من أنماط الثقافة في تصنيف سالزمان السابق أو غيره من العلماء، وهو الثقافة العقلية والتي مركزها المعرفة ومدارها النظرة إلى العالم وتوجهات القيم، فإن فضاء الصورة الثقافي لا تحده حدود، لا سيما الصورة السينمائية التي تعرض لنا شتى أنماط الثقافة العقلية والسلوكية والمادية (السينمائية الوثائقية).

٤- نص الصورة وخطاب الصورة :

نخصص الكلام هنا عن ثقافة الصورة في بعديها النصي والخطابي بالوقوف على بعض النماذج من شعر نزار قباني (١٩٢٣ – ١٩٩٨). يذكر دارسو شعر نزار أسباباً موضوعية لرواج ذلك الشعر: مثل غياب الشعر الغزلي (الإيروتيكي) – أي الغرامي- الأمر الذي جعل نزاراً – كما يقول شاكر نعيي – شاعره في اللاوعي الشعبي العربي، وأنه في ذلك غدا صادماً متجاوزاً. وفي مصاف الجريئين الأحرار، وأنه استثمر في شعره الأول تقاليد التخلف الثقافي خير استثمار[1].

والحق أن نزاراً هو الشاعر الجماهيري الأول في تاريخ الشعرية العربية كلها، ولا يكاد يدانيه شاعر جماهيرياً في غزله (الإيروتيكي) ولا في نقده السياسي الصريح. لم يدخر نزار وسعاً في مهاجمة الأنظمة العربية في شعره الغزلي والسياسي جميعاً؛ لأنه يراها متخلفة اجتماعياً بشأن العلاقة بين الرجل والمرأة، ولأنه يراها متخلفة سياسياً بشأن العلاقة بين الحاكم والرعية. ولكن ذلك الجانب الموضوعي لم يكن ليفتح له باب هذه الجماهيرية العظمى على مصراعيه إلا إذا خرج إلى الناس بشعره إلى المنطقة الغنية التي يتوقون إليها؛ وهي منطقة " اللغة اليومية " وقد مستها من روح شاعر لا يجافيه حضوره حرارة اللغة الشعرية وحيويتها وثراؤها التصويري والإيحائي.

هذه المنطقة فرضت على نزار – في وعي أو في غير وعي – أن يحقق في شعره المعادلة الصعبة بين كلام الناس وكلام شاعر من الناس، يكلمهم كما يتكلمون، ويصور لهم الأشياء والمواقف بمثل ما يصورون، فإذا خرج عن قالب لغوي ليحفظ للغة الشعرية طرافتها ومراوغتها خرج على ما يحفظون، أو على ما يمثل بطول العهد قوالب لغوية ثابتة في الذاكرة اللغوية الجماعية. يقول نزار الشعر كأنما يرتجل بين أيدينا الآن في غير غموض ولا تعقيد.

---

(١) [illegible]

(أ) الصورة والشفاهية الجديدة :

أن المدخل الطبيعي إلى خطاب نزار الشعري هو ما يسمي عند والترأونج W. Ong بالشفاهية الثانوية أو الشفاهية الجديدة في مقابل الشفاهية الأولية. يقول أونج: " أسمى شفاهية الثقافة التي لم تمسها مطلقاً أية معرفة بالكتابة أو الطباعة "شفاهية أولية". إنها " أولية " بالتقابل مع " الشفاهية الثانوية " التي تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية في الوقت الحاضر، حيث تحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها في وظيفتها من خلال التليفون، والراديو، والتلفاز، والوسائل الإلكترونية الأخرى التي يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة. أما الثقافة الأولية للشفاهية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم؛ ذلك أن كل الثقافات الآن تعرف شيئاً عن الكتابة ولديها شئ من الخبرة بتأثيراتها. ومع ذلك، فإن كثيراً من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة – حتى في بنية ذات تكنولوجيا عالية – بكثير مما تتصف به الشفاهية الأولية من توجه عقلي "[1].

في إطار ثقافة الشفاهية الحديدة يجب أن توضع الصورة في خطاب نزار الشعري. الشفاهية الجديدة التي طبعت شعر نزار بطابعها القوي ليست مجرد مفردات وتراكيب وأساليب. إنها استخدامات خاصة وصور تعكس دائرة معارف المجتمع وتصوراته وفهمه. الاتصال الأدبي اتصال فني، والاتصال الفني اتصال اجتماعي، واجتماعية الاتصال عند نزار في شفاهية خطابه بعامة، وشفاهية صوره بخاصة، بما تخلعه تلك الشفاهية عليهما من ثقافة وطريقة في التفكير وتصور للأشياء والعالم.

من السمات الشفاهية التي طبعت الصورة النزارية بطابعها توالي الصفات في نص الصورة الكلية. ومن هذه السمات أيضاً قرب الصورة من عالم الحياة الإنسانية: وذلك أن الثقافات الشفاهية – كما يذكر أونج – تصوغ كل

---

(١) أونج، والتر ج: الشفاهية والكتابية، ترجمة دكتور/ حسن البنا عز الدين، مراجعة دكتور/ محمد عصفور، عالم المعرفة (العدد ١٨٢ الكويت، شعبان ١٤١٤ هـ، فبراير ١٩٩٤م) ص ٤٩.

[illegible] شخصيات حيوانية تتصف بالصلة بالحياة الإنسانية، ويعكس [illegible] توصيفي عبر [illegible] بعض العلاقات الإنسانية المألوفة [illegible] علامات لغوية مثل الفراخ والدجاج والديوك والأسماك القطط والحيوان والخرفان ونحوها - بما ترتبط به في الثقافة الشعبية من دلالات وخبرات يومية بسيطة ومباشرة مما ألفه الشعر في رسم صوره. يقول [illegible]

والأخـــــــــوة الكـــــــــرام

نـائمون فـوق البـيض كالـدجاج

(السيمفونية الجنوبية/ قصائد مغضوب عليها ص٧٥)

ويقول نزار:

فنحن محبوسون في محطة التاريخ كالخرفان

(لا/ بانتظار غودو ص٧٧)

وكذلك الحال مع علامات من حقل دلالي آخر: كالخبز والفطير والتفاح والسردين ونحوها. يقول نزار:

لا قـــصيدة تخـــرج مـــن بـــين أصـــابعي

إلا وهـــــي ســــاخنة كرغيـــف الخبـــز

(أنا رجل واحد/ أنا رجل واحد ص٦٧)

ويقول:

أيتهـــا المـــرأة المعجونـــة بأنوثتهـــا

كفطـــــــــــيرة العـــــــــسل

(أحبك وأقفل القوس/ أنا رجل واحد ص١٢٥)

تعكس مثل هذه الصور التشبيهية التي يجمعها بالقارئ خبرات مشتركة ومعان مشتركة تفكيراً شفاهياً بالغ الرهافة وتأملياً على نحو ما يعرف عن

[illegible]

التفكير الشفاهي بعامة، ولأن نزاراً يهيمن سياق النص لمثل تلك الصور، فإنها تأتلف معه ائتلاف السدى باللحمة.

في هذا الإطار الشفاهي توضع أيضاً وفرة وافرة من الاستخدامات المجازية الشعبية في شعر نزار: كقوله:

فأنـــا العـــــب بالكبريـــــت
وأحـــرق نفــسي مثــل جميــع الأطفـــال

(أستاذ الحب يستقيل / أنا رجل واحد ص٢٠٣)

وقوله:

كيــــف يــــا ســــيدي يغـــني المغـــني
هـــل إذا مـــات شـــاعر عربـــي
يجـــد اليـــوم مـــن يـــصلي عليـــه؟
لا يبوس اليدين شعري، وأحرى بالسلاطين أن يبوسوا يديه!

(كيف؟ قصائد مغضوب عليها ص٨)

ويذكر أونج أن المجتمعات الشفاهية تعيش إلى حد كبير جداً في الحاضر. على نحو يحفظها في توازن من خلال التخلص من الذكريات التي لم يعد لها صلة بالحاضر[1]، وأن التقاليد الشفاهية تعكس قيم المجتمع الثقافية الحاضرة أكثر مما تعكس حب الاستطلاع المجرد حول الماضي[2]. وهنا نلاحظ أن اشتغال صور نزار على قيم المجتمع الثقافية الحاضرة يدل عليها ندرة الصور الخيالية والتجريدية أمام الصور البصرية المشغولة بحاضر الشاعر والناس في الحب والسياسة (انظر مثلاً: قصيدة "لا غالب إلا الحب" من ديوان يحمل اسم القصيدة ذاته، وانظر أيضاً قصيدة "الوصية" من ديوان "لا").

ومما يلاحظ أيضاً أن صور نزار صور موقفية أكثر منها تجريدية. وهي بذلك تتفق مع سمة جوهرية في الثقافات الشفاهية، حيث تميل تلك الثقافات

---

(1) المرجع نفسه ص١١١
(2) المرجع نفسه ص١١١

[illegible]

[illegible]

القائـــــد لم يــــــذهب أبـــــداً

بـــل دخـــل الغرفـــة كـــي يرتـــاح

وسيـــصحو حـــين تطـــل الـــشمس

كمـــا يـــصحو عطـــر التفـــاح

الخبـــز ســـيأكله معنـــا

وسيـــشرب قهوتـــه معنـــا

ونقـــول لـــــه

ويقـــول لنـــــا

القائـــد يـــشعر بالإرهـــاق

فخلـــوه يغفـــو ســـاعات

يضرب نزار في مثل هذا المقطع عن عبد الناصر عرض الحائط بتقاليد قصيدة الرثاء الثقافية وأعرافها الفنية جميعاً. تعرض علينا مثل هذه الصورة الكلية موقفاً اجتماعياً وأفعالاً اتصالية يومية عادية. هذه المغايرة أو الانحراف عن النمط الرثائي المألوف من خلال الصور الموقفية تستدعي بالضرورة مقولة هـ ج. ودوسون H.G Widdowson السديدة: " على رغم أن الأدب لا يحتاج إلى أن يكون منحرفاً deviant من حيث هو نص، فإنه ينبغي له بطبيعته أن يكون منحرفاً من حيث هو خطاب "(٢). على مستوى البنية

---

(١) مرجع سابق، ص ١١٨

(٢) Widdowson, H. G., Stylistics and the Teaching of Literature, Longman, London, (1975), P. 47

النسبية يخلو المقطع السابق من أي مظهر من مظاهر الانحراف. لكنه – من حيث هو خطاب في موقف معين – مخترق دلالة الصور الخطابية التي يلتقط القارئ خيوطها في ضوء نسيجها الاجتماعي، عن القوالب الثابتة والمبالغات المفروضة

ولعل الإطناب التصويري جزء من الإطناب الذي تتميز به الثقافات الشفاهية. نلحظ في كثير من شعر نزار إطناباً تصويرياً، مصدره توالي الصور المتغايرة أحياناً كثيرة، حتى تبلغ مبلغ الفوضى، ولكنها فوضى الارتجال الجميلة: كقوله:

أريـــــدك أن تكـــــوني حبيـــــبتي

حتـــــى تنتـــــصر القـــــصيدة

علـــــى المـــــسدس الكـــــاتم للـــــصوت

وينتـــــصر التلاميـــــذ

علـــــى الغـــــازات المـــــسيلة للـــــدموع

وتنتـــــصر الـــــوردة

علـــــى هـــــراوة رجـــــل البـــــوليس

وتنتـــــصر المكتبـــــات

علـــــى مـــــصانع الأســـــلحة

(أحبك حتى ترتفع السماء/لا غالب إلا الحب ص٨٨)

أو قوله:

مـــــن علمـــــني

كيـــــف أقـــــشر كالتفاحـــــة قلـــــبي

حتـــــى تأكـــــل منـــــه نـــــساء الأرض جميعًـــــا

كنـــــت لـــــه عبـــــدًا

مــــــــــــــن علمــــــــــــــــــي

كيـــــــــف أوســــــــــع وطنًـــــــــا

بــــــــشبه شـــــــكل القلــــــــب ،

وشـــــــكل الـــــــشريان التــــــاجي ،

وشـــــــكل العـــــــصفور الـــــــدوري،

وشـــــــكل التفـــــــاح الـــــــشامي

لكنـــــــت لـــــــه أيـــــــضًا عبـــــــدًا

(من علمني حبًا/ تزوجتك أيتها الحرية ص٦٦)

هكذا يمتد في مثل هذه المقاطع والقصائد ما نسميه بالإطناب التعبيري الذي ينتج عن عفوية التصوير. فتتوالى الصور وتتداخل حتى تعكس شيئًا من الفوضى. ولكنها - كما قلت - الفوضى الجميلة التي تشبه الفوضى التي يتحدث عنها غيورغي غاتشف. إنها تعبر عن النبض الحي لحياة الحرة. هذا النبض الذي يحطم كل تخطيط مسبق، ويعصف بقيود مخططات المنطق العقلي، بل بقيود مخططات المنطق الفني القبلي.

هناك دائماً مجاهدة خفية في الفن الشعري، شأنه شأن الفنون كافة، في التعبير عن القيم الثقافية بوصفها مبادئ للعلاقات بين الأفراد والمجتمعات. يرى فولفغانغ شولتز Wolfgang Schulz إسهامات Cohn - أحد ممثلي الكانطية الجديدة Neukantianismus - في النظرية الثقافية، فيضع يده على ملاحظة كون المهمة، وهي: أن توجهات القيم تحدد من خلال بنية جدلية Dialektische Str... تعبر عنها حالات التوتر بين استقلالية الأفراد من ناحية واندماجهم في المجتمع من ناحية أخرى(1). لا تكاد العلاقات بين الشاعر

---

(1) Schulz, Wolfgang K.: Wert-Symbol-Wissen: Anmerkungen zum Paradigmenwechsel in der Kulturtheorie der Weimarer Zeit. In: Helmut Brackert / Fritz Wefelmeyer (Hrsg.): Kultur. Bestimmungen im 20. Jahrhundert. Suhrkamp. Frankfurt (1990) SS. 138-155, S. 13[illegible]

والحياة السياسية تتقطع عن توترها في حاضر اليم وطموحات مؤجلة. يلجأ نزار في نقده السياسي للاستبداد الممتد بجدوره إلى التصوير الساخر في إطار صور كلية تستمد خيالها وعلاماتها اللغوية وتبني تأثيراتها على رصيد ثقافي مشترك. في سعي إلى تجديد الوعي بذلك الحاضر وبتلك الطموحات. نلاحظ هنا أن للصورة الكلية الساخرة نواة لفظية تستقطب في تأثيرها الدلالة الاجتماعية الحافة والمكتسبة من تجارب وخبرات يومية بسيطة؛ كالطبلة والديك ونحوهما.

يقول نزار:

الحـــــاكم يــــــضرب بالطبلـــــــة

وجميـع وزارات الإعـلام تـدق علـى ذات الطبلـة

وجميـع وكـالات الأنبـاء تـضخم إيقـاع الطبلـة

والـــــصحف الكـــــبرى والـــــصغرى

تعمـــــــل أيـــــــضاً راقـــــــصة

في ملـــــــهى تملكـــــــه الدولـــــــة!!

(عزف منفرد على الطبلة/ قصائد مغضوب عليها ص١٣٦)

ويقول نزار في المقطع الحادي عشر من قصيدة "الديك":

حـــين يمـــر الـــديك بـــسوق القريـــة

مزهـــــواً، منفـــــوش الـــــريش

وعلـــى كتفيـــه تـــضئ نياشـــين التحريـــر

يـــصرخ كـــل دجـــاج القريـــة في إعجـــاب:

"يـــا ســـيدنا الـــديك".

"يـــا مولانـــا الـــديك".

يا جمال الحب ويا عطر البستان

أنت حبيب ملايين النسوان

هل تحتاج إلى جارية؟

هل تحتاج إلى خادمة؟

هل تحتاج إلى تدليلة؟

(الديك/ أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء ص٢٥٩)

لقبيلة تعطي سريانها حتى وإن تصدمت مع الأعراف الاجتماعية أو ما يبدو كأنه من تلك الأعراف. للقبيلة والديك في العرف الاجتماعي دلالات اجتماعية رمزية على التهويل الأجوف والزهو الكاذب.

يريد الشاعر بهاتين الصورتين الكليتين الساخرتين ليستنهض الوعي الاجتماعي تجاه موقف ما تجاه ذلك الواقع الذي استشرى فيه الفساد والاستبداد وطال.

ومهما يكن من أمر، فإن الإطار الذي يتسع لتأمل الصورة من منظور ثقافي هو الشفاهية الجديدة، بل إن إطار الشفاهية الجديدة ليتسع لتفسير معظم ما يتسم به شعر نزار من سمات أسلوبية. كان الدكتور صلاح فضل قد لاحظ أن المقطع عند نزار يحل محل البيت، وأنه أصبح جملة واحدة مطولة يعيد إنتاج نموذج التكرار في الشعر الإحيائي. حينما يعيد الشاعر في الشطر الثاني ما ذكره الأول تقريباً مع اختلاف في الترتيب [1]. الواقع الذي نراه هو أن نزاراً لا يعيد نموذج التكرار في الشعر الإحيائي ولا في غيره من مدارس الشعر الأخرى. إنما جاء التكرار على النحو الذي ذكره وفي أنحاء أخرى كثيرة من تلك الشفاهية الثانوية التي صبغت شعره بصبغتها في الصور والأساليب وبنى الكلام جميعاً. ونحن نعرف في نظرية اللغة المنطوقة أو الشفاهية مركزية التكرار وتعدد صوره.

[illegible]

(ب) الصورة وإشكالية التراسل :

التراسل الذي نقصده هنا هو ما أسميناه بتراسل الفنون. أبدت الشعرية العربية المعاصرة وعياً أقوى بالتفاعل الخلاق بين الفنون في الغايات والوسائل. فضلاً عن تمايز اتجاهات الشعرية العربية المعاصرة في بنية الصورة الدلالية تمايزاً عاماً بين تجريدية في الاتجاه الرمزي الصوفي والاتجاه الرمزي الأسطوري، وحسية موقفية في الاتجاه الواقعي الاجتماعي، فإنه يمكن القول بأن أهم ملامح التطور العام على مستوى التقنية منذ جيل الرواد حتى الآن هو تراسل الصورة الشعرية مع التصوير السينمائي والتشكيلي في التقنيات الأساسية. يمكن تفسير هذا التراسل بأنه موقف ثقافي من مسألة العلاقة بين الفنون. وهو موقف ثقافي عملي من الأساس، وإن أفصح عنه بعض الشعراء المعاصرين في نظريتهم عن الإبداع الشعري الحقيقي، بل أفصحوا عنه في بعض عناوين القصائد والدواوين (أذكر مثلاً ديوان " الرسم بالكلمات " لنزار نفسه).

اختلف الباحثون في تعيين أقرب الفنون إلى الأدب. يرى كل من ليسنغ وديدرو أن الرسم هو أقرب الفنون إلى الأدب، من حيث طريقة المحاكاة وتصوير الأشياء. أما غيورغي غاتشيف، فيرى أن الموسيقى هي أقرب الفنون إلى الأدب. ويرى غاتشيف أنهما يتباينان في طريقة التعبير عن الإيقاع العام للوجود والعالم الداخلي للإنسان". من ناحية أخرى، يشير غاتشيف إلى حاجة الشعر إلى الفنون التي اختصت بالصور المادية التجسيمية: كالعمارة والنحت: " ما دامت الصور المادية – التجسيمية في العمارة والنحت هي، قبل كل شيء، الصورة النمطية بالنسبة للوعي الفني في المرحلة القديمة، فإن الشعر، بغية تأكيد ذاته، يحس بحاجة إلى الاستناد إلى أخوته الكبار الذين هم أرسخ قدماً منه ". وكان سيمونيد يعتبر التشكيل " شعراً صامتاً " والشعر " تشكيلاً صائتاً ".

من ناحية أخرى، عرفت محاولات لنهجة الصورة السينمائية وتنسيقها

[illegible] بالحقيقة [illegible] نتاج صنعة، سواء تعلق الأمر بالحق اللقطة بالكلمة، أم تقطع بالجملة كما لدى إيزنشتاين، أم بتفكير وحدات سيميائية Cenèmes و تغطيات موتيمات دلالية كما لدى بازوليني" ويعلل دوبري ذلك بأن اللوحة والصورة واللقطة لا تتجزأ إلى مقاطع أو أجزاء أو خطوط قابلة للمقارنة مع الكلمات والأصوات. ولا تكتسب معنى بلعبة تعارضاتها"[1].

بيد أن المقارنة بين الشعر والسينما من حيث الخصائص العامة المشتركة - تجعلنا نؤكد أن اللقطة السينمائية قد تعتمد أيضاً على التكثيف والإيحاء والرمز. وقد تعتمد على التعريض والكناية. وقد تعتمد على المجاز المرسل والتشبيه. يمكن مثلاً تركيز عين الكاميرا على عين الشخصية في طبقة دالة من طبقات النظر في موقف بعينه. كما يمكن مجاوزة عين الكاميرا اللقطة إلى أخرى للمقارنة التي تريدها من المشاهد.

في الثقافة العربية، فطن الفكر الفلسفي والنقدي للعلاقات بين الشعر والرسم. يرى الفارابي مناسبة بين أهل صناعة الشعر وما يسميه أهل صناعة التزويق. ويرى أن هاتين الصناعتين متفقتان في الأفعال والأغراض: ففعلاهما التشبيه. وغرضاهما إيقاع المحاكيات في أوهام الناس وحواسهم. يقول الفارابي: " بين أهل صناعة الشعر وأهل صناعة التزويق مناسبة، وكأنهما مختلفتان في مادة الصناعة ومتفقتان في صورتها وفي أفعالها وأغراضها. أو نقول: إن بين الفاعلين والصورتين والغرضين تشابها: وذلك أن موضوع هذه الصناعة التأويل، وموضوع تلك الصناعة الأصباغ، وأن بين كليهما فرقاً، إلا أن فعليهما جميعاً التشبيه، وغرضهما إيقاع المحاكيات في أوهام الناس وحواسهم "[3].

المناسبة من منظور المحاكاة عند الفارابي تقابلها المناسبة من منظور التخييل عند عبد القاهر الجرجاني. يقول عبد القاهر: " فالاحتفال والصنعة

---

(1) المرجع السابق ص٤٣

(2) المرجع نفسه ص٤٣

(3) [illegible] تحقيق دكتور: عبد الرحمن بدوي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة، ١٩٥٣، ص١٥٦-١٥٨.

في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتخيلات التي تهز الممدوحين وتحركهم وتفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقر: فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتروق وتونق، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه. فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور، ويشكله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجامد الصامت في صور الحي الناطق، والموات الأخرس في قضية الفصيح المعرب والمبين المميز "[1].

المشابهة بين الشعر والفنون الأخرى كالرسم والنحت ونحوهما في الغرض والفعل في النفس - على رغم الاختلاف في المادة - فكرة راسخة إذن في الثقافة العربية منذ قرون طويلة، وإن كنا - للأسف البالغ - لا نكاد نرى تطويراً لها في الفكر النقدي العربي إلا تلك الإشارات القليلة المتأخرة جداً عند بعض النقاد الحداثيين المعاصرين.

لعل رسوخ فكرة المشابهة بين الفن الشعري وفنون أخرى في الثقافة العربية يقود إلى الإشارة إلى أن ما نراه في كثير من القصائد السردية المعاصرة من تقطيع وكتابة شعرية سينارية ليس بالضرورة وليد تأثر الشاعر العربي المعاصر بتقنيات تصويرية سينمائية. إنها بالأحرى منبهات لا شعورية للمبالغة في المعنى عن طريق المحاكاة لفن آخر. قصائد سردية في عصور الشعر العربي القديمة بنهت على مثل هذه الكتابة الشعرية السينارية ولم تكن تقنيات التصوير السينمائي قد عرفت بالطبع بعد. انظر مثلاً إلى بعض قصائد عنترة في غزلياته الفروسية. وانظر إلى بعض قصائد البحتري: كقصيدته المشهورة في وصف الذئب والصراع بين الذئب والشاعر. إنها سرديات سينارية من طراز عال لعل وجوهاً عدة للمشابهة بين نصوص شعرية قديمة وما نعرفه الآن في التقطيع التقني السينمائي أو مراعاة الأبعاد

---

(1) [illegible]

[illegible]

[illegible] ... أو الصورة ... [illegible] ... الصور هي أفضل وسيلة ... [illegible] ... في قصيدة (إلى مصطفة) من ديوان ... (ص ١١٠ - ١١١) يقول نزار:

.. ويقـــال عـــن ســـاقيك: إنهمـــا

في العـــري .. مزرعتـــان للفـــل

ويقـــال أشـــرطة الحريـــر .. همـــا

ويقـــال: انبوبـــان مـــن طـــل

ويقـــال: شـــلالان مـــن ذهـــب

في جـــورب كالـــصبح مبتـــل

هـــرب الـــرداء وراء ركبتهـــا

فتعمـــت في مـــاء .. وفي ظـــل

ترسم هذه الأبيات لوحة تشكيلية بارعة لساق عارية اتخذت صاحبتها وضعاً خاصاً، هو وضع الاضطجاع الذي يجعل الصورة كلها في وضع التملي تصوره اللغة بعلاماتها من هيئات وتفاصيل، تمس المخيلة والحساسية الجمالية أكثر مما تمس الإثارة الغريزية. بيد أن مثل هذا التجويد الفني الذي يخفي معالم الشهوانية، قد يزول زواله في صور أخرى تتضح بالتصوير الحسي الشهواني. من ثم، كان الخلاف بين نقاد نزار في شأن التصوير بين

[illegible]

الحسية والجمالية متوقعاً. وسم دكتور صلاح فضل شعرية نزار بـ "شعرية الحس" [1] وانبرى حسين العوري في رفضه تلك الدعوى لبيان أن أداة الحس في نص نزار - انطلاقاً من ظاهرة "تراسل الحواس" أو ما يسميه العوري "الحس المتزامن" - ليست أداة بسيطة (أذن أو عين)، وإنما هي أداة معقدة: فما تكاد حاسة السمع - مثلاً - تقرع حتى تتحول عن طريق التخييل من لمس إلى بصر، أو من ذوق إلى لمس إلى شم"[2]

والحق أن العوري لم يفعل شيئاً، فما زالت التراسلات تراسلات بين الحواس. بيد أن نصوصاً أخرى غير قليلة من شعر نزار - على نحو ما رأينا في النموذج السابق - قد استحال فيها الجسد الأنثوي إلى لوحة فنية مقصودة لذاتها، ولكنها - من ناحية أخرى - تعكس مخيلة الشاعر الخصبة وحساسيته الجمالية البريئة من الاشتهاء.

في حالات أخرى تبني القصيدة كاملة على صورة كلية من نمط الصورة- الحركة التي يعرفها الفن السينمائي: كالقصيدة - الصورة التالية التي يصور فيها راقصة شرقية، وعنوانها "ذنبة" من ديوانه (طفولة نهد ص ١٣٢- ١٣٤):

.. وداست على أذرع الضوء ..

ترقص .. ميداء عنبية

كقافلة العطر .. تطوى المدى

سحابة إثر سحابة

تلب خلال المصابيح

نهراً .. أضاع مصبه

على شعرها الغجري

[illegible]

بـــــــنن مـــــــمـــــاء .. ورهبـــــــة

وفي ثغرهـــــا الكـــــرزي الملـــــن

تبرعـــــــــم رغبـــــــــة

علـــــى نقلـــــة الـــــساق ..

يهمـــــر ثلـــــج .. وتخــــضل تربـــــة

وفي مقلــــــــع للـــرخـــــــام ..

هنالـــــك، تتـــــبض هـــــضبـــة

إذا انفعـــــل اللحـــــن .. ثـــــارت

شـــــفاها .. وصـــــدرا .. وركبـــــة

ونـــــديا .. كزوبعـــــة الفـــــل

تمـــــد إلى الـــــنجم ظفـــــرا

غميـــــماً .. تحـــــاول جذبـــــه

وقـــــد تـــــنحني مـــــرة في الطريـــــق

لتلقـــــط حبـــــــة

إذا انتحـــــر اللحـــــن .. راحـــــت

تـــــئن علـــــى الأرض .. نثبـــــة

يمكن القول بأن تمثل تقنيات الصورة السينمائية في الصورة الشعرية التي بنيت عليها القصيدة السابقة نوع من رغبة البلوغ بالصورة الشعرية أقصى درجات الحيوية والحضور. إذا كان تمثل الصورة الشعرية للصورة التشكيلية تمثل للمكان الذي يتسع للأبعاد والعلاقات بين الألوان، فإن تمثل الصورة الشعرية للصورة السينمائية تمثل للمكان والزمان في آن معاً؛ ذلك أنها تبني

على الصورة– الحركة. وليس الصورة التي تضاف إليها الحركة. يقول جيل دولوز Gilles Deleuze: "لا تقدم لنا السينما صورة ستضاف إليها الحركة، ولكنها تقدم لنا مباشرة صورة – حركة. تقدم لنا بالتأكيد مقطعاً، ولكنه مقطع متحرك، وليس مقطعا ساكناً "حركة مجردة"[1]. في القصيدة – الصورة السابقة على الحركة، وهي حركة متطورة: من دوس ورقص وطي للمدى ونقل للساق ونبض للهضاب (على الكناية) وانفعال للحن وثورة للشفاه والصدور .... إلخ. الحركة حضور. وهذه الصورة – الحركة التي قامت عليها القصيدة تفتح لنزار نافذة أخرى على مطالعة جماليات الجسد الأنثوي في أوضاع حركية مختلفة تجود بها هذه الراقصة الذهبية!

في الصورة – الحركة السابقة تظهر بعض تقنيات الصورة السينمائية ومبادئها:

١- فالصورة السينمائية تقف على لحظات ما من الزمان، يمكن أن تكون مألوفة أو منفردة، عادية أو بارزة[2]. وهنا يقف نزار عند تلك اللحظات المتميزة للراقصة وهي تتعاطى الرقص في نشوة ومزاج عذب، وقد دل نص الصورة على ذلك لغوياً بالقطع ثم العطف على محذوف مدلول عليه كتابياً بالنقطتين في صدر البيت الأول من القصيدة.

٢- في "إطار الصورة "السينمائية أو "اللقطة "ما يسمي بـ "ضبط حدود الإطار Cadrage "، وهو عبارة عن تحديد منظومة مغلقة نسبياً، تحتوي على كل ما هو ماثل في الصورة: ديكور، وشخصيات، واكسسوارات. فالكادر، او إطار الصورة، هو مجموع من عدد كبير من الأجزاء: أي من العناصر التي تدخل هي نفسها في أجزاء – مجاميع Sous-ensembles[3]. وفي هذه القصيدة – الصورة تلعب أذرع الضوء والمصابيح دوراً مهماً في إطار الصورة من حيث دلالتها على المكان والزمان، ويلعب شعر الراقصة الغجري، وثغرها الكرزي، وسيقانها المتنقلة دور المثيرات

---

(١) دولوز، جيل. الصورة – الحركة (أو فلسفة الصورة). ترجمة حسن عودة. منشورات وزارة الثقافة. دمشق (١٩٩٧) ص٧

(٢) المرجع السابق ص١٢

(٣) المرجع نفسه ص٢١.

تمرف منطوقاته قوى إنجازية عدة. في الغرض الإنجازي الإخباري مثلاً يمكن ان نقول: 'ضاعَ وأظنه ضاعَ و 'واأسفاه، ضاع!'. وفي الغرض الإنجازي التوجيهي، يمكن ان نقول: 'توقف عن الكلام!' و 'توقف عن الكلام، من فضلك!' و'توقف عن الكلام راضياً أو غير راض!'. في كل من 'ضاعَ' و'توقف عن الكلامْ' لحصل على القوة الإنجازية الأبسط ذات الغرض الإخباري أو التوجيهي. وفي 'أظنه ضاعَ' و 'توقف عن الكلام، من فضلكْ' تدخل علامة من علامات القوة هي فيهما علامة إنقاص في درجة القوة؛ لأنها تضعف قوة التبليغ في الغرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأدب، في تحقيقها الغرض الإنجازي التوجيهي (فالمتكلم باستخدامه 'من فضلكْ' يمنح المستمع حق الاختيار في عمل عارله بجعله يفعل شيئاً ما)[1]. وفي المنطوقين الأخيرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تعلن 'واأسفاهْ' عن أسف المتكلم الذي ينقله المحتوى القضوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن، وتلغي 'راضياً أو غير راضْ' حق المستمع في الاختيار، فيصبح للمنطوق قوة الجبر أو الإرغام على الفعل.

علامات القوة السابقة، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبية تعد مفاتيح لغوية تقود إلى تعيين القوى الإنجازية والتميز بين درجاتها. يضاف إلى

(١) يتضمن التأدب -بوجه عام- مراعاة مشاعر الآخرين. وكما تقول جانيت هولمز، فإن التأدب يعني لغوياً أن تخاطب الآخرين على ضوء علاقتهم بك. أما الخيارات اللغوية غير المناسبة، فيمكن أن تعد خشونة أو قلة أدب. وتشير جانيت إلى أننا بحاجة إلى أن نفهم القيم الاجتماعية لمجتمع ما حتى نتكلم على نحو مؤدب. وتجمل جانيت للتأدب نمطين اثنين هما: التأدب الإيجابي Positive Politeness الذي يتجه إلى تحقيق التماسك Solidarity. وذلك أنه يدعم السلوكيات والقيم المشتركة. والنمط الثاني هو التأدب السلبي negative politeness الذي يدفع الناس إلى أن يبجل بعضهم بعضاً وألا يعتدي أحدهم على الآخر: Holmes, Janet: An Introduction to Sociolinguistics. Longman. London and New York (1992) pp. 296-297.

تلك المقاييح اللغوية اعتبارات تداولية (بما في ذلك أعراف الاستعمال الضمنية كما شرحها سيرل[1]، والاستلزامات الحوارية Conversational Implicatures بما في ذلك المبادئ الخمسة التي قدمها جرايس والتي يتبعها المشاركون في التخاطب)[2].

(هـ) نسبية القوة

إذا كانت القوة الإنجازية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين يعبر بهما عن غرض إنجازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، أياً كان المؤشر أو العلامة الدالة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف درجات متفاوتة، فإن القوة الإنجازية ينبغي لها أن توصف بأنها نسبية. بيان ذلك أن الأمر -مثلاً- يوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الغرض الإنجازي التوجيهي، وأنه الأشد تحققاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، في ضوء الاستعمال الفعلي المرتبط بالواقعة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك يستعصي على التسليم. إذا قارنا مثلاً الأمرَ بالصيغة ذات الفعل المساعد 'يجبُ' أو 'ينبغي' سيبدو 'الأمرُ' من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون المتكلم في كامل سلطته in full authority (كالقائد في الجيش) للتأكد من أن أمراً قد صدر (في حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين 'يجبُ' أو 'ينبغي') ومن ناحية أخرى، سيبدو 'الأمرُ' أضعف كثيراً عندما يستعمل في مثل: أُدخلْ! (في إجابة عن طرقة باب). إنه في الحال الأخيرة، يعطي إذناً. وهي

---

(1) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(2) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds.): Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp.44-45

وقارن:
العبد، محمد: العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال. دار الفكر العربي. ط1 (1416-1995) ص81 وما بعدها.

في الشعرية المعاصرة عند غير واحد من الشعراء الحداثيين على نحو تبرره معايشة يومية لفنون الصورة الأخرى، مما يعني بالضرورة استثمار الصورة الشعرية لطرائق أخرى للإبلاغ والتواصل. إذا كان لنص الصورة مركزيته المطلقة في الثقافة العربية، فقد آن الأوان لتذليل شتى المعارف لتحليل خطابها، وسوف تصبح قراءة الصورة الشعرية من حيث هي نافذة الشاعر المفتوحة على العالم في ضوء فنون التشكيل والتصوير الأخرى دعامة أساسية لمثل ذلك التحليل.

●●● ●●● ●●●



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : النص الحجاجي العربي - دراسة في وسائل الإقناع	١٤١-٢١٢
١ - توطئة	١٤٣
(أ) أنواع النصوص	١٤٣
(ب) الحجاج والنص الحجاجي	١٤٦
(ج) الحجاج والإقناع	١٤٩
(د) الحجاج عند العرب	١٥٠
٢- النصوص المختارة ومكونات البنية الحجاجية	١٥٥
٣- وسائل الإقناع	١٦٨
(أ) الوسائل المنطقية الدلالية	١٦٨
أ/ ١- القياس المنطقي	١٦٨
أ/ ٢- القياس المضمر	١٧٢
أ/ ٣- القياس المتدرج	١٧٤
(ب) الوسائل اللغوية	١٧٨
ب/ ١- بنية التكرير	١٧٨
ب/ ٢- بنية التوازي	١٩٦
ب/ ٣- بنية الازدواج	٢٠٦
الفصل الرابع : تحليل القوة الإنجازية - دراسة في التحليل التداولي للخطاب	٢١٣-٢٦٠
١ - توطئة	٢١٥
٢ - القوة الإنجازية	٢١٩

الموضوع	الصفحة
(أ) مفهوم القوة	٢٢١
(ب) القوة والمقصد والسياق	٢٢٣
(ج) القوة والعرض	٢٢٦
(د) علامات القوة	٢٢٨
(هـ) نسبية القوة	٢٣٠
٣ - تعديل القوة الإنجازية	٢٣١
(أ) استراتيجيات التعديل	٢٣٢
(ب) أسباب تعديل القوة	٢٣٤
(ج) وسائل تعديل القوة	٢٤٠
أولاً - وسائل التقوية	٢٤١
ثانياً - وسائل الإضعاف	٢٤٥
الفصل الخامس : الصورة والثقافة والاتصال	٢٦١ - ٣٠٠
١ - توطئة	٢٦٣
٢ - الاتصال الأدبي والصورة	٢٦٦
٣ - الصورة والثقافة	٢٧٤
٤ - نص الصورة وخطاب الصورة	٢٨٢
(أ) الصورة والشفاهية الجديدة	٢٨٣
(ب) الصورة وإشكالية التواصل	٢٩١
الفهرس	٣٠١-٣٠٢